الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد ـ تلمسان ـ

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

تخصص : أدب حديث ومعاصر

الحجاج في فن الخطابة
البشير الإبراهيمي أنموذجا

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه (ل.م.د)

إعداد الطالب : النواري حليتيم

إشراف الأستاذ الدكتور : لخضر العرابي

لجنة المناقشة :

اسم ولقب الأستاذ	جامعة الانتساب	الرتبة العلمية	الصفة
أ.د/ عبد الجليل مرتاض	تلمسان	أستاذ التعليم العالي	رئيسا
أ.د/ لخضر العرابي	تلمسان	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا
أ.د/ محمد بن عمر	تلمسان	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا
أ.د/ دواح أحمد	المركز الجامعي مغنية	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا
أ.د/ بن مالك سيدي محمد	المركز الجامعي مغنية	أستاذ التعليم العالي	عضوا مناقشا

السنة الجامعية: 2021 / 2022

بسم الله الرحمن الرحيم

- **مقدمة :**

لقد عرفت العلوم الإنسانيّة تطوّرا ملحوظا بعد الركود الذي عاشته قبل عصر النّهضة في شتّى المجالات وفي مختلف التخصّصات، كما شمل هذا التطوّر علوم الأدب، الشّيء الذي أدّى إلى ظهور أنواع أدبيّة جديدة، كالشّعر الحرّ، وقصيدة النّثر، والمقالة، والرواية بمفهومها الحديث ... وغيرها، مستفيدة من التقدّم التكنولوجي الذي بسط الطريق، ومهّد السبل للاحتكاك بالغرب والاستفادة من الموروث والمستجدّات الأدبيّة المختلفة، كما أنّ هناك أنواعا أخرى كانت موجودة في الأدب العربي واستفادت من هذا التطوّر أيضا، والتي من بينها الخطابة هذا الفنّ الأدبي الأصيل، الذي يستمدّ معينه من الدّين الإسلامي، وعمقه من التّاريخ العربي الطّويل، منذ العصر الجاهلي إلى أيّامنا هذه لذا كان لزاما أن نقف أمام هذا النّوع الأدبي في العصر الحديث لنعرف بعض أسراره وخباياه .

فممّا لا شك فيه أنّ الخطابة فن عريق، يستمدّ أصالته وقدمه من عمق الإنسان العربي شأنها شأن الشعر، فكما كان لكلّ قبيلة شاعر كان لها بالمقابل خطيب يذود عن عرضها ويتكلّم بلسانها، ويمثّلها في المحافل والأسواق، وقد وصلتنا نماذج من الخطب قبل الإسلام تشهد على صحّة ذلك، وعلى الرّغم من قلّتها إلّا أنّها كانت تمثّل تاريخا أدبيّا، وموردا عذبا لكل دارس، ويرجع هذا الإقلال لصعوبة حفظ الخطب، ولولع النّاس بالشّعر.

كما أنّه كثيرا ما نسمع عن خطيب ناجح تشدّ إليه الرحال، وتضرب إليه أكباد الإبل يَجْمُل عند النّاس ذكره، ويَحْسُن بالإجماع قوله وفعله، وبالمقابل نسمع عن آخر يُعذِّب النّاس بحديثه ويَجْلِدهم بطول كلامه، وبين هذا وذاك إمّا مطيل مملّ أو مقصّر مخلّ، فما هو السرّ في نجاح هذا وفشل ذاك ؟ هل هي شخصيّة الخطيب وثقافته ؟ أم هو موضوع الخطبة ؟ أم هي الوسائل المحيطة بالخطيب ؟ أم هو المجتمع بحدّ ذاته ؟

والحقيقة التي لا لبس فيها أنّ الخطب تتفاوت فيما بينها، والأساليب تختلف من خطيب لآخر، ومردّ ذلك إلى الوسائل والطّرق التي يتبعها كل الخطيب، والتي يمكن من خلالها أن يحسّن من أدائه، ويطوّر في خطبته، ويخرج من النمطيّة والتقليد المعتادين إلى أفق الإبداع

والتألّق، ومن هنا كان منطلق هذه الدراسة . فالعلوم قد بلغت شأوا كبيرا من التطوّر، وتداخلت فيما بينها، وخدم بعضها بعضا والخطابة أيضا يمكنها أن تستفيد من هذا التطوّر العلمي وتنهل من هذا المعين بما يخدمها، ويرقى بها إلى مدارج الكمال، من هذه الأساليب والإجراءات ما يعرف بالحجاج، الذي يهتمّ بدراسة الأساليب الإقناعية، وهي لبّ ما تحتاجه الخطبة، فبناء المعنى يجب أن تتّحد فيه علوم الماضي والحاضر، وجهود القدماء والمحدثين حتّى نصل إلى الخطاب النّموذجي، الذي يؤدّي رسالته على أتمّ وجه، وأكمل صفة .

وسأحاول من خلال هذا العمل التطرّق إلى أهمّ الآليات الحجاجيّة التي تسهم بشكل فعّال في إيصال المعنى للمتلقّي، دون أن أغفل الجمع بين أقوال أهل الاختصاص من علماء الأدب والنّفس والاجتماع، معطيا في الوقت نفسه كل عنصر أهمّيته المنوطة به، ومبيّنا دور الحجاج وأهمّيته، وموضّحا أهمّ العناصر والنّقاط التي يجب على الخطيب أن يركّز عليها في بناء خطبته .

إشكالية الدراسة : لقد جاءت هذه الدّراسة تحت عنوان : (الحجاج في فنّ الخطابة ـ البشير الإبراهيمي أنموذجا ـ)، وجاء العنوان محتويا على إشكالية البحث كيف نستطيع أن نرقى بالخطبة من خلال استعمال آليات الحجاج، أو ما هي العوامل التي تسهم في بناء المعنى وتقديم الإقناع الممكن الذي يسمو بفنّ الخطابة ؟

ويمكن أن تتمخّض هذه الإشكالية عن مجموعة من الأسئلة تفرض نفسها من خلال الدّراسة :

ـ أين يمكن أن نصنّف الخطابة الحديثة وهل فعلا تؤدّي رسالتها على أكمل وجه ؟

ـ هل يمكن للخطابة العربيّة أن تستفيد من الدّراسات الحديثة ؟

ـ ماذا نقصد بالحجاج ؟ وكيف نستطيع تطبيق إجراءاته عل نص الخطبة ؟

ـ هل استعانة الخطيب بآليّات الحجاج تمكنّه من تغيّير شكل الخطبة وأثرها في نفس المتلقي ؟

ـ هل يمكن دراسة هذه الآليّات وتطبيقها على الخطبة ؟

ـ هل يمكن للخطبة أن تكتسب معاني إضافية إذا أحسن الخطيب استعمال مختلف الآليات الحجاجيّة ؟

عناصر الدراسة :

ـ الحديث عن الخطابة ونشأتها في العالم العربي، وكذا الأهمّية التي تحتلّها، ومراحل الضّعف والقوّة التي مرّت بها، مع ذكر نماذج من الخطب التي بقيت خالدة في ذاكرة الشّعوب، وبيان الأسباب التي خلدت أو سمت بها .

ـ كيف يتمّ بناء الخطبة (المقدّمة ـ العرض ـ الخاتمة)، وما هي أهم النّقاط التي ينبغي أن يركّز عليها في كلّ قسم من أقسامها مع التّركيز على مواصفات الخطيب النّاجح .

ـ أنواع الخطابة الحديثة والخصائص المميّزة لكلّ نوع .

ـ الحجاج وأصوله الفلسفيّة والنظريّة والتنظيريّة، وذلك انطلاقا من تعريف أرسطو للخطابة (قوّة تتكلّف الإقناع الممكن في كلّ واحد من الأمور المفردة)، ولا يتأتّى هذا إلّا من خلال الحجاج، على اعتبار أنّه مجموعة من الحجج التي يُؤتى بها للبرهان على رأي أو إبطاله، أو استخدام الوسائل الممكنة من أجل إقناع فرد أو جماعة .

ـ دراسة الآليات اللغويّة التي تعطي الخطبة أبعادا دلاليّة، وأخرى جمالية مما يزيدها حسنا وبهاء، ويقوّي قدرتها الحجاجيّة .

ـ دراسة الآليات الشبه منطقية، وأقصد بذلك السلالم الحجاجية كما ذهب إلى ذلك شاييم بيرلمان، مع توضيح كيفيّة تطبيقها على نصّ الخطبة .

ـ دراسة الآليات البلاغية، وتوضيح دورها في بناء المعنى .

ـ دراسة بعض خطب الشّيخ البشير الإبراهيمي، وتوضيـح أهمّ الأسباب التي أدّت إلى نجاحها .

أسباب اختيار الموضوع :

أ ـ الموضوع :

1 ـ بحكم التّخصص، فأنا إمام خطيب ـ أستاذ ـ من أكثر من تسع عشرة سنة وطالب ماستر ودكتوراه تخصص أدب حديث، وفي هذه الدّراسة تطبيق لما جاءت به الحداثة على مجال التّخصّص .

2 ـ يقدّم الموضوع نماذج تطبيقيّة مرفقة بالشّرح والتّحليل، ممّا يخدم السّاحة ويحاول السموّ بالخطابة إلى المكانة المنوطة بها .

3 ـ قلّة الدّراسات التي تهتمّ بهذا الجانب، ممّا يصلح أن يكون رسالة دكتوراه لها أهمّيتها البالغة ـ إن شاء الله ـ، وسأحاول اتّباع الأسلوب التحليلي لاعتمادي على الجمع والتحليل قدر المستطاع .

ب ـ المدوّنة :

لقد اخترت خطب البشير الإبراهيمي كعمل ميداني لهذا المشروع وذلك لعدّة أسباب :

1 ـ شخصيّة البشير الإبراهيمي الفذّة، والتي يشهد لعبقريّتها البعيد والقريب زيادة على سعة اطّلاعه، وفصاحته التي ليس لها نظير .

2 ـ عدم إنصاف هذا الرّجل الذي وهب حياته كلّها للعلم .

3 ـ اهتمام الشيخ بمنطقة تلمسان، فقد كانت مركز إشعاعه، ومنطلق إلهامه فكان هذا العمل لفتة انتباه وعرفانا بالجميل الذي قدّمه لتلمسان وما جاورها .

أهداف الدّراسة :

تهدف هذه الدّراسة إلى وضع قواعد وطرق تسهم بشكل فعّال في بناء المعنى في الخطبة وذلك من خلال دراسة نماذج تطبيقيّة من كلام الشّيخ محمد البشير الإبراهيمي، الذي كان خطيبا ناجحا بامتياز، ولعلّ دراسة العوامل التي أدّت إلى نجاح خطبه تضع خارطة الطّريق للأجيال

اللاحقة، وتكون عوامل بناء لظهور خطابة جديدة تؤدّي رسالتها على أكمل وجه وأسلم طريقة، ومن أهداف هذه الدراسة أيضا :

ـ توضيح أهمّية العوامل والآليات اللّغوية، التي لا يلقي لها الخطيب بالا، ولكنّها تملك قدرة إقناعيّة، وأبعادا دلالية تزيد الخطبة جمالا ووضوحا .

ـ إعطاء الآليات البلاغية أهمّيتها، فالخطبة تكون باللّغة العربيّة التي تُعرف بقوّة بلاغتها، وجمال آليّاتها، وفصاحة ألفاظها .

ـ توضيح آليّات الحجاج التي تخدم الخطبة بشكل مباشر، وتسهم في إثراء القدرة الإقناعيّة .

ـ بيان عور الخطب الفاشلة من خلال إعطاء نماذج عن خطب ناجحة للشيخ شهد الجميع على قوّتها البلاغية والإقناعيّة .

ـ إعطاء آليات لها دور فعّال في إيصال المعنى وتوضيح الدّلالة من خلالة دراسة السّلالم الحجاجيّة .

وقد قسّمت هذه الدّراسة إلى أربعة فصول، تناولت في الفصل الأوّل المصطلحات الكبرى التي تناولها البحث، وقد كانت أجزاؤه مقسّمة بين الخطابة والحجاج، حيث تناولت مصطلح الخطابة مبينّا أهمّيتها وأنواعها وسبل النّهوض بها، ثمّ تطرّقت إلى الحجاج على اعتبار أنّه الهدف الأسمى والغاية الكبرى التي يمكن من خلال آلياته الوصول إلى الخطاب النموذجي حتّى يؤدي رسالته على أكمل وجه وفي أجمل حلّة، فتكلّمت بداية عن الحجاج وعلاقته بالنّص مشيرا إلى تطوّر هذا المصطلح في الفكر الغربي بداية من خلال شاييم بيرلمان، ووصولا إلى الفكر العربي من خلال محمّد العمري، الذي يعدّ من أهمّ المنظّرين للحجاج في المغرب العربي، وجعلت الحديث عن السلالم الحجاجيّة ختاما لهذا الفصل.

ثمّ تطرّقت في الفصل الثّاني الموسوم بـ الآليات اللغوية في الحجاج إلى الحديث عن العلّة، ودور أسلوب التّعليل في التأثير على المتلقّي، معرّجا على أهمّ الأدوات التي تستعمل في التّعليل التي من بينها (لام التّعليل، والمفعول لأجله، والتّعليل بألفاظ أخرى: بسبب، من

أجل، لأنّ ...)، ثمّ تحدّثت عن اسم الفاعل واسم المفعول، ودورهما الفعّال في العمليّة الحجاجيّة، كل ذلك من خلال أمثلة تطبيقيّة من كلام الشّيخ، محاولا إعطاء البعد الدلالي الزائد، والقوّة الإقناعيّة الإضافية اللذين تجسّدا واضحين في العملية الحجاجيّة عند استعمال اسم الفاعل واسم المفعول، ثمّ تطرّقت إلى الحديث عن الصّفة المشبّهة، والفرق بينها وبين اسم الفاعل، وكيف تؤدّي وظيفتها الحجاجيّة بصورة مهمّة وبطريقة لافتة، وختمت الفصل بالحديث عن تحصيل الحاصل الذي يعتبره البعض حشوا زائدا غير أنّه يؤدي رسالة مهمّة، ويقدّم دورا فعّالا، يسهم بشكل كبير في رسم المعنى الكلّي لدى المتلقي.

وقد حاولت في الفصل الثّالث معالجة الحجاج في فنّ الخطابة من خلال الآليّات الشّبه منطقيّة، والتي يقصد بها السّلالم الحجاجيّة وطريقة عملها في النصّ، فانطلقت من الأدوات الحجاجية (بل، وحتّى، ولكن) مبيّنا كيفيّة عملها، وكيف تؤدّي وظيفتها في ترتيب القضايا على درجات السلّم الحجاجي، ثمّ أدرجت أضرب الخبر مستفيدا من أنواعه للتّمييز بين درجات السلّم الحجاجي، وكيف يسهم كلّ ذلك في العمليّة الإقناعية للمتلقّي، وانتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن صيغ التّفضيل وصيغ المبالغة التي يؤدّي استعمالها إلى ترتيب الحجج وفق سلّم تصاعديّ أو تنازليّ على حسب الحالة والاستعمال، وهو الأمر الذي يخدم بشكل أو بآخر البناء الكلّي والتصوّر العام للخطبة وانتقلت في العنصر الموالي إلى الحديث عن فحوى الخطاب على اعتبار أنّ تفاوت الفهم بين المنطوق والمسكوت يعدّ من جماليّات اللّغة، التي تعطي انطباعا أوّليّا وآخر ثانويّا (الموافقة والمخالفة) يساعد على فهم الأبعاد الدلاليّة التي سكت عنها النّصّ، وقد يكون المسكوت عنه أبلغ من المنطوق وأدعى إلى الاقتناع، وختمت الفصل بالحديث عن حجّة الدّليل الذي ينقل المستمع من حالة إلى حالة، فالغاية من الاستشهاد سواء من الكتاب أو السنّة أو الشّعر أو كلام العرب هو دفع المتلقّي إلى التّسليم بصحّة المقول، ونقله من حالة إلى حالة، مع إمكانية توظيف هذه الحالات في السلّم الحجاجيّ

وتناولت في الفصل الرّابع الآليات البلاغيّة واخترت منها الاستعارة والتمثيل والبديع، وقد اخترت الاستعارة لأنّها أسمى أنواع التشبيه التي تجتمع فيها القوّة الإقناعيّة مع اللّفتة الجماليّة لتعطي صورة غاية في الرّوعة والجمال، وقد اعتمدت على تقسيمها الأشهر(مكنيّة

وتصريحيّة) مشيرا في بعض المواضع إلى باقي التقسيمات على حسب المثال ولزوم الحاجة إلى ذلك، ثمّ بيّنت المكانة الجماليّة للتّمثيل واختلاف العلماء في تصنيفه، مع توضيح إمكانية استقلاليته عن الكناية والتّشبيه، مستعينا في ذلك بالأمثلة والشواهد من كلام الشّيخ، وكان ختام الفصل الحديث عن البديع، ودوره في تمام العملية الحجاجيّة، واخترت على سبيل المثال محسّنين يتعلّقان بالمعنى وهما الطّباق والمقابلة ومحسّنين يتعلّقان باللفظ وهما السّجع والتّكرار، هذا الأخير الذي يندر وجوده في كتب البديع غير أنّه مبثوث في الكثير من أنواعه، فما السّجع إلا نوع من التّكرار الحرفي، وما الطباق إلا تكرار للّفظ بل يدخل التّكرار في أغلب أبواب البديع كـ (ردّ الصّدر على العجز والتّجنيس والعكس، والقلب وتشابه الأطراف، والمشاكلة، والمزاوجة، والتّطريز، والمجاورة ...) ثمّ خلصت في الأخير إلى بعض النّتائج ضمّنتها في خاتمة البحث وقد غلب على هذه الدراسة المنهج التحليلي مع الإستعانة بالمنهج الوصفي والمنهج التاريخي في بعض الأحايين .

الدراسات السابقة :

لا شك أن هناك دراسات سابقة تناولت دور الحجاج وآليّاته سواء كانت المدونة شعرا أو نثرا ومن بين هذه الدّراسات التي استفدت منها في بحثي :

. كتاب استراتيجيّات الخطاب (مقاربة لغوية تداوليّة) لصاحبه عبد الهادي بن ظافر الشهري تحدث فيه عن أنواع الإستراتيجيّات حيث قسّمها إلى أربعة أقسام، الإستراتيجيّات التّضامنيّة والتوجيهيّة والتلميحيّة والإقناعيّة، هذه الأخيرة التي ضمّنها ثلاثة عناصر (الأدوات اللغوية والبلاغية والسلالم الحجاجية) .

إضافة إلى كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته (دراسات نظريّة وتطبيقيّة في البلاغة العربيّة) وهو كتاب من جزأين عبارة عن مجموعة من المقالات والبحوث لجملة من الكتّاب والأدباء أشرف عليهم حافظ إسماعيل علوي .

أمّا في كتب الخطابة فكان في صدارة ما اعتمدت عليه كتاب الخطابة لمحمد أبي زهرة ذكر فيه تاريخ الخطابة وأهمّ المحطّات التي مرّت بها من عصر الجاهليّة إلى العصر الحديث

وقد تحدّث عن أنواعها، وبيّن خصائص كلّ نوع مع التركيز على أهمّ العوامل التي تساعد الخطيب على توجيه خطبته وبنائها .

ـ الأفعال الكلاميّة في خطب البشير الإبراهيمي (جامعة السانيا . وهران . سنة : 2012) وهي عبارة عن رسالة ماجستير لصاحبها باجي بن عودة، تحدث في الفصل الأوّل منها على الأسس النظريّة والمعرفيّة للتداوليّة، وانتقل في الفصل الثّاني للحديث عن التّحليل التّداولي للخطاب، وختم بحثه بفصل تطبيقيّ واختار لذلك نماذج من خطب البشير الإبراهيمي ومقالاته .

ـ آليات الحجاج في الخطاب السّياسي ـ رسائل الأمير عبد القادر نموذجا ـ رسالة دكتوراه للطالبة لعرباوي نورية (جامعة وهران، سنة: 2018)، خصّصت الفصل الأوّل للحديث عن بعض مصطلحات الرسالة، وتحدثت في الفصل الثّاني عن آليات الحجاج اللّغوية، وختمت الفصل بالحديث عن السلالم الحجاجية، ثمّ انتقلت في الفصل الثّالث إلى الحديث عن منطلقات الحجاج وتقنيّاته، وختمت بحثها بالحديث عن استراتيجيّات الخطاب في رسائل الأمير عبد القادر .

ـ البنية الحجاجية في كتاب اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (جامعة الإخوة منتوري . قسنطينة . سنة: 2017)، وهو عبارة عن رسالة دكتوراه لصاحبها الطيّب رزقي، خصّص الفصل الأوّل منها للحديث عن الصناعة الحجاجيّة وعلاقتها بالبلاغة العربيّة، بينما تناول في الفصل الثّاني حجاجيّة الصورة في كتاب اللؤلؤ والمرجان، وختم بحثه بالحديث عن حجاجيّة أفعال الطلب في هذا الكتاب .

ـ الحجاج بين الدرس البلاغي العربي والدرس اللساني الغربي ـ دراسة تقابلية مقارنة ـ وهي رسالة دكتوراه لصاحبها نور الدين بوزناشة (جامعة محمد لمين دباغين . سطيف . سنة 2016) خصّص الفصل الأوّل للحديث عن بلاغة الحجاج عند اليونان، ثمّ انتقل في الفصل الثّاني للحديث عن نظريّة الحجاج بين بيرلمان وديكرو ليخلص في الفصل الأخير للحديث عن الحجاج عن الجاحظ .

ـ الحجاج في الخطاب القرآني . سورة يس أنموذجا، وهي أيضا رسالة دكتوراه لصاحبها محمد بوسكرة (جامعة ابن خلدون . تيارت . سنة 2019)، تحدّث عن مقاربات الحجاج (البلاغية والمنطقية واللسانية)، لينتقل في الفصل الثّالث إلى الحديث عن المكوّن الحجاجي للخطاب القرآني، واختار سورة يس كمدونة لأطروحته .

ـ الحجاج في النصّ القرآني وهي رسالة ماجستير للطالبة إيمان درنوني (جامعة الحاج لخضر . باتنة . سنة 2013)، تحدثت في الفصل الأول عن البلاغة الحجاجيّة وعلاقتها بالتّداولية وخصّصت الفصل الثّاني للحديث عن دلالة الحجاج في القرآن الكريم، وختمت بحثها بفصل تناولت فيه بنية الحجاج في سورة الأنبياء .

ومن الصعوبات التي صادفتني في هذا البحث بعد المسافة بين تلمسان والمسيلة، الشيء الذي أثّر في التركيز وعدم القدرة على التّواصل المباشر مع أستاذي المشرف الدكتور العرابي لخضر، وأقولها صدقا وليس مجاملة مع علمي أن أستاذي لا يحب الإطراء ولا المدح وددت أن أجالسه كثيرا لأنّه من النّوع الذي تأخذ من سمته قبل علمه، وكان نعم الأب والنّاصح فأسأل الله أن يلبسه رداء الصحة والعافية وأن يعلي شانه ويرفع مقامه .

ـ كثرة الدّراسات المتعلّقة بالحجاج وعدم توافقها في الإجراءات التطبيقيّة إضافة إلى صعوبة ألفاظها، وربما مرجع ذلك إلى النظرة الفلسفيّة التي تحتويها الكتب الأصلية فأغلب الذين كتبوا عن الحجاج اعتمدوا على الترجمة بما فيها من ذهاب الكثير من المعاني التي تعطي حياة للنّصوص، إضافة إلى توجّه البعض إلى الغموض الذي أصبح صفة سائدة عند الكثير من الباحثين .

ـ جمال أسلوب الشيخ محمد البشير الإبراهيمي وصعوبته أحيانا، الأمر الذي يجعلك تعيش بين أسير مفتون وبين حائر مغبون، وقد تقلّب النّصّ الواحد مرّات ومرّات حتّى تجد بغيتك وتصل إلى ضالّتك .

وفي الآخر لا يفوتني أن أعود بالشكر مرّة أخرى إلى أستاذي المشرف ورئيس المشروع الأستاذ الدكتور لخضر العرابي، وأثمّن له نصائحه القيّمة وإرشاداته الغالية وصبره الجميل سائلا المولى عز وجل أن يجعل عمله هذا خالصا لوجهه الكريم، والشكر موصول أيضا إلى أعضاء اللجنة المناقشة الذين أتعبتهم مرّتين، بقراءة هذا الطرح مرّة، وبسفرهم ووجودهم معنا في جلسة المناقشة مرّة أخرى .

النواري حليتيم

المسيلة : في 30 رمضان 1442 هـ، الموافق لـ : 12 أبريل 2021 م .

الفصل الأوّل : مفاهيم ومصطلحات :

- الخطابة
- أقسام الخطابة وأنواعها
- الحجاج
- السلم الحجاج

تعدّ الخطابة من أهمّ وسائل التواصل الجماعيّة، لها مهمّة حسّاسة ودور فعّال يسهم بشكل كبير في الحفاظ على الثوابت الوطنيّة والدينيّة، ولها أيضا دورها الخطير في توجيه الرأي العام وترشيد الأمة، وفي الحفاظ على القيم والأخلاق في المجتمع، ويتضاعف دورها ويكبر خطرها بالنسبة للشعوب الإسلامية، نظرا للقداسة الممنوحة لها، إضافة إلى العدد الكبير من المستمعين والمتابعين للخطب، ففي الجزائر مثلا هناك أكثر من عشرين مليون جزائري أي أكثر من نصف المجتمع يستمعون لخطبة الجمعة، فكان فاتحة البحث الحديث عن الخطابة وعن بعض ما يتّصل بها :

1 ـ الخطابة :

1 ـ 1 ـ التّعريف والنّشأة :

1 ـ 1 ـ أ : تعريف الخطابة لغـــة :

جاء في لسان العرب : " مادّة : خَطَبَ : الخَطْبُ : الشَّأْنُ أو الأمْرُ، صَغُرَ أو عَظُمَ وقيل : هو سَبَبُ الأمْرِ . يُقَالُ : ما خَطْبُكَ ؟ أيْ : ما أمْرُكَ ؟ وتقول : هذا خَطْبٌ جَلِيلٌ وخَطْبٌ يَسِيرٌ . والخَطْبُ : الأمر الذي تقع فيه المخاطبة، والشأن والحال ؛ ومنه قولهم : جَلَّ الخَطْبُ أي : عَظُمَ الأمْرُ والشَّأْنُ . وفي حديث عمر، وقد أفطروا في يوم غيم من رمضان فقال : الخَطْبُ يَسِيرٌ، وفي التنزيل : ﴿ **قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ** ﴾ (سورة الذاريات ، الآية 31:) ، وجمعه خُطُوبٌ؛

فأما قول الأخطل :

كَلَمْعِ أَيْدِي مَثَاكِيلٍ مُسَلَّبَـةٍ يَنْدُبْنَ ضَرْسَ بَنَاتِ الدَّهْرِ والخُطُبِ

إنّما أراد الخُطُوبَ، فحذف ـ الواو ـ تخفيفا، وقد يكون من باب رَهْنٍ ورُهُنٍ .

والخِطَابُ والمُخَاطَبَةُ : مراجعة الكلام، وقد خَاطَبَهُ بالكـلام مُخَاطَبَةً وخِطَـابًا، وهما يَتَخَاطَبَانِ والخُطْبَةُ مصدر الخَطِيبِ، وخَطَبَ الخَاطِبُ على المنبر، واخْتَطَبَ يَخْطُبُ خَطَابَةً،

واسم الكلام : الخُطْبَةُ ؛ قال أبو منصور: والذي قال الليث، إنّ الخُطْبَةَ مصدر الخَطِيبِ، لا يجوز إلّا على وجه واحد، وهو أنّ الخُطْبَةَ اسم للكلام، الذي يتكلّم به الخَطِيبُ، فيوضع موضع المصدر" [1].

فالخطبة مراجعة الكلام، أو هي اسم للكـــلام الذي يلقيه الخطيب ومنها قوله تعالى : ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ** ﴾ (سورة ص، الآية 20)، قال مجاهد في تفسير هذه الآية : " هو الفصل في الكلام وفي الحكم " [2]، فالخطاب يقصد به هنا مطلق الكلام، ولذلك قيّده جلّ وعلا بـ (فصل) أي فصل الكلام، وقال ابن عبّاس فصل الخطاب معناه : " بيان الكلام " [3]، وبيّن الطاهر بن عاشور هذا المعنى وعبّر عنه بقوله : " فصل الخطاب : بلاغة الكلام وجمعه للمعنى المقصود بحيث لا يحتاج سامعه إلى زيادة تبيان " [4] .

فمفهوم الخطاب في معناه اللّغوي لا يكاد يخرج عن الدّلالة عن فحوى الكلام، أو توجيه الكلام إلى الغير، وكلّ كلام يقتضي مُرسِلا ومُستقبِلا فهو خطاب، ولقد نشأت في العصر الحديث مدارس تهتم بالخطاب كنوع من العلم، له مجالاته وإسهاماته، محاولة توسيع دلالة الكلمة، مما خلق جوّا علميّا تتضارب فيه الأقوال أحيانا، وتتباين أحيانا، وتتداخل في أحيان أخر، خاصّة عندما يتعلق الأمر في بيان علاقة الخطاب بالنصّ .

1 ـ 1 ـ ب : اصطـــلاحا :

الخطابة هي عبارة عن أصول وقواعد، ترشد الإنسان إلى فنّ مخاطبة الجماهير، بطريقة إلقائيّة تشتمل على الإقناع والاستمالة، " أو هو فنّ مشافهة الجمهور للتأثير عليهم واستمالتهم " [5]، فالملاحظ من خلال التّعريف أنّ الخطابة تركز على جانبين اثنين، الإقناع الذي يوجّه للعقل، والاستمالة الموجّهة للعاطفة، وربّما تُركّز على الثّاني أكثر من الأوّل فغايتها هو التأثيـر على المتلقّي ودفعه إلى الاقتنـاع والامتثال، قال تعالى : ﴿ **وعِظْهُمْ وقُل لَّهُمْ**

[1] ـ جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، بد ط، بد س، ج1، ص 321-322 .
[2] ـ بن كثير، تفسير القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت ط 1، س 2000، م4، ص 1598 .
[3] ـ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت سالم مصطفى البدري،دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 ، س 2000،ج8، ص107 .
[4] ـ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، بد ط، س 1997، ج 11، ص10 .
[5] ـ طارق السويدان، فن الإلقاء الرائع، شركة الإبداع الفكري، الكويت، ص 18

فِيٓ أَنفُسِـــهِم قَوۡلَۢا بَلِيغًا ﴾ (النساء،الآية 63)، وفي الحديث الصّحيح عن العرباض بن سارية . رضي الله عنه .: (وعظنا رسول الله ـ ﷺ ـ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون)[1]، وربّما تلمس الخطابة خطورتها من هذا الجانب، فقد عرّفها أرسطو بقوله : " الخطابة هي القدرة على النّظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل " [2]، هذا الإقناع يكون بتقديم الأدلّة على صحّة المقول سواء من الكتاب والسنّة، أو من خلال ربط النتائج بالأسباب، والمقدّمات باللواحق، أومن خلال ربط الحدث بالواقع وكلّما كان الجمع بين هذه الأطراف، كان جمال الخطبة، واقترابها من النّموذج الذي تترتّب عليه المرحلة الثّانية، وهي استمالة المتلقّي ودفعه إلى اعتقاد صحّة المقول ومن ثمّ ترشيده إلى الفعل أو عدم الفعل، وتعتمد الاستمالة عادة على كل ما يملكه الخطيب من مهارة في الإلقاء ـ رفع الصوت وخفضه، تحريك اليد علامات الوجه .... ـ أو ما يملكه من وسائل مساعدة ـ مضخّم الصّوت، جهاز العرض، الخرائط ... ـ والتي تقرّبه من بسط الحقائق وتليين القلوب، وتحريك الأحاسيس، ولفت الانتباه .

1 ـ 2 ـ نشأة الخطابة :

للخطابة دورها المنوط بها، ورسالتها الخالدة والمقدّسة، فهي شعار من شعائر الإسلام وطريق فعّال لتقويم الشعوب وترشيدها، وتربية المجتمعات وتوجيهها، ولا يوجد شخص وجب الإنصات إليه ويحرم التشويش عليه مثل الخطيب، بل في مذهب الإمام مالك تحرم حتّى صلاة تحيّة المسجد والإمام يخطب، ولذلك كان هذا الحديث حول الخطابة ونشأتها .

لا شك أنّ الخطابة فنّ عريق في التراث العربي، يستمد أصالته وقدمه من عمق الإنسان العربي، شأنها شأن الشعر، فكما كان لكل قبيلة شاعرٌ كان لها بالمقابل خطيبٌ يذود عن عرضها، ويتكلّم بلسانها، ويمثّلها في المحافل والأسواق، فقد وصلتنا نماذج من الخطب قبل الإسلام تشهد على صحّة ذلك، وعلى الرغم من قلّتها إلّا أنّها كانت تمثّل تاريخا أدبيًّا، ومنهلا عذبا لكلّ دارس، ويرجع هذا الإقلال لصعوبة حفظ الخطب، ولولع النّاس بالشّعر كما يبدو من قول أحمد الهاشمي :" وإنّما لم تصل إلينا أخبار خطبائهم الأوائل، وشيء من خطبهم كما

[1] ـ أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، مكتبة دار الريان ، الجزائر، ط 2،2002، ص315 .
[2] ـ أرسطو طاليس، تر إبراهيم سلامة ، ملتزم الطبع والنشر ، مصر، ط 2، س 1953، ص 84 .

كان ذلك في الشّعر، لحفلهم قديما بالشّعر دون الخطابة، ولصعوبة حفظ النّثر " [1]، ومن بين الذين عرفوا بالخطابة في ذاك العصر : قسّ بن ساعدة الإيادي، وخارجة بن سنان خطيب داحس وغبراء، وخويلد الغطفاني خطيب الفجار، والنّابغة، وكعب بن لؤي، وأكثم بن صيفي ... وغيرهم [2] ، وهذه خطبة لقسّ بن ساعدة [3]، فيها بيان بلاغته، وقوّة فصاحته، وجزالة عبارته، وفيها أيضا بيان جمال هذا النّوع من الفنّ، وأصالته عند العرب ، جاء في كتاب الزهد لأحمد بن حنبل: " لما قدم وفد بكر بن وائل على رسول الله ﷺ قال لهم ما فعل قس بن ساعدة الأيادي ، قالوا مات يارسول الله ، قال كأني أنظر إليه في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول : أيها النّاس اجتمعوا فاسمعوا ما أقول وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت. مهاد موضوع وسقف مرفوع ونجوم ما تمور وبحار ما تغور أما عبد فإنّ في السماء خبرا، وإنّ في الأرض عبرا، أقسم أن لله دينا هو أرضى له من دين أصبحتم عليه، قال ثم ينشد شعرا فقال رجل من القوم أنا يا رسول الله أرويه فأنشدناه فقال :

في الذَّاهِبِينَ الأوّلِـ ينَ مِن القُرُونِ لَنَا بَصَـائر

لَمَّا رَأيْتُ مَـوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيسَ لَها مَصـَادِر

وَرَأَيْتُ قَومِي نَحْوَهَا تَمْضِي الأَكَابِرُ والصَغَـائِر

لَا يَرْجِعُ المَاضِي إِلَي وَلَا مِنَ البَاقِيـــنَ غَابِر

أيْقَنْتُ أنّي لَا مَحَـالَة حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِر" [4]

وقد عرفت الخطابة بداية ازدهارها في عصر صدر الإسلام، وبعثة خير الأنام سيّدنا محمّد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والمعجزة التي أيّده الله عزّ وجلّ بها، قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ : (ما من الأنبياء نبيّ إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنّما كان الذي

[1] ـ أحمد بن ابراهيم الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، دار الكتب العلمية ، بيرقت ، ط 2 ، 2003 ، ص 245 .
[2] ـ ينظر المرجع نفسه، ص 246 .
[3] ـ قس بن ساعدة الإيادي خطيب العرب قاطبة والمضروب به المثل في البلاغة والحكمة، كان يدين بالتوحيد، ويؤمن بالبعث، ويدعو العرب إلى نبذ العكوف على الأوثان، ويرشدهم إلى عبادة الخالق، ويقال أنه أول من خطب على شرف، وأول من قال في خطبه أما بعد، وأول من اتكأ على عصا في خطابته، سمعه النبي ﷺ قبل البعثة يخطب في عكاظ فأثنى عليه، وعمر قس طويلا ومات قبل البعثة .
[4] ـ أحمد بن حنبل، الزهد ، دار الكتب العلمية، بيروت،ط 1، 1999، ص 287- 288 ..

أوتيت وحيا أوحاه الله إليّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)[1]، فرسول الله بُعث إلى قوم بلغوا من الفصاحة مداها، وملكوا ناصيتها، وكانو يتباهون بذلك، وأقاموا لأجله المواسم والأسواق، تنشد فيها الأشعار وتلقى فيها الخطب، فأتى خطاب الله عز وجل، الذي فاق كل النّصوص فصاحة، وكلّ الكلام بلاغة، فحيّر العقول، وأعجز الفحول، قال تعالى : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءانِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا** ﴾ (الإسراء، آية 88)، ثمّ كان رسول الله ـ ﷺ ـ، وما أوتي من قوّة البيان، وجزالة اللّسان، وقصر المباني مع كثرة المعاني، كيف لا وهو أفصح من تكلّم من العرب قال عن نفسه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: (أوتيت جوامع الكلم واختصر الكلام لي اختصارا) [2]، فكان كتاب الله تعالى وسنة النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ منهلا لكل خطيب، وعونا لكل أريب، واكتست الخطبة وشاحا من الجمال زادها وقعا في نفوس السّامعين، فتنوّعت بذلك الخطب وتوسّعت ميادينها، وكثرت أشكالها وأنواعها من خطب جمعة إلى خطب سياسيّة وخطب إصلاحيّة وأخرى جهاديّة ..... إلخ، بل كانت طريقة النبيّ في تبليغ المراد سنّةً تُحتذى، ودرسًا أثبت العلم الحديث نجاعته، وعُدّ من أصول الخطابة وفنونها، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضي الله عنه ـ قَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ ﷺ ـ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ، يَقُولُ: "صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ " وَيَقُولُ: " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ"، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: " أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ " ثُمَّ يَقُولُ: " أَنَا أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فَلِأَهْلِهِ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ وَعَلَيَّ" وفي لفظ: كَانَتْ خُطْبَةُ النَّبِيِّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: يَحْمَدُ اللَّهَ، وَيُثْنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ عَلَى إِثْرِ ذَلِكَ، وَقَدْ عَلَا صَوْتُهُ، ثُمَّ سَاقَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِهِ "[3] .

وانتشرت الخطابة بعد ذلك وازدهرت في العصر العبّاسي، وعرفت نقلة نوعيّة لما لها من أهمّية ولإدراك الحكّام لخطرها ودورها في إقامة الرأي العام . تأييدا أو تأليبا . فأكبر شريحة

[1] ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار صبح، بيروت س 2007، ج 3، ح رقم 4981، ص 335 .
[2] ـ اسماعيل الشافعي العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس تح يوسف بن محمود الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث، مصر، بد ط، بد س، ح رقم 819 ، ص 201 ..
[3] ـ مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 1991، ح رقم 867، ص 592 .

يمكن إيصال المراد إليها هم من يحضر أيّام الجمعة، فعمد الحكام إلى اختيار أنسب من يقوم بهذه المهمّة، الأمر الذي أشاع روح التنافس بين الطلبة لنيل هذا الوسام، ولغنم هذا الشّرف فأصبح للخطبة أسسها وقوانينها، وأقسامها التي تبني عليها .

وقد عاشت الخطابة في باقي العصور فترات من الرخاء، وأخرى من الضيق والعناء تتلاعب بها أمواج المدّ والجزر، شأنها شأن كل العلوم عند ضعف الدولة وقوّتها، حتّى جاء العصر الحديث فنهضت الخطابة من كبوتها، وأفاقت من سكرتها، وظهر خطباء فحول حملوا على عاتقهم راية الإصلاح، ومسؤولية التوجيه والإرشاد، أمثال عبد الحميد بن باديس والبشير الإبراهيمي، وعبد الرحمان الديسي، ومبارك الميلي، والطيب العقبي ... وغيرهم .

2 ـ أقسام الخطبة وأنواعها :

للخطابة أسس تقوم عليها، وخصائص تمتاز بها، على اعتبار أنّها فنّ من الفنون ونوع من الأنواع الأدبيّة مستقلّ عن الشّعر، فلابد لها من قواعد تحكمها، وقوانين تنظّمها وقوالب تبنى عليها، وضوابط تمايز بين أنواعها .

2 ـ 1 ـ أقسام الخطبة :

الخطبة كتلة متماسكة يفضي آخرها عن أوّلها، ويُمهّد أوّلها لآخرها، ولذا وجب الربط بين عناصر الخطبة، لأنّها تخدم هدفا واحدا، وغرضا مقصودا، كما أنّ العبث بين أجزائها يعطّل الفكر، ويشتّت الانتباه، ويؤدّي إلى الحشو الذي لا طائل منه، " وأقسام الخطبة إجمالا ترجع إلى ثلاثة أشياء : المقدّمة والإثبات والخاتمة "[1].

2 ـ 1 ـ 1 ـ المقدّمة : ولا نقصد به الاستهلال الذي نبدأه عادة بالبسملة والحمدلة، بل نقصد التمهيد للموضوع، والمدخل للعرض، الذي يكتسي أهمّية بالغة، فعلى هذه المقدّمة يكون نجاح العرض وفشله، لأنّها أوّل ما يسمعه المتلقي، فإمّا أن تأسره ليعيش معك سائر الخطبة، وإمّا أن تطلق سراحه فتكون في عالم والمستمع في آخر، والمقدّمة في الغالب لا غنى عنها خاصّة إذا

[1] ـ علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، القاهرة، ص 51 .

كان الخطيب مجهولا، أو كان الموضوع جديدا لم يسبق طرحه، وقد أحصى علي محفوظ ثلاثة عيوب للمقدّمة " أولا : الإسهاب والإطالة بما يملّ السامع منه مادام الإيجاز يفي بالغرض، ثانيا : أن يكون مبتذلا مشاعا يصلح لكل خطبة، ثالثا : أن لا يوافق الموضوع فيكون قلقا غير ملتئم معه "[1]، بمعنى أن تكون المقدّمة قصيرة تتناسب مع طول الخطبة وقصرها، وأن تتلاءم مع موضوع الإثبات، وأن لا تكون من المقدّمات المعروفة المألوفة حتّى لا يمجّها النّاس، وهذا ما يعرف عند علماء الحداثة بكسر أفق التوقّع، أي إيجاد اللامتوقّع من المتوقّع .

2 ـ 1 ـ 2 ـ العرض (موضوع الإثبات) : الطّرح الذي يريد الخطيب عرضه، فهو العمود الفقريّ للخطبة، وما المقدّمة والخاتمة إلا فرع عنه، وخدم له، تعرض فيه الأدّلة، وتقام من خلاله الحجّة، فهو المساحة الأوسع، والمرج الأكبر، والروض الأمثل، لمخاطبة العقل والعاطفة، " وهو قطب الخطابة وعمادها، فإن كان معقولا متين الدعائم تلقّاها النّاس بالقَبول وإن كان ضعيفا واهيا سقطت كما يسقط البناء القائم على أساس ضعيف "[2]، ويكون طرح الأدلة إمّا تأييدا أو تفنيدا . على حسب الموضوع .، وقد يكون بهما معا بمعنى يفنّد قول الخصم أو القضيّة المقابلة ببيان عورها، وضعف أدلّتها، ووهن قوامها، ويؤيّد رأيه بالحجّة الواضحة والأدلّة الدامغة، وهذا ممّا يكسب الموضوع ثراء، وزيادة حجّة وإقناع .

2 ـ 1 ـ 3 ـ الخاتمة : وهي النتائج التي يخلص إليها الخطيب، وينهي بها كلامه، والتّي تكتسي أهمّية بالغة، لأنّها آخر ما يعلق بذهن السّامع، لذا وجب العناية بها، والحرص على محتواها، فقد تكون تلخيصا للكلام، أو بيانا لأهمّيته، أو دعوة لاعتقاده، أو طلبا لامتثاله، " وكما يجب التألّق في المطلع يجب التألّق في المقطع، إذ هو الأثر البّاقي في نفوس السّامعين بعد الإتمام، وآخر ما يتردّد صداه في قلوبهم، وبه تتم الفائدة ."[3]، وهذا الذي يحدّد الغاية من الخطبة، وهدفها الذي بنيت لأجله، وانظر إلى سورة الزلزلة مثلا كيف ختمها جل وعلا : ﴿ **فَمَن يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه ومَن يَعْمَل مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه** ﴾ (سورة الزلزلة، الآية 6) ، هذه الآية

[1] ـ المرجع السابق، ص 52 .
[2] المرجع نفسه، ص 55 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 57 .

لمّا سمعها صعصعة عمّ الفرزدق قال : لا أبالي ألا أسمع من القرآن غيرها حسبي، فقد انتهت الموعظة [1] .

وربّما لا تكاد تخرج الخاتمة عن أحد هدفين : " الأوّل تلخيص ما جاء ذكره مفصّلا في أثناء الخطاب، وبه يتمّ إقناع الجمهور، والثّاني تحريك العواطف وبه نهاية تأثير القلوب " [2] وقد ذكر طارق السويدان ثلاث غايات للخاتمة :

" ـ للتأكيد على النقاط الهامّة في الخطبة .

ـ للتركيز على التصرّف أو العمل المطلوب من الجمهور بناء على ما سمعوه .

ـ لترك الجمهور يخرج بشعور وإحساس طيّب " [3].

2 ـ 1 ـ 4 ـ عوامل نجاح الخطبة :

حتّى تحظى الخطبة بالقبول، وتؤدّي غرضها الذي بُنيَت له، ويكون لها الصّدى لدى الجمهور، هنالك مجموع من النّقاط أجمع عليها أصحاب هذا الفنّ، وعدّوها من المقوّمات الأساسيّة لكل خطبة، وتتمثّل عادة في :

أوّلا : اختيار الموضوع :

وهو أكبر إشكاليّة تعترض للخطيب، فأنسب موضوع هو الذي يمسّ حياة النّاس ويقاربها ولو بشكل من الأشكال، فالخطيب كالطبيب يتتبّع مواضع الألم، ويحاول وصف الدواء الناجع لكل داء، لأنّ الموضوع إذا كان بعيدا عن الواقع ملّ النّاس، ودخل السّقم إلى قلوبهم وأصبح كلام الخطيب هدرا وضياعا للوقت، والخطيب النّاجح من يحسن فهم الشرع بقدر إحسانه لفهم الواقع، ويحسن أيضا الربط بين الشرع ومتطلبات الواقع، " إذا تحدّث خطيب مسجد عن موقف الإسلام من الرقّ وحكمه وآثاره وتحدث خطيب آخر عن ضرورة تنفيذ الحدود الأساسية وما يترتب عليها من آثار في مجتمعنا تجد النّاس يستمعون إلى الأوّل كمن يعرض التاريخ البعيد

[1] ـ ينظر ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 7، ص 629 .
[2] ـ لويس شيخو اليسوعي، علم الأدب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط 3، س 1936، ص 133 .
[3] ـ طارق السويدان، فن الإلقاء الرائع، ص 160 .

بينما يصغون إلى الثّاني كمن يطبّ لأمراضهم ويرتفع بمستوى حياتهم "[1]، فما أجمل أن يجعل الخطيب من الأحداث التي تحيط به وتشغل بال النّاس موضوعا جيّدا يتناوله بالدراسة وبيان موقف الإسلام منه .

ثانيا : وحدة الموضوع : فإنّ آخر الحديث ينسي أوّله، فإذا كثرت المواضيع في الخطبة تشتّت الذهن، وانقطع حبل الوصل، وبعد الخطيب عن المراد، وكثر الجهد، وقل النّفع فمن الخطباء ـ هدانا الله وإيّاهم ـ من يكون درسه أو خطبته حديثا عامّا، ينتقل من موضوع إلى آخر دون ربط واضح، أو تنسيق بيّن، يجلد النّاس بكلامه جلدا، ويهذر أقواله هذرا ويجعلك تأسف عن وقت ضاع في سجنه، وألم أصابك من طول جلوس رجاء لنفعه، " أمّا الخطبة التي تتناول عددا من الموضوعات فإنّها تكون ضحلة غير عميقة، والحديث عن المبدأ الثّاني ينسي ما قيل عن الأوّل كما ينسي الثّالث ما قيل عن الثّاني وهكذا تنتهي الخطبة بأفكار باهتة تكون قليلة ثمّ تنسى سريعا " [2]، ولذا وجب على الخطيب بداية أن يحدّد هدفه ماذا يريد من خلال خطبته، وكيف يصل إلى هذا الهدف بأسلم الطرق، فيبعد الشوائب التي لا تتصل بالموضوع ويزيح النقاط التي لا تخدمه أو ربّما توسعه وتشتّته، " ووحدة الموضوع تعني أن حديث الخطيب حول فكرة معيّنة أو مبدأ خاص يمهّد له أوّلا ثمّ يشرحه ثمّ يظلّ يقيم الأدلّة عليه ويستكثر من البراهين العقليّة والتاريخيّة وأدلة القرآن والسنّة " [3] .

ثالثا : الترتيب والتناسق : فيجب أن ترتّب الخطبة أوّلا ترتيبا منطقيّا، المقدّمة ثمّ الموضوع ثمّ الخاتمة، وأن تتناسق هذه الثلاث فلا تكون المقدّمة و الخاتمة أطول من الموضوع ، وكذا يجب انسجام عناصر الموضوع فلا تقدم مثلا الأدلّة العقليّة على أدلة الكتاب والسنّة ولا السنّة على أدلة الكتاب . إلا لعلة واضحة . ولا ينتقل من الخاصّ إلى العام، ولا من الأهمّ إلى المهم، ولا من القريب إلى البعيد، ولا يذكر ما لا صلة له بالموضوع، والبعد عن الإبهام، والاستغناء عن ذكر ما لا يستحق الذّكر، وتجنّب الطول المملّ والاختصار المخلّ، والتلطّف في الطرح وتجنب السبّ والقدح، وأن يكون الموضوع كلاّ متجانسا : " المقدّمة تلفت الذهن وتوجّهه مبدئيا

---

[1] ـ عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، ط3، س 1987، ص 28 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 29 .
[3] ـ المرجع نفسه ، ص 30 .

إلى الفكرة، وشرح الفكرة أو الموضوع يوحي بأهميّة ما يدعو إليه الخطيب، والأدلّة التي تساق تحفّز النّاس ....ثمّ النتيجة دعوة صريحة وإلزام بالعمل " [1] .

3 ـ أنواع الخطابة :

يعدّ أشهر تقسيم لأنواع الخطابة ما قام به أرسطو(322 ق.م) على اعتبار أنّه أوّل من كتب في هذا النوع الأدبي، وذلك من خلال كتابه الشهير (الخطابة)، وقد قسّمها إلى ثلاثــة أنواع : " فهناك أنواع ثلاثة للخطابة بطبيعة الحال: الخطابة الاستشارية (الحملية)، والخطابة القضائية، والخطابة الاستدلالية أي خطابة المدح والذم " [2] .

اعتمد أرسطو في تقسيمه هذا على معيار الزمن (الماضي والحاضر والمستقبل) فالاستشاريّة ما كانت خاصّة بالزّمن المستقبل، لأنّ المشورة تقتضي تصويب عمل في المستقبل، أمّا القضائيّة فهي تختص بالزّمن الماضي، لأنّها تتناول أحداثا وقعت في الماضي لمحاولة إثباتها أو نفيها، بينما تختص الخطب الاستدلاليّة بالزّمن الحاضر لأنّها تتعلّق بإثبات حكم سواء بالمدح أو بالذمّ ولا يكون هذا في الغالب إلاّ في الزّمن الحاضر " ولكلّ نوع خطابي زمنه، فالمستقبل هو ما يرمي إليه النّاصح المشير ... والماضي هو ما يتّجه إليه المدافع (المترافع في القضية) فالاتّهام يكون بعمل قد وقع ... أمّا الخطابة الاستدلالية فإنّها تتّصل أساسا بالزّمن الحاضر، فالخطباء يمدحون ويذمّون حوادث ماثلة أمامهم " [3]، ويعدّ هذا التقسيم أدقّ تقسيم لأنواع الخطابة، وربّما مرد ذلك إلى العقلية الفلسفية التي حاول صاحبه اعتمادها، وإلى ما هو معروف ومشهور في ذلك الوقت، غير أنّ هذا التقسيم أصبح قاصرا، ولم يعد كافيا في الزّمن الحديث لتعدّد مجالات الخطابة واتّساع دائرة شمولها، " وهذا التّقسيم الأرسطي ربّما كان مناسبا لزمنه أو أزمنة أخرى قديمة، لكنّه لم يعد مناسبا لهذا العصر حيث اختلفت الأحوال، وجدّت مشكلات، وحدثت أمور وعوائد لم تكن من قبل فهناك أنواع أخرى لم يشملها تقسيمه " [4]، ولذلك ظهر تقسيم جديد اعتمد معيار

---

[1] ـ المرجع السابق، ص 29 .
[2] ـ أرسطو، الخطابة، ص 95 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 96 .
[4] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب (بحوث في إعداد الخطيب والداعية)، دار الكلمة، مصر، ط 5، س 2016، ص 256 .

الموضوع بديلا عن معيار الزّمن " لكنّ هناك تقسيما آخر للخطبة باعتبار موضوعاتها العامة " [1]، وعلى الرّغم ممّا يشوب هذا التقسيم من تقصير، وتداخل المواضيع فيما بينها، إلاّ أنّه هو المعتمد في الدراسات الحديثة .

ـ في العصر الحديث :

اعتمد العلماء الحداثيّون تقسيمات جديدة للخطابة، فقد نقل عبد الجليل شلبي خمسة أنواع للخطابة : " السياسيّة، والقضائية، وخطب التكريم، والخطب الدينيّة، والإجتماعية " [2]، بينما ذكر إسماعيل علي محمد ستّة أنواع : " السياسيّة، والقضائيّة، والمحفليّة، والعسكريّة والدينيّة، والاجتماعيّة " [3]، وعدّها أبو زهرة سبعة أنواع : " السياسيّة، والقضائيّة، والدينيّة والعسكريّة، والمحاضرات العلميّة، وخطب التأبين، وخطب المدح والشكر " [4] ، وقد تجاوزوا بذلك التقسيم الذي وضعه أرسطو، مركزين على الموضوع الذي تعالجه الخطبة، حيث جعلوا منه المعيار الذي من خلاله يمكن تحديد النوع الذي تنتمي إليه على ما يغلب عليها عادة.

والملاحظ الذي يؤخذ على هذا التقسيم عدم دقّته، فقد يوجد في الخطبة الواحدة كلّ هذه الأنواع، كما يمكن إضافة أنواع جديدة تخضع للأغراض التي يريدها الخطيب، كالخطب الساخرة والخطب القصصيّة ... وغيرها، كما يتساءل إسماعيل علي محمد عن سرّ فصل الخطب السياسية والاجتماعية عن الدينيّة، مع أنّ الدين شامل لجميع أجزاء الحياة " كما يلاحظ عليها أنّها جعلت الدين قسما من الأقسام، منفصلا عن بقيّتها كأنّه لا شأن له بها، وأنّ الواعظ الديني ليس له أن يتطرّق في خطبه إلى جوانب السياسة أو القانون ونحوهما " [5]، ولذلك فإنّ المعتمد في تحديد نوع الخطبة هو ما يغلب عليها، وإن خلط صاحبها بين هذه الأنواع في خطبة واحدة، كما أنّ هذا التقسيم فرضته الساحة العلمية، وإن اتصف بعدم الانضباط والدقّة " ... لا تجد هذا

---

[1] ـ عبد الجليل عبدو شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 78 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 256 .
[4] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة ـ أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب ـ دار الفكر العربي، مصر، ط 2، س 1980، ص 162 .
[5] ـ المرجع السابق، الصفحة نفسها .

التقسيم دقيقا دقّة تقسيم أرسطو ولكنّه يتناول حقيقة الخطبة لا زمنها والتقسيم الزمني ليس بذي فائدة فنّية " [1] .

فلا شك أنّ الخطب تختلف فيما بينها بحسب الموضوع الذي تعالجه، وكذا الجهة المعنية بالخطاب، وقد يستعين الخطيب بالأنواع الأخرى، إذ لا حدود بينها، ولا قواعد تمنع من ذلك، بينما يبقى الإطار العام هو الذي يحدد النّوع الذي تنتمي إليه الخطبة .

3 . 1 . الخطب السياسيّة :

وهي الخطب التي تتعلق بشؤون الدّولة، وطريقة تسيير مصالحها الداخليّة والخارجيّة سواء كانت هذه الخطب تعالج طريقة العمل، أو بيان علّة القرارات والإجراءات ، أو تفنيد الرأي وتدعيم الموقف، أو نقدهما، أو إبداء المعارضة ، وقد عرّفها إسماعيل علي محمد بقوله : " وهي الخطب التي تلقى في شأن من شؤون الدّولة، أو الخاصّة بتوجيه الدولة والحكومة " [2]، وكلمة (توجيه) هلامية المعنى تحتمل الكثير من الدلالات، فالتوجيه عندما ينتج من الصحفي مثلا يحمل على البيان والتوضيح، والتوجيه بالنسبة لأعضاء الحكومة يحمل على التعليل والتّبرير، والتّوجيه بالنسبة للمعارضة يحمل على النّقد والتّنقيص، وقد عرّفها عبد الجليل عبدو شلبي بقوله : " يعني بالخطبة السياسيّة الخطبة التي توجّه حكومة الدولة إلى جهة معيّنة، سواء في علاقاتها الخارجيّة أو أعمالها الداخليّة " [3] .

وهذا التّعريف يشبه إلى حد كبير تعريف إسماعيل علي محمّد مع الاعتراف بالسّبق لعبد الجليل عبدو شلبي ومن خلال التعريفين يتّضح أنّ الخطابة السياسيّة هي كل الخطب التي تتعلق بشؤون الدّولة والحكومة سواء كانت صادرة ممّن يمثّلهما، أو ممّن يمثّل المعارضة (الأحزاب المعارضة)، أو ممّن يمثّل الشعب (النواب)، أو ممّن يريد أن يمثّل الشعب (المترشّحون لمختلف المجالس) .

---

[1] ـ عبد الجليل عبدو شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 78 .
[2] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 259 .
[3] ـ عبد الجليل عبدو شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 79 .

والخطب السياسيّة من أعرق أنواع الخطابة تمتدّ إلى العصر اليوناني " وقد كان هذا موضوع هذه الخطبة عند اليونان يستعرضون في خطبهم أحوال الدّولة " [1]، بها يكون قوام الدولة وسيرورتها، وبفضلها يكون ازدهار الأمم وتطورها، لأنّها تستمد معينها من القيم الحضاريّة التي تحفظ ديمومة الشعوب وأمن البلاد، فمادام هناك لسان ناقد، وآخر يراقب ويشاهد، وثالث يدافع ويساند، كان العمل على تبصر وبصيرة، بعيدا عن مواطن الزلل مجانبا للنّقص والخلل " ولهذه الخطب شأن كبير فإنّ عليها مدار حياة الأمّة ورقيّها ماديّا وأدبيّا " [2]، والخطيب السياسي يستعمل كل وسائل الإقناع الممكنة من أجل بيان موقفه وتوضيح قناعته، فعادة الخطب السياسيّة تمجّها النفوس، وتكرهها العقول، لما فيها من الوعود الكاذبة والعصبيّة الخادعة، لذا يحتاج الخطيب إلى نفس زائد، وثقة ثابتة، وصدق لازم، وشجاعة كافية، حتّى يقنع الموالي ويسكت المعارض، وقد ذكر إسماعيل علي محمد أربعة أنواع من الخطب السياسية : (الخطب التي يلقيها الحاكم أو من ينوبه ...، الخطب التي تلقى في الانتخابات ... المؤتمرات السياسية المحلية والدولية ... الخطب النيابيّة) [3]، وهو التقسيم نفسه الذي ذهب إليه محمد أبو زهرة في كتابه : (الخطابة) مع استبداله للخطب التي يلقيها الحاكم بخطب النوادي والمجتمعات .

أ ـ : **الخطب التي يلقيها الحاكم** : ونقصد بالحاكم رئيس الدولة، أو الملك، أو من ينوبه كرئيس الحكومة، أو الناطق الرسمي للدولة، أو من يمثل الرئيس كالوالي، ورؤساء المجالس فكل ممثل للحاكم يقوم مقامه، وينوب عنه في مهامه .

والرئيس هو أعلى منصب قيادي في الدولة، وهو من يمثّلها في المحافل، وكل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال تحسب له أو عليه، لذا ينبغي أن تكون تصرفاته مدروسة وحركاته وسكناته محسوبة، فقد انتقل العلم الحديث من دراسة الخطاب إلى دراسة ما وراء الخطاب من خلال طريقة الكلام ولغة الشّفاه والجسد، والخطب الرئاسيّة تحاك بعناية، ولا مجال للخطأ في تحضيرها، ويصعب الارتجال في إلقائها، لأنّ الذي تصدر منه لا يمثل نفسه فحسب، وإنّما

---

[1] ـ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[2] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 259 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 259 - 260 .

يمثّل الدولة " والواقع أنّ تعبير الخطب المرتجلة هو تعبير ظالم، فليس هناك شيء يمكن أن يكون مرتجلا على مستوى القيادات التي تدرك مسؤوليّتها عن مصائر البلدان والشعوب " [1]، ولقد كان الرئيس هواري بومدين حريصا على تنقيح خطبه قبل قراءتها على الأمّة ومن النكت التي ذكرها محي الدين عميمور عن الرئيس الرّاحل : " ومن ذكرياتي حول الخطب قصّة خطاب كان يتضمن فقرة تقول على ما أذكر : وما هذه الإنجازات الكبرى إلاّ دليل على أن ثورتنا ... وعندما نطقت بالجملة عاجلني بالسؤال المحرج دليلٌ بالضم ؟ أو دليلا بالفتح ؟ وقلت على الفور دليل بالضم وعاجلني مرة ثانية بالسؤال لماذا ؟... " [2]، وهذا يدلّ على الاهتمام البالغ للرئيس هواري بومدين بأدقّ التفاصيل في خطبه، فعدم ذلك هو استخفاف بعقول النّاس واحتقار للأمّة .

ب : **خطب الانتخابات** : وهي الخطب التي يلقيها المترشحون أو من يمثلهم في حملاتهم الانتخابيّة لمختلف المناصب، وقد عرّفها محمد أبو زهرة بقوله : " وهي الخطب التي يتقدّم بها ـ لتزكية نفسه ومبادئه ومناهجه والرّدّ على خصومه ـ من يريد أن يكون نائبا عمّن يخاطبهم " [3] والملاحظ في التعريف أنّ هذا النوع من الخطب يقوم على أمرين : الأوّل : تزكية الشخص المرشّح أو برنامجه، والثّاني : الطّعن في الشخص المنافس أو في برنامجه، والأمران لا يقومان على دراسة شافية وافيه حتّى لا يقع المترشّح في اللّبس والتناقض، وكلما كان صادقا في وعوده، منطقيّا في طرحه، عالما بثغرات خصومه، كان حديثة أقرب إلى القلوب، وأكثر تأثيرا في النّفوس " والنّجاح في هذه الخطب له طرائق مسلوكة، وشروط معروفة، تحتاج إلى مهارة ولباقة، ودربة تامة بمخاطبة العوام والخواص والأوساط من النّاس " [4]، فلا ينبغي للمترشّح أن يستخف بعقول النّاس أو يكذب عليهم أو يعدهم بما لا يستطيع القيام به، عندها تحدث القطيعة وتنعدم الثقة وتكون الفجوة ويقلّ الربح وتكثر الخسارة، وممّا ينبغي أن يراعيه المترشح ما يأتي :

ـ العلم بأحوال من يريد تمثيلهم والاطّلاع على مشاكلهم حتّى يكون بذلك لسانهم الناطق ومحاميهم المرافع، فالمجتمع يحتاج إلى من يُربِّت على كتفه، ويشاركه همومه، ويدافع عن

[1] ـ محي الدين عميمور، أيام مع الرئيس هواري بومدين وذكريات أخرى، دار اقرأ، بيروت، ط 1، 1991، ص 41 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 40 .
[3] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة ـ أصولها، تاريخها في أزهر عصورها عند العرب، ص 162 .
[4] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

حقوقه، ويسمع صوته، وينقل معاناته وأنينه، عندها فقط تتغيّر الحال، وتتبدّل الأحوال ويسعد النّاس، ويكون التقدّم والازدهار .

ـ الصدق في القول والعمل، لأنّ الذي أحدث الهوّة بين الحاكم والمحكوم تلك الوعود الكاذبة التي يطلقها أصحاب المصالح، فإذا فازوا بمقعد أو بمنصب نكصوا على أعقابهم، ونقضوا عهودهم، وتنكّبوا عن أتباعهم .

لقد أورد مالك بن نبي حوارا بين فيلسوف صيني يدعى (كونفوشيوس) مع أحد أتباعه يدعى (تسي كوغ) جاء فيه :

" كنفوشيوس : على السياسة أن تؤمن أشياء ثلاثة :

. لقمة العيش الكافية لكل فرد .

. القدر الكافي من التجهيزات العسكرية .

. القدر الكافي من ثقة الناس بحكامهم .

سأل (تسي كوغ) : وإذا كان لابدّ من الاستغناء عن أحد هذه الأشياء الثلاثة فبأيّها نضحّي ؟

أجاب الفيلسوف : بالتجهيزات العسكرية .

سأل (تسي كوغ) : وإذا كان لابد أن نستغني عن أحد الشيئين الباقيين فبأيّهما نضحي ؟

أجاب الفيلسوف : في هذه الحالة نستغني عن القوت ؛ لأنّ الموت كان دائما هو مصير النّاس ولكنّهم إذا فقدوا الثقة لم يبق أي أساس للدولة " [1] .

فلا ينبغي للمترشح أن يعد دون دراسة، ولا أن يمني دون دراية، ولا أن يستفيض بوضع الحلول دون الإحاطة بمكامن العلل وأماكن الخلل، وكلّما كان الطرح أقرب للواقع والحال، وأبعد عن الخيال والوهم، كان أقرب إلى القلوب، وأدعى إلى التصديق والقبول .

[1] ـ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، تر: بسام بركة ـ أحمد شعبو، ط 2، س 2002، ص 132 .

ج ـ الخطب النيابية : وهي الخطب التي يلقيها النوّاب المنتخبون سواء في البرلمان الوطني بغرفتيه، أو في المجالس الولائية والبلدية : " وهي التّي تكون في دور النيابة، وتشمل خطب الأعضاء معترضين على الحكومة، أو مؤيّدين لها، أو سائلين، أو مستجوبين، أو متناقشين فيما بينهم، كما تشمل خطب الوزراء مجيبين أو معترضين، أو داعين للموافقة على أمر " [1]

يظهر من خلال التعريف أنّ الخطب النيابيّة هي التي عادة ما نشاهده في التلفزة من تدخلات النوّاب، والتي تهتم في الغالب بنقل مختلف المشاكل الاجتماعيّة للشريحة التّي يمثّلونها، والشّعب الذي ينوبون عنه، وعرضها على الحكومة، أو الخطب الموجّهة نقدا لأعضاء الحكومة عند طرحهم لخطّة العمل أو توجيها لهم، أو خطب الوزراء التّي تكون عادة ردّا على تساؤلات أعضاء البرلمان، أو من أجل توضيح الأسباب والدوافع للقرارات ومخلف الإجراءات .

والخطب النيابيّة من أخطر أنواع الخطابة وأدقّها، ومرد ذلك إلى عاملين اثنين : الأوّل عامل الزمن، فالنّيابي له وقت محدّد لطرح رؤيته تؤخذ منه الكلمة مباشرة بعد انتهائه، والثّاني ذلك الصراع بين القناعة الشخصية للنّائب ووفائه للشعب الذي اختاره من جهة وولائه للحزب الذي يمثله من جهة أخرى، ولذلك ينبغي للخطيب النّيابي مراعاة عدة نقاط جمعها إسماعيل علي محمد في العناصر الآتية : (التجرد، العلم بما يتصدّى له ويخوض فيه، أن يكون صاحب مبدأ، التودد لمستمعيه، الجرأة في الحقّ) [2] .

ـ التجرّد : ويقصد بالتجرد تقديم المصلحة العامّة، والانشغال بمشاكل النّاس وهمومهم، وعدم الانحياز إلى الأشخاص، أو الأحزاب، بحكم الصداقة أو الموالاة أو الانتماء أو الجهويّة فالمصلحة العامّة تقدّم على الجميع " فعليه في كلّ أحواله أن يتصف بالتجرّد، وتحرّي مصلحة الأمّة، وأن لا تحركه المصلحة الشخصية، أو الحزبية، بل مصلحة الوطن والشّعب " [3] .

---

[1] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 155 .
[2] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 263 - 264 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 263 .

ـ العلم بما يتصدّى له ويخوض فيه : فعادة الوزراء هم من أهل التخصّص، ولا تنتج قراراتهم إلا بعد دراسة عميقة وشاملة، مع امتلاكهم للدراية الواسعة بالواقع والمحيط والظّروف، ولذا ينبغي للخطيب النيابي أن يكون ملمّا بالموضوع الذي يناقشه معهم، سواء أثناء طرح انشغالاته ومطالبه، أو ردّا على اقتراحاتهم، أو نقدا لآرائهم ومواقفهم، حتّى لا يكون موضع سخرية أو استهزاء " يلزمه أن يكون على دراية بالموضوع الذي يثيره، ويتصدّى للدعوة إليه أو معارضته كي يكون كلامه دفاعا أم معارضة عن علم وبيّنة " [1] كما أنّ العلم بالموضوع يمنحه الثقة اللازمة والقوّة المطلوبة، بغية الوصول إلى الإصلاح المنشود .

ـ أن يكون صاحب مبدأ : هدفه الإصلاح والوصول إلى الحقيقة، لا يضرّه من خالفه، ولا يخيفه تحالف غيره عليه، قال ـ ﷺ ـ : " لا تكونوا إمّعة تقولون : إن أحسن النّاس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطّنوا أنفسكم إن أحسن النّاس أن تحسنوا ، وإن أساؤوا فلا تظلموا " [2]، فإذا فعل ذلك كسب احترام الناس وتقديرهم، وفاز بالثقة اللازمة التّي تجعله ممثّلا صادقا لمن ينوب عنهم، ولسانا ناطقا يعبّر عن حالهم، وأداة وصل ينقل آلامهم ومشاغلهم " وينبغي كذلك أن يكون صاحب مبدأ، يؤمن به ويثق فيه، ويثبت عليه، دون تلوّن أو تذبذب " [3]، لأنّ الثبات على المبدأ من صفات الرجال، ومن خصائص العاملين الصادقين، ومن علامات العمل الناجح والجهد المثمر .

ـ التودّد لمستمعيه : لأنّه يريد من خلال طرحه نيل رأي الأغلبيّة، وإقناع أكبر عدد ممكن من النوّاب، فلا يزيد على نفسه الأعداء المجّانيّين، ولا يخسر الأصدقاء والمحبّين، إذا نقد نقد الأعمال والتصرّفات، وإذا صحّح صحّح الأفكار والتصوّرات، لا يقدح في الأشخاص، ولا يسب المخالفين والمعارضين، الرّفق نديمه وجليسه، والأناة صاحبه ورفيقه، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إنّ الرّفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا يُنزع من شيء إلا شانه " [4]، ولا يمكن للخطيب النيابي أن تكون له هذه الملكة إلا إذا كان عالما بحال النوّاب، خبيرا بميولاتهم مطّلعا على عواطفهم، متمكنا من مفاتيح القلوب، مطّلعا على رغائب النفوس " يجب على الخطيب

[1] ـ المرجع السابق، الصفحة نفسها .
[2] ـ الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تح ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، دمشق، ط 1، 1961، ص 1418 .
[3] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 263 .
[4] ـ مسلم بن الحجاج، الجامع الصحيح، حديث رقم 2594، ص 2004 .

النيابي ألا يجعل المنطق هو كل شيء في كلامه، بل لابد أن يرطبه بما يثير المشاعر، ويهزّ الإحساس، ويحفّز الهمم " [1]، فعلى الرغم من أنّ جلّ النوّاب هم من الطبقة المثقّفة إلاّ أنّه لابد للنيابي أن يزاوج بين خطاب العقول وخطاب القلوب، فقد يسيطر الثاني على الأوّل أحيانا .

ـ الجرأة في الحقّ : فلا يخاف في الله لومة لائم، ولا يسكته في الحقّ سطوة ظالم، " دخل الإمام مالك مع ابن طاوس على أبي جعفر المنصور وهو جالس على فرش وبين يديه أنطاع قد بسطت، وجلاّدون بأيديهم سيوف يضربون الأعناق، فأومأ إلينا أن اجلسا، فجلسنا فأطرق زمانا طويلا ثم رفع رأسه والتفت إلى ابن طاوس وقال : حدثني عن أبيك، قال :سمعت أبي يقول : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنَّ أشدَّ النَّاس عذابا يوم القيامة رجل أشركه الله في ملكه فأدخل عليه الجور في حكمه، فأمسك أبو جعفر ساعة حتّى اسودّ ما بيننا وبينه، قال مالك فضممت ثيابي مخافة أن ينالها شيء من دم ابن طاوس، ثمّ قال : يا ابن طاوس ناولني هذه الدواة فأمسك عنه، فقال ما يمنعك أن تناولنيها، قال : أخاف أن تكتب بها معصية فأكون شريكك فيها، فلما سمع ذلك قال : قوما عني، قال ابن طاوس : ذلك ما كنّا نبغي، قال مالك فمازلت أعرف لابن طاوس فضله من ذلك اليوم " [2]، وربما هذه القصة تبيّن الفرق بين الجرأة وبين الحماقة والطيش، فالجرأة لا تعني سبّ النّاس، أو شتم المعارضين، أو قذف المخالفين، وإنّما تعني بيان الحقّ وقت الحاجة، دون تزييف، أو تخويف، أو تحقير، أو مجاملة أو تطبيع أو تملّق، " في بعض حجّات هارون الرشيد قال له العُمَري : يا أمير المؤمنين إنّي أريد أن أكلّمك بكلام غليظ احتمله لله عزّ وجلّ، فقال هارون : سأفعل والله، ثم قال : لقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرّ منّي فقال له : ﴿ **فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى** ﴾ (سورة طه، الآية 44) " [3]، فلا شك أنّ الدفع بالتي هي أحسن أكمل وأجمل، وأنفع وأقنع، ولكن لا بد أحيانا للحقّ من صادح، ولسان صادق ناصح، حتّى تستقيم بذلك المعادلة، وتستمرّ حتمية الصراع بين الحقّ والباطل .

---

[1] ـ ممد أبو زهرة، الخطابة، ص 156 .
[2] ـ شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستضرف، ص 105 .
[3] ـ عبد القادر بن محمد الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة من أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 2002، ج 2، ص 343 .

3 ـ 2 ـ الخطب العسكرية :

وهي التي تلقى عادة في ميادين الحرب ومواطن الجهاد، والتّي تشتمل على الحماسة والقوّة والتأثير، ولا شك أنّ هذا النوع من الخطابة يستمد أهميّته من أهميّة الموقف، ولذلك لا بد لمن يتصدّى لها أن يكون على دراية تامة بخطورة الحدث، وعلى علم كاف بطبائع النّفوس وقد عرّفها إسماعيل علي محمد بقوله : " هي الخطب التي تلقى على الجنود في ميادين الجهاد لتحريضهم على قتال عدوّهم، وتحفيزهم على الثبات والإقدام، وحثهم على التضحية، وبذل كل ما لديهم من طاقة قتاليّة لتحقيق النّصر، والظفر بالمطلوب "[1]، ولعل الملاحظ في هذا التعريف حصر الخطابة العسكرية في الخطب التي تلقى على الجيش أثناء القتال وفي مواطن التضحية والفداء، وفي ساحات الوغى والجهاد، بغضّ الطرف عمّن يلقيها سواء كان رئيس البلاد، أو قادة الجيوش، أو من يختارهم الحاكم من المدنيّين لمخاطبة الجيوش من أجل شحذ الهمم، ورفع المعنويّات، ودفع المجاهدين إلى التضحية بالنّفس والنفيس، والغالي والرخيص، حتّى تتحقّق الأهداف، ويُنال المراد .

ولقد كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قبيل المعركة يستعرض جنوده، ويحرّضهم على القتال، ويحثّهم على التضحية والاستبسال، ويرغّبهم في فضل الشهادة، ويرهّبهم من التولّي أثناء الزحف ففي غزوة بدر الكبرى قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأصحابه : " قوموا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض، فقال عمير بن الحمام ـ رضي الله عنه ـ : يا رسول الله جنّة عرضها السماوات والأرض ؟ قال : نعم، قال : بَخٍ بَخٍ (كلمة تعجب)، فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : مايحملك على قولك : بَخٍ بَخٍ ؟، قال : لا والله يا رسول الله إلاّ رجاءة أن أكون من أهلها . قال : فإنّك من أهلها، فأخرج تمرات من قَرَنِه (جعبة النشاب) فجعل يأكل منهن، ثمّ قال : لئن حييت حتّى آكل تمراتي هذه إنّها لحياة طويلة، قال : فرمى بما كان معه من التمر، ثمّ قاتلهم حتى قتل " [2] .

---

[1] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 271 .

[2] ـ مسلم بن الحجاج، مختصر صحيح مسلم، تح ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 6، س 1987، ص 310 .

فلا شك أنّ هذه الكلمات تملأ القلب ثباتا، وتزيده قوة وصلابة، وتُعمّره جرأة وشجاعة وتدفعه إلى الأمل في النّصر، والطّمع في الثواب والجزاء، وشتّان بين من يقاتل خوفا من الموت، ومن يقاتل حرصا على الموت، " والغاية من الخطابة العسكرية هي إنهاض همم الجنود، وإذكاء نار الحماسة فيهم، وإثارة النّخوة والحميّة والإقدام، وتهوين الموت، وتجميل التضحية، وإعطاء الثقة بالنّفس، والأمل بالنجاح " [1]، ولذلك ينبغي للخطيب السياسي أن يدغدغ العواطف، ويحرّك الأحاسيس، ويستميل القلوب، ويستعمل مختلف وسائل التأثير وأدوات الإقناع، حتّى يُحقّق المرغوب، ويُنال المطلوب .

وهذه خطبة عسكرية رائعة سجّلها التّاريخ باسم طارق بن زياد، يحثّ فيها جنده على الثّبات والصبر جاء فيها : " أيّها النّاس، أين المفرّ، والبحر من ورائكم والعدو أمامكم، فليس لكم والله إلا الصّدق والصبر، واعلموا أنّكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، وقد استقبلكم عدوّكم بجيشه وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وَزَرَ لكم إلا سيوفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمراً ذهبت ريحكم وتعوضّت القلوب برعبها منكم الجراءة عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغيّة ... " [2]، لقد كانت هذه الخطبة نموذجا يُحتذى، ومثالا صادقا لقادة الجيوش، وقدوة حيّة لكل من أراد أن يتصدّى للخطب العسكرية، ويمكن من خلالها وضع عدّة خصائص لهذا النّوع من الخطب :

ـ الصّدق الذي ينبغي أن يتوفّر في الخطيب أولا، ثمّ من خلال الكلام الذي سيوجهه لمستمعيه فالزّمان والمكان لا يحتملان الكذب .

ـ مخاطبة القلوب وقذف جذوة الحماسة فيها، ودفعها إلى التضحيّة، وإلى الطمع في النّصر أو الفوز بالشهادة .

. تمكّن الخطيب من الناحية اللغوية حتّى يصل كلامه إلى أكبر عدد ممكن من الجنود .

[1] ـ نقولا فياض، الخطابة، ص 93 .
[2] ـ شمس الدين بن خلكان ، وفيات الإعيان وأنباء أبناء الزمان ،تح إحسان عباس ، دار ، صادر بيروت، ط1 ، س 1977 ، ج 5 ، ص 321 .

ـ حسن الصوت وضبط الأداء بما يوافق المقام، من أجل أن يكون التأثير أعمق، والامتثال أعمّ وأشمل .

ـ الجمع بين القول والعمل فما، أجمل أن يكون الخطيب في الصفّ الأوّل من المقاتلين .

3 ـ 3 ـ الخطب القضائية :

وهي الخطب التي تلقى في المحاكم ومجالس القضاء، وهي أيضا من أقدم أنواع الخطب التي عرفها البشر،" هذا النّوع من الخطابة قديم يرجع قواعده وأصوله إلى اليونان، ثمّ إلى الرومان وكان موجودا عند العرب قبل الإسلام " [1]، فكان العرب يحتكمون إلى رؤساء القبائل، وإلى أصحاب الفضل من زعماء العرب، وإلى الملوك، وأحيانا إلى اليهود لأنّهم أصحاب كتاب أو إلى الكهّان، ولقد كان المسلمون يحتكمون للنبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فيقول لهم : " إنّما أنا بشر وإنّكم تختصمون إلي، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقّ أخيه، فلا يأخذنّ منه شيئا، فإنّما أقطع له قطعة من النّار " [2]، فالخطابة القضائيّة هدفها الفصل بين الخصومات وفكّ النزاعات والبحث عن الحقيقة، والقضاء على الجريمة، والوصول إلى برّ الأمان . عرّفها إسماعيل علي محمد بقوله : " وهي الخطب التي تلقى في مجالس القضاء، أو في ساحات المحاكم والمرافعات أمام القضاء وغالبا ما يلقيها رجال النيابة والمحامون " [3]، ولعلّ في هذا التعريف إشارة إلى من يمارس هذا النوع من الخطابة وهما صنفان من النّاس (رجال النيابة، والمحامون) ومن خلال هذين الصنفين تستمد الخطابة النيابيّة خصائصها ومميّزاتها :

أ ـ مرافعة النيابة : على اعتبار أنّ النيابة هي حامي القانون، ومن يحافظ على تطبيقه للحدّ من الجريمة والتقليل من أثرها، ويتمثّل دورها في جمع الأدلة التّي تتعلق بالتّهمة، ومحاولة تصنيفها التصنيف الأمثل حتّى يتمّ قبولها لدى المحكمة، وقد شبّهها محمد أبو زهرة بعمليّة الحسبة التّي كان الخلفاء يخصّصون لها عمّالا حفاظا على الحدود الإلهيّة والعلاقات الاجتماعيّة،

[1] ـ عبد الجليل عبدو شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 86 .
[2] ـ مالك بن أنس، الموطأ، ص 719 .
[3] ـ اسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهاراة الخطيب، ص 267 .

وحدّد مهامها بقوله : " كذلك النائب العمومي ووكلاؤه يرفعون القضايا التي تتعلّق بالنّظام العام وهي الجنايات المنصوص عنها في القانون ويقدّم النائب الأدلّة المثبتة للدّعوى في الجملة ؛ فإنّ ظهر أنّ القرائن غير كافية للإدانة بعد رفع الدعوى فوضّ الأمر للمحكمة " [1] ، وكأنّ النائب مهمّته جمع الأدلة وإثباتها، والمحامي نقضها ونفيها، ولذلك ينبغي للنّائب العمومي أن يتميّز بالآتي :

ـ الذّكاء الشديد وقوّة الملاحظة، اللذان يساعدانه على جمع الأدلّة، من خلال الظّروف المحيطة بالقضيّة، والسوابق واللواحق، ودراسة ملفات الضبطيّة ومحاضر الشّرطة، وكذا من خلال استجواب المتّهم والشّهود .

ـ الدراسة المعمّقة للقوانين واللوائح المنظّمة للعمل النّيابي، ومعرفة حدود العلاقات الممكنة مع القاضي والمحامي اللذان يتعامل معهما .

ـ المصداقيّة والتجرّد، فغاية النائب بيان الحقيقة، ومعاقبة الجاني، وليس إلصاق التّهم من أجل الشّهرة والمناصب .

ـ الاعتدال في لغة الطرح، فيتجنّب التطويل الممل، والاختصار المخلّ، يقدّم الأدلّة العقليّة والمنطقيّة والقانونيّة بلغة معتدلة، " وأن لا يكثر من الوجدان والعاطفة " [2]، حتّى لا تضيع القضيّة في العبارات المنمّقة، والألفاظ الرنّانة، فيختفي بذلك شيء من الحقيقة، أو يُحمل الكلام على غير ما وُضع له، وقد وضع محمد أبو زهرة لكسر هذا الشّرط أمران :

" ـ (أحدهما) : أن يتّجه إلى الألفاظ الفخمة القوية الرنّانة إن كان يتكلم في سلطة القانون وقوّة سلطانه ... .

ـ (وثانيهما) : أن يلاحظ قوّة رجال الدفاع، فإن وجدهم من أهل البيان واللسن، وممّن يحاول التأثير بالكلام، شهر عليهم مثل سلاحهم ... " [3] .

---

[1] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 170 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 171 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 175 .

ـ عدم التجريح، أو الإهانة والسبّ، فالمتّهم بريء حتّى تثبت إدانته، وفي هذا يقول محمد أبو زهرة : " وإذا عمد إلى وصف نفسية المتّهم، فليكن بعبارات مهذّبة عفيفة، لا تجنّي فيها ولا ما يشبه السبّ " [1]، لأنّ القانون سيأخذ مجراه، وتحكم العدالة بسلطانها، والسبّ بحدّ ذاته جريمة يعاقب عليها القانون، ولا يعقل تطبيق القانون بمخالفة القانون .

ب ـ مرافعات المحامين : المحامي هو الذي يمثل الدّفاع عن المتّهم، والذي ينافح عن براءته " أمّا المحاماة فلا خلاف على أنّها في الأصل مهنة لنصرة المظلومين، ولإثبات حقوق الضعفاء الذين لا يتمكنون من إثباتها " [2]، فكثير من النّاس لا يستطيعون التحدث بطلاقة وفصاحة ولا يستطيعون إيصال الأفكار بسلاسة وسهوله، بل ويجهلون مواد القانون، ولا يعرفون ما لهم وما عليهم، فيكون بذلك المحامي أنسب شخص يتولّى هذه المهمّة، فهو أعرف النّاس بأصول المرافعة وفروعها، وقواعدها وفنونها، قال سعد زغلول : " يظهر أنّ العدالة الحقيقيّة غير موجودة في هذا العالم، لهذا كانت مجالس القضاء مكانا لمغالبة الخصوم ومقارعة الحجج وميدانا فسيحا للاستدلال الخطابي ... " [3]، ومغالبة الخصوم ومقارعة الحجج تحتاج إلى فهم ودراية، وتحصيل ودراسة، وتخصّص واطّلاع، ولذا كان لها رجال متمرّسون، وفئام متخصّصون يعرفون مداخلها ومخارجها، وأسرارها وخباياها، ودساتيرها وقوانينها، كرّسوا أوقاتهم لدراسة هذه المهنة، وحملوا أنفسهم على حماية المظلوم وبيان الحقّ، وعلى نصرة المستضعفين وتحقيق العدالة .

وقد ذكر إسماعيل علي محمد شرطين رئيسين، وركيزتين مهمّتين، عليهما قوام الخطابة القضائية (الأوّل : معرفي، والثاني : سلوكي) [4] وفي الحقيقة هذان الشّرطان هما عماد الخطابة إجمالا بكل أنواعها، ولا غناء عنهما البتّة، ولكن تختلف عناصرهما، وتتباين مكوناتهما من نوع لآخر .

---

[1] ـ المرجع السابق، ص 171 .
[2] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 268 .
[3] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 169 .
[4] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهاراة الخطيب، ص 269 .

. **المعرفيّ** : فعلى المحامي أن يكون واسع الإطّلاع على مختلف الفنون كعلم النّفس وعلم الاجتماع وعلم الفراسة ...، زيادة على إلمامه الواسع بمواد القانون الأصليّة والتبعيّة، وعلى دراية كافية بشخصيّة القضاة والمحامين العاملين معه، كما يجب عليه " الإلمام التام بأحوال الجماعات وطوائف الأمّة، وعرف كل طائفة " [1]، لأن القضايا تختلف وتتنوّع، والأعراف كذلك تتغيّر من منطقة إلى أخرى، والحكم على الشيء فرع عن تصوره، فإذا كان التصور خاطئا فتح باب الخلل، وسقط صاحبه في الزيغ والزلل، وفتح لخصومه مكامن الضعف وشيّد لهم منافذ النقد .

. **السّلوكي** : ويقصد به الجانب الأخلاقي للمحامي، ولاشك أنّ الكمال الأخلاقي هو المطلوب في كلّ شخص، ولكن ينبغي على المحامي أن تتجلّى فيه بعض الصّفات حتّى تسير العدالة إلى النّهج الصّحيح والطريق المنشود منها :

ـ قوّة الشّخصية : حتّى لا يكون المحامي مطمعا لكل من أراد اللّعب على فراغات القانون أو الباحثين عن تلفيق الحقائق وتلبيس الباطل، أو الذين يعتقدون أنّهم فوق العدالة والقانون أو الذين أغرتهم أموالهم ومناصبهم فدفعتهم إلى الظّلم والطّغيان .

ـ الإخلاص وإنصاف الحقّ : فهدف المحامي إظهار العدالة، ومحاربة الجريمة، أو تخفيف الظّلم الفردي والجماعي، فكثير من الذين ارتكبوا الجرائم إنّما هم ضحايا بشكل أو بآخر للظّلم الذي يمارسه المجتمع، فالفقير السارق الذي لا يجد ما يعالج به ولده في غياب الجار المشفق والصديق العطوف، والقريب المنتبه، والغني المزكّي، مع فقد فرص العمل، وغلاء المعيشة إنّما هو مظلوم في ثوب ظالم، والغنيّ السّارق الذي زوّر ورشى، وأكل أموال الشعب، وتجبّر وطغي، في غياب الرقيب والحسيب، إنّما هو ظالم في ثوب مظلوم .

ـ دقّة الملاحظة : بحيث لا تفوته شاردة ولا واردة، ولا كبيرة ولا صغيرة، خاصّة في مجلس القضاء، فكل هفوة وكل جزئية ولو كانت صغيرة قد تكون منفذا له وحجّة يقيم عليها مرافعته قال محمد أبو زهرة في بيانه لما يجب أن يتّصف به المحامي : " قوّة الانتباه واليقظة الدائمة

[1] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 177 .

وحسن المراقبة لما يجري في مجالس القضاء، ويقال من شهود وخصوم ووكلاء، لكي يستطيع أن يعرف المقتل، فيضرب الضربة القاصمة للخصم " [1]، وكلّما كان تركيزه أعلى كانت فائدته أكبر، لذلك ينبغي على المحامي أن يوفر القدر الكافي من الطاقة ليتمتّع بالحيوية والنشاط أثناء المرافعة .

ـ الحلم والأناة وعدم الغضب : حتّى يكون إصغاؤه سليما، واستنتاجه سليما، وكلامه سليما فيملك بذلك زمام الثّقة في النّفس، والهيمنة على المجالس، لأنّ المرء كلما كثر غضبه كثر غلطه، وكلما كثر غلطه كثر لغطه، وكلما كثر لغطه فتح أبواب الشرّ على نفسه، وأصبح النّيل منه شيئا يسيرا، ولعل الكثير من المحامين يحاولون إغضاب خصومهم حتّى ينالوا منهم مبتغاهم، ويحقّقوا مرادهم .

وقد ساق عبد الجليل عبدو شلبي مجموعة من خصائص الخطبة القضائية منها :

ـ درس القضية درسا عميقا شاملا، بحيث لا يغيب عن الخطيب أدنى جزئية منها .

ـ وضعها في الصورة القانونية الملائمة، بحيث ينجح طلبه بأقصى ما يستطيع، ويبحث اقتناع القاضي أنّه يعتمد على القانون لا على التهريج والإثارة .

ـ أن تصاغ الخطبة في صورة منطقيّة متسلسلة، تسلم كل نقطة إلى تاليتها، بدون أن يشعر السامع بفجوة أو انقطاع، فهذا يوهن الخطبة وينبئ عن عجز صاحبها .

ـ جودة الأسلوب وقوّة التعبير، ممّا له أثر كبير في إنجاح الخطبة القضائيّة، وكبار المحامين يطبعون خطبهم ليقرأها من لم يشهد إلقاءها، ويستفيد منه المحامون الآخرون والخطباء [2] .

3 ـ 4 ـ الخطب الدينيّة :

أ ـ **تعريف** : وهي الخطب التي تلقى عادة في المساجد، أو دور العبادة، والتي تعالج في الغالب كل ما يتعلّق بالدّين، وتزكية الأخلاق، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر

[1] ـ المرجع السابق، الصفحة نفسها .
[2] ـ عبد الجليل عبدو شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 87 .

عرّفها إسماعيل علي محمد بقوله : " وهي الخطب التّي تعنى ببيان مبادئ الدّين الإسلامي وتعاليمه وأحكامه ودعوة النّاس إليها، وتحذيرهم من غيرها " [1]، والملاحظ في هذا التّعريف أنّه خصّص الخطابة الدينيّة بما يلقى عادة في المساجد والتّي تشرح معالم الدّين الإسلامي، وأغفل الخطب التي تلقى في الكنائس، والتّي مهمتها مشتركة مع الإسلام سواء في الدّعوة إلى الخير أو ربط النّاس بخالقهم، وتذكيرهم بعاقبتهم ومآلهم، وقد حصر محمّد أبو زهرة الخطابة الدينيّة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر حيث قال : " الوعظ الديني هو الأمر بالمعروف في الدّين والنّهي عن المنكر فيه " [2]، على اعتبار أنّ ما يقوم به الواعظ الديني هو مهمة الأنبياء والمرسلين وقربة الأولياء الصالحين، يقول أبو حامد الغزالي : " إنّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدّين، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيّين أجمعين، ولو طوي بساطه، وأهمل علمه وعمله، لتعطّلت النبوّة، واضمحلّت الديانة وعمّت الفترة، وفشت الضّلالة، وشاعة الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد " [3].

ولا شك أنّ الخطب الدينيّة لها عند المسلمين مكانة هامّة، وقدسيّة خاصة، فصلاة الجمعة لا تصح إلا بها، وهي لا تصح إلا بالإنصات وحسن الاستماع، قال ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: " إذا قلت لصاحبك : أنصت يوم الجمعة والأمام يخطب فقد لغوت " [4]، ومن لغا فلا جمعة له، والجمعة بالنّسبة للمسلمين عيد أسبوعي، يلبسون أحسن الثياب، ويتعطّرون بأفضل الطيب، ويتّجهون فرادى وجماعات إلى المساجد لأداء فريضة الجمعة، ولا صوت ساعتها يعلو على صوت الخطيب، فالآذان له صاغية، والأبصار إليه شاخصة، والقلوب بأقواله متعلّقة، ومن هنا تستمدّ الخطابة الدينيّة أهميّتها، ويتضح دورها وخطورتها، والنّاس لا تستقيم حياتهم، ولا تتزن تصرفاتهم، ولا تزكوا أخلاقهم، إلا عن طريق هذه المواعظ التي تنبّه الغافل وتوقظ النائم، وتوجّه الحائر، وتبصّر التائه، وتحفظ المجتمع من الزيغ والضّلال وتبعده عن مواطن التّيه والعطب، وتقوده إلى مدارج الرقيّ والسّعادة، قال تعالى : ﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ**

---

[1] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 276 .
[2] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 188 .
[3] ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار السلام، مصر، ط 1، س 2003، م 1، ص 758 .
[4] ـ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجمعة، حديث رقم 851، ص 583 .

انْثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ- أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة النحل، الآية 97) .

إنّها الحياة الطيبة التي يبحث عنها النّاس في غير مواضعها، وينفقون في سبيل ذلك أموالهم ويضيّعون أوقاتهم، ويخسرون جهدهم وأعمارهم، والسعادة لا تكون إلا في أكناف الدّين، واتّباع تعاليم رب العالمين، ولا مكان يجد الإنسان فيه بغيته، ويعثر فيه على ضالّته إلا دور العبادة " فحاجة النّاس إليه ملحة ودائمة، إذ الغافل محتاج إلى من يذكره والجاهل مُفتقر إلى من يعلّمه، والمتذكر محتاج إلى من يثبّته ويؤازره، والعاصي أشدّ النّاس احتياجا إلى من ينصحه ويقوّمه " [1]، وملخّص الكلام أنّ الخطابة الدينيّة هي تلك التي تربط العباد بالذات الإلهيّة، المطّلع على الحال، والعالم بالأحوال، والمتحكّم في المصير والمآل من أجل أن تستقيم الأمم على الأخلاق الفاضلة، فتنشأ بذلك المدينة الفاضلة التي حلم بها الفلاسفة، وأسّسها النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في أرض الواقع في المدينة المنوّرة .

ب ـ أنواع خطب الوعظ الديني :

قسّم أبو زهرة خطب الوعظ الدّيني إلى أربع شعب : " خطب المجادلة عن الإسلام والدّعوة إليه، وخطب التعليم الدّيني للعامّة، وخطب تثبيت الإيمان في النّفوس، وخطب إصلاح العيوب والنّهي عن المنكرات " [2]، ولعلّ أبا زهرة اعتمد في تقسيمه هذا على ما يغلب في الخطبة، أو على المناسبة التي تلقى من أجلها، أو على نوعيّة المستمعين الذين يقصدهم بالخطاب، وتتدرج تحت كل نوع بعض ما يميّز الخطبة عن غيرها، وإذا برع الخطيب في التفريق بين هذه الأنواع كان أقرب للصواب، وأدعى أن يحضى كلامه بالقبول .

أ ـ خطب الدعوة الإسلام أو الدفاع عنه :

هذا النّوع من الخطابة يقتضي العلم الواسع بمختلف الطوائف والفرق، وكذا سائر الديانات والنّحل، وعلى الخطيب الذي يتصدّى لها أن يكون بارع الذّكاء، فطن البديهة، واسع

[1] ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب، ص 277 .
[2] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 201 .

الإطّلاع، يعلم أساليب المناظرة وفنونها، ويحيط بأسرار المجادلة وقوانينها، جامعا بين علم النّفس وعلم الاجتماع، متمرّسا في الفقه عالما بأصوله، متين العقيدة عميق الإيمان، قال أبو زهرة : " لا يتصدّى لهذا النّوع من الوعظ إلا ذو العقل الأريب، الخبير بشؤون الجماعات وأحوال الأمم، الملمّ إلماما تامّا بالملل والنّحل والأديان القديمة " [1]، خاصّة ونحن في عصر العولمة حيث أصبح العالم قرية صغيرة ، يستطيع الواحد أن يتواصل مع الملايين وهو جالس في بيته، وإذا كان أحدهم ضعيف الحجّة، قليل الحكمة، وأراد أن يدعو إلى الإسلام كان هدمه أكثر من بنيانه، وضرره أكبر من نّفعه، وربّما خشي عليه من الكفر أو الإلحاد، ولقد رسم القرآن الكريم المنهج العريض للدّعوة في قوله جلّ وعلا : ﴿ **اَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (سورة النحل، الآية 125) . .

لقد سلك النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ هذا النهج ما زاغ عنه ولا بدّل، وما حاد عنه ولا غيّر، ولسان حاله : ﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوَاْ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ** ﴾ (سورة يوسف، الآية 108) . ولقد ضرب النبيّ ـ عليه الصلاة والسلام ـ أروع الأمثلة في دعوة مختلف الطوائف إلى الإسلام (المشركون من أهل مكة والمدينة، وأهل الكتاب من يهود المدينة، وبقايا الحنيفيّة السمحة ـ ورقة بن نوفل ـ، وبعض أهل الكتاب من المسيحيّين كسلمان الفارسي ووفد نجران)، من ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أنّه قال : " لما نزلت : ﴿ **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْاَقْرَبِينَ** ﴾ (سورة الشعراء، الآية 214) صعد النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ على الصفا فجعل ينادي : (يا بني فهر يا بني عدي) ـ على بطون من قريش حتّى اجتمعوا فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ قالوا : نعم، ما جرّبنا عليك إلا صدقا، قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب : تبّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت : ﴿ **تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ**

[1] ـ المرجع السابق، ص 202 .

(1) مَآ أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) ﴾ (سورة المسد آية 1 2) " [1]، والملاحظ في هذه الحادثة ما يأتي :

ـ قوّة شخصية النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وجرأته في الحقّ، وثقته التامّة أنّه لن يصيبه إلاّ ما كتبه الله له، وأنّه في منعة وحفظ من الله تعالى، فقد جاء بدين جديد، وعقيدة لم تألفها عقولهم، وتحدى جميع معتقداتهم الخاطئة، وأفكارهم البالية، التي تربوا عليها وورثوها أبا عن جد، وهذا أمر لا ينتج إلا عن طريق الإيمان الصّادق، والثّقة التامّة بتأييد الله عز وجل فالمشركون كلّهم كانوا في كفّ والنبيّ عليه الصلاة والسلام ومن معه من القلة المؤمنة في كف. بل البشرية كلّها في كف والنبيّ ﷺ وحده في كفّ، وكذا ينبغي على كل داعية أن يتحلى بهذه الشجاعة، وأن لا تأخذه في الحقّ لومة لائم، وأن لا تغرّه الكثرة إن كانت على باطل، لأنّ الحقّ ظاهر جليّ وعليه من الله نور وبرهان .

ـ مكارم الأخلاق التي تجلت في خلق الصّدق الذي عرف به النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قبل البعثة ويظهر هذا جليّا في ذاك الحوار الشائق بين النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مع من حضر في ذلك الاجتماع : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي ؟ مع أن الذي دعا إليه النبي صلى الله عليه ضرب من الخيال، ولا يستقيم في عقل، ولا يقبله منطق، فالوادي مكشوف لأهل مكّة لو وقف فيه رجل لظهر للجميع فما بالك بجيش يكون فيه، ولكنّ جواب الجمع كان أغرب ممّا دعا إليه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ، قالوا : نعم لو أخبرتنا بهذا الذي لا يقبله عاقل لصدّقناك في ذلك لأنّه وبكل بساطة (ما جرّبنا عليك إلاّ صدقا) . بل إنّ أبا لهب لم يجرأ على تكذيب النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وإنّما قال : تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا، كما أنّ الصّدق من أهمّ الأخلاق التي ينبغي أن تتوفر في الداعية إلى الله قال تعالى : ﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (سورة الشعراء، الآية 214) ، فالصّدق معناه موافقة الظّاهر للباطن والقول للعمل، ولذلك القرآن الكريم نسب الكذب إلى المنافقين لما شهدوا برسالة النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، مع أنّ الذي قالوه ظاهره الصّدق ولكن لمّا خالف ظاهرهم باطنهم، وخالف قولهم ما في قلوبهم، وصفهم الله عز وجل بالكاذبين

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، باب التفسير، رقم 4770، ص 1196 .

قال تعالى : ﴿ **إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ (سورة المتافقون، الآية 01)، وربّما هذا البون بين القول والعمل، وهذا الانفصام بين الظاهر والباطن، هو الذي أدّى إلى هذه القطيعة بين الخطيب والنّاس، وأدّى كذلك إلى ضعف الخطاب الديني فالخطيب الصّادق هو الذي يصل إحساسه إلى النّاس ويكون قوله أقرب إلى القلوب وألمس لمواطن الجرح والألم، وقد أورد ناصح علوان حوارا بين ابن وأبيه جاء فيه : " قال عمر بن ذرّ لأبيه : مالك إذا تكلّمت أبكيت النّاس، وإذا تكلّم غيرك لم يبكهم ؟ فقال : يا بني، ليست النّائحة الثكلى كالنّائحة المستأجرة " [1]، ومما يؤسف له أنّ الكثير من الخطباء اليوم إنّما هم من النّوع الثاني، الذين لم يفرقوا بين الخطابة كوظيفة والخطابة كرسالة .

ـ ذكاء النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وحسن إدارته للحوار، فقد بدأ بذكر أمر قد أجمع عليه أهل مكّة قاطبة، وهو خلق الصّدق الذي جسّده ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ في أرض الواقع، وشهد على ذلك العدوّ والصّديق، فانطلق من هذه الحقيقة ليدخل إلى قلوبهم، ولذلك انصرف القوم وفي قلب كل واحد منهم شيئا ممّا قاله ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وليت القوم يفقهون هذه الحقيقة فينطلقون من مواطن الاتّفاق ومحاسن الاعتقاد، إلى مواضع الخلاف ونقاط الاختلاف فالحكمة ضالّة المؤمن، وهي ديدنه في الدّعوة، وسلاحه في الخصومة، جاء في الحديث الذي يرويه الشّيخان عن سالم بن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ أنّه قال : " قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من اللّيل، فكان بعد لا ينام من اللّيل إلاّ قليلا " [2]، فقد بدأ النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بمدح عبد الله بن عمر: (نعم الرجل) فكان هذا التّصرف أبلغ في نفس عبد الله بن عمر، وأشدّ أثرا على سلوكه، ثمّ جاء التوجيه النبويّ (لو كان يصلي من اللّيل) والنّتيجة ما ذكره عنه ابنه سالم : (فكان بعد لا ينام من اللّيل إلاّ قليلا)، فبعض النّاس يعتقدون أنفسهم أوصياء على هذا الدّين، ينفّرون بأساليبهم أكثر ممّا يقرّبون، ويفسدون أكثر مما يصلحون، ويهتمّون بنقد الأشخاص لا بنقد الأفعال، وبمعاداة الأشخاص لا بمعاداة الأفعال فالله عز وجل قال لنبيّه : ﴿ **فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة الشعراء، الآية 216) ، ولم يقل له : قل لهم إنّي بريء منكم، وقال أيضا جلّ في

[1] ـ ناصح علوان، تربية الأولاد، ج 2، ص 714 .
[2] ـ البخاري، صحيح البخاري، كتاب التهجد، رقم 1122، ص 273 .

علاه : ﴿ **وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (سورة يونس، الآية 41) ، " وإلى هذا أشار أبو الدرداء لمّا قيل له : ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا ؟ فقال إنّما أبغض عمله، وإلاّ فهو أخي " [1]، ولعمر الله إنّها لدروس ينبغي على كل ذي لب أن يدرك كنهها، ويعرف سرّها، وتستوطن قلبه، وتكون لسان حاله قبل مقاله .

ج ـ خطب التعليم الديني للعامة :

فالدّين الإسلامي عبارة عن عقيدة وأخلاق وعبادات ومعاملات، وقد يحتاج الإنسان في كل هذا إلى تعلّم ما لا يعلمه من أمور دينه، ولذلك يحتاج المجتمع إلى خطب تعليميّة تميل إلى الجانب الأكاديمي أكثر منها إلى الجانب الوعظي، كشرح الموطأ مثلا أو الرسالة أو الألفية ... إلخ، وهذا ما يعرف بخطب التعليم الدّيني وقد عرّفها أبو زهرة بقوله : " هي عبارة عن دروس دينيّة يلقيها الواعظ على العامّة، يعرّفهم فيها أصول دينهم، والأحكام الشرعيّة العمليّة والفضائل الخلقيّة التي يحثّ عليها، ويجعلها أسّا لقيام الجماعة الإسلاميّة الفاضلة " [2]، وممّا جاء في هذا التعريف قوله : (يعرّفهم فيها أصول دينهم) وأصول الدّين يقصد بها في الغالب علم العقيدة الذي يعد من أهم أنواع العلوم وأخطرها، إذ بعلمها يدين الإنسان لربّه قال الله تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ (سورة محمد، الآية : 19) ، فالعمل لا يكون إلا بعد الاعتقاد الصّحيح، ولذلك ينبغي لمن أراد أن يدرّس علم العقيدة الانتباه إلى عدّة نقاط أشار إلى مجملها محمّد أبو زهرة : " الابتعاد عن الشروح الفلسفيّة، وكذا المسائل الخلافيّة، والاعتماد الكلّي على القرآن الكريم وما صحّ من السنة النبويّة " [3]، لأنّ عامة النّاس لا تستسيغ عقولهم هذه التفريعات، ولا يقبل منطقهم البسيط هذا السجال بين العلماء في مسائل الخلاف والإنسان مطالب أن يخاطب النّاس على قدر عقولهم، ناهيك عن بعض الخطباء الذين يتفنّون في نقل الأحاديث الضعيفة والواهية والموضوعة، معتقدين أنّ ذلك من حسن النيّة، ومتعلّلين ببعد النّاس عن طلب العلم وعن الشريعة الإسلاميّة، فيأتون بهذه الأحاديث ترغيبا وترهيبا للأمّة، وهذا هو

[1] ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، م 1، ص 620 .
[2] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 204 .
[3] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 204 (بتصرف) .

عين الخطأ وخلاف ما درج عليه علماء الأمّة، وهو أيضا بمثابة دسّ السمّ في الطعام، وتدليس الحلال بالحرام، وأول طريق الانحراف والضلال .

كما يستحسن في الخطب العلميّة أن تكون مطعّمة بالوعظ، لكي لا تمل النفوس، ولا تضجر العقول، ويكون التعليم أشدّ وقعا، وأرجى نفعا، وأقوى حجّة، وأقنع دليلا، وقد دلّل إسماعيل علي محمد حين ساق بداية سورة الطلاق مثالا على ذلك وهي قوله جلّ وعلا : ﴿ **يَآ أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَنْ يَاتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا (1) فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُومِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (3)** ﴾ (سورة الطلاق آية 1 - 2 - 3) مع أنّ الآية جاءت بصيغة التّعليم غير أنّها لم تخل تماما من الموعظة (ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه ـ ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ـ ومن يتّق الله يجعل له مخرجا ـ ومن يتوكّل على الله فهو حسبه) .

د ـ خطب تثبيت الإيمان وتقويته :

فالنّاس في أحضان العولمة الطّاغية، وجريهم وراء مكاسب الحياة الفانية، ينسون حقيقة وجودهم في هذه الحياة، ويضيعون كثيرا من القيم الخلقيّة، والثوابت الإيمانية والأخلاق الإسلاميّة، فيأتي هذا النوع من الخطب حتّى تحاول تنبيه الغافل، وتذكير النّاسي، وإرشاد الحائر، وتوجيه السّاعي، وتنوير الجّاهل، وتثبيت العالم، قال أبو زهرة : " هذا النّوع من الخطب يتّجه إليه الخطيب، ليقويّ برد اليقين في قلوب المؤمنين، ويثبّت دعائم الإيمان في قلوب المهتدين، ويلقي فيهم الحماسة لدينهم، ليستمسكوا بعروته، ويجيبوا دعوته " [1] .

[1] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 205 .

ولعلّ هذا هو أوّل ما اهتم به النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في بداية دعوته، وظلّ محافظا عليه طيلة حياته حتّى آخر يوم فيها، " قال ابن إسحاق : لمّا كان يوم الاثنين ـ الذي قُبض فيه النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ خرج عليه الصلاة والسلام عاصبا رأسه إلى الصبح، وأبو بكر يصلي بالنّاس فلما خرج رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ تفرّج النّاس فعرف أبو بكر أنّ النّاس لم يصنعوا ذلك إلاّ لرسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، فنكص عن مصلاه، فدفع رسول الله ﷺ في ظهره، وقال صلّ بالنّاس، وجلس رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إلى جنبه فصلى قاعدا عن يمين أبي بكر، فلما فرغ من الصلاة أقبل على النّاس، فكلّمهم رافعا صوته حتّى خرج صوته من باب المسجد، يقول : أيّها النّاس، سعّرت النّار، وأقبلت الفتن كقطع اللّيل المظلم، وإنّي والله ما تمسكون علي بشيء ؛ إنّي لم أحل إلا ما أحلّ القرآن ولم أحرّم إلا ما حرّم القرآن " [1]، صلّى الله عليه وسلّم، بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، ونصح لأمّته حتّى آخر رمق في حياته، فالإيمان يزداد أحيانا وينقص أخر، والقلوب لها إقبال وإدبار، والنفوس لها شرّة وفترة، فلابد لها من محطات تملأ فيها ما ضاع منها في منازل الغفلة ومواطن الشّهوة، ولابد لها من تذكير يعيد لها ما فقدته على سرر النزوات وفرش اللذّات .

وما يميّز هذا النّوع من الخطب ربط الناس بالآخرة، وتذكيرهم بالجنّة والنّار، وردّهم لله عز وجل، وربّما تطرق الخطيب إلى سير الصالحين وحياة الأنبياء والمرسلين، ليأخذ منها العبرة، ويثبّت بها اليقين قال تعالى : ﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنْبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُومِنِينَ** ﴾ (سورة هود، الآية 120) ، وقد يتناول تفسير بعض الآيات والأحاديث التي تتعلّق بالإيمان، أو التي تتحدّث عن الجنّة والنّار، أو التي تربط النّاس بالله وتردّهم إلى خالقهم، فإنّ الإيمان إذا وقر في القلب صدّقه العمل، وتجلّى في حياة النّاس وفي تصرّفاتهم، وتحكّم في أخلاقهم وفي تعاملاتهم، وعاش النّاس الحياة الطيّبة التي يريدها الله عزّ وجل لخلقه .

[1] ـ ابن هشام، السيرة النبوية، ج 4، ص 304 - 305 .

هـ ـ خطب إصلاح العيوب والنّهي عن المنكرات :

المجتمع المسلم له خصوصيّته وله أعرافه وتقاليده النّابعة من أصل الدين، والخطيب أو الإمام أو الداعية بشكل عام عبارة عن صمّام أمان يحاول الحفاظ على هذه القيم، وعلى هذه الأخلاق، ويحاول معالجة الأمراض وإصلاح العيوب، وتذكير النّاس وتنبيههم وتصحيح أخطائهم وتوجيههم، وهنا يأتي دور خطب إصلاح العيوب والنّهي عن المنكرات، يقول أبو زهرة : " في هذه الخطب يتّجه الواعظ إلى إصلاح العيوب الشائعة الضارّة بالمجتمع الهادمة لبناء الأخلاق فيه، فقوام هذه الخطب محاربة المنكرات ومقاومة الفجور ومنع الفواحش من أن تشيع في الذين آمنوا " [1] .

ومن هنا تكمن أهمية هذا النوع من الخطب، فالمجتمعات لا تقوم إلا على الأخلاق الفاضلة، ولا تبنى إلا على مكارمها، قال ﷺ : " بعثت لأتمّم حسن الأخلاق " [2]، ولا شك أن ما تعانيه المجتمعات اليوم من تخلف في جميع المجالات، وقبوع خلف الرّكب، وتبعية عمياء سببه الرئيس فقد الأخلاق، بل حتّى العبادات التي ندين بها لله عز وجل لا يمكنها أبدا أن تكون مفصولة عن الأخلاق، فهاهي الصلاة التي هي عماد الدّين قال فيها سبحانه وتعالى : ﴿ **وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ** ﴾ (سورة العنكبوت، الآية : 45) ، وقال في الحجّ : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ (سورة البقرة، الآية : 197) ، وقال في الزّكاة: ﴿ **خُذْ مِنَ اَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (سورة التوبة، الآية 103)، وقال صلّى الله عليه وسلّم في الصّيام : " الصّيام جُنّة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنّي صائم ـ مرتين ـ ... " [3]، فهذه أركان الإسلام كلّها دعوة لمكارم الأخلاق، وإصلاح العيوب، وترك المنكرات معناه بشكل أو بآخر الرجوع إلى الأخلاق، ولذا كان لزاما على الخطيب أن يكون ذكيّا في طرح هذا النوع من الخطب، فمثله كمثل الطبيب لا يمكن أن يعطي الدواء الصحيح حتّى يشخص المرض تشخيصا صحيحا، وعليه أن يراعي في خطبه عدّة نقاط أجملها

---

[1] ـ محمد أبو زهرة، الخطابة، ص 207 .
[2] ـ مالك بن أنس، الموطأ، كتاب حسن الخلق، ص 904 .
[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، رقم 1894، ص 456 ـ 457 .

أبو زهرة في نقاط ثلاث : (أن يجعل الخطبة متصديّة لعيب واحد لا تعدوه، أن يبدأ بأكثر المعاصي خطرا، أن يبيّن مضار المنكر وخطره على الفرد والجماعة) [1] .

3 ـ 5 ـ الخطب المحفلية :

أو الخطب المناسباتية أي التي ترتبط عادة بمختلف المناسبات عرّفها أحمد الحوفي بقوله : " هي الخطب التي تلقى في المحافل لتكريم، أو تأبين، أو في تهنئة بنعم خاصة أو عامة أو في علاج مشكلة اجتماعية " [2] ويظهر من التعريف أنّ هذا النّوع من الخطب يتنوّع على حسب المناسبة، والموضوع يكون محددا مسبقا ؛ لأنّ المناسبة تفرضه، وتكمن براعة الخطيب في استغلال المناسبة على أحسن وجه، وتوجيهها إلى أهداف تخدم الفرد والمجتمع ويظهر من خلال التعريف ثلاثة أنواع للخطابة المحفليّة : (خطب المدح والتّكريم، وخطب التّأبين، والخطب الاجتماعيّة) .

أ ـ خطب المدح والتّكريم :

كثيرا ما نحتاج لمدح شخص ما بيانا لفضله، وتوضيحا لقدره، واعترافا بجهده، وتنويها بمكانته، وتشجيعا على عمله، ومساندة لمواقفه، وهذا ما يعرف بخطب المدح والتكريم : " وهي تقال ثناء على عظيم، أو ذوي الفضل، ومهمّة الخطيب أن يُبرز سمات عظمة المكرّم وفضله " [3]، وممّا ينبغي على الخطيب في هذا النّوع من الخطب :

ـ الاقتصاد في المدح : فلا ينسب للمُكرَّم ما ليس من أخلاقه حتّى لا يُتَّهم بالتملّق والنّفاق وحتّى لا يقسم ظهر أخيه ويفتح عليه باب العجب والكبر، والمدح جائز إذا كان في محلّه وكان من باب تشجيع الممدوح على مواصلة الطريق، ودفعه للمزيد من البذل والعطاء أو كان توجيها لغيره من النّاس من أجل الاقتداء به أو منافسته في الخير، فقد مدح النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أصحابه، ومدحه أصحابه في حضرته ولم ينكر عليهم، ومن ذلك مدحه ـ صلى الله عيه وسلم لعمر بن الخطاب ـ : " إيها يابن الخطّاب والذي نفسي بيده ما لقيك

---

[1] ـ ينظر كتاب الخطابة، محمد أبو زهرة، ص 207 - 208 .
[2] ـ أحمد محمد الحوفي، فن الخطابة، نهضة مصر، مصر، بد ط، بد س، ص 84 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 85 .

الشيطان سالكا فجّا قطّ إلا سلك فجّا غير فجّك " [1]، ومن ذلك مدحه عليه الصلاة والسلام للأشجّ بن قيس : " إنّ فيك خصلتين يحبّهما الله : الحلم والأناة " [2]، ومن ذلك أيضا مدحه عليه الصلاة لأبي عبيدة عامر بن الجراح : " إنّ لكلّ أمّة أمينا، وإن أميننا أيّتها الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح " [3] .

ولقد كان الشعراء يمدحون النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فلا ينكر عليهم، من ذلك مدح حسّان بن ثابت للنبيّ عليه الصّلاة والسلام في الكثير من قصائده ومنها مثلا قوله :

نَبيٌّ أَتانَا بَعدَ يَأْسٍ وفِتْـــــرَةٍ من الرُسْلِ والأَوْثَانُ في الأَرضِ تُعبَدُ

فأمْسَى سِرَاجًا مُسْتَنِيرًا وهَادِيًا يَلُوحُ كَمَا لاَحَ الصَقِيـلُ المُهَنّـــــدُ [4]

وقوله رضي الله عنه :

وأَحْسَنُ مِنْكَ لمْ تَرَ قَـــطُّ عَيْنِي وأَجْمَـــلُ مِنْكَ لم تَلِدِ النِّسَاءُ

خُلِقْتَ مُبَـــــــرَّأً مِن كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَد خُلِقْتَ كَمَا تَشَـــاءُ [5]

ومدح كعب بن زهير النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في قصيدته المشهورة (بانت سعاد) حيث قال فيه :

إِنَّ الرَّسُولَ لَسَيْفٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ مُهَنَّدٌ مِن سُيُوفِ اللَّه مَسْلُولُ [6]

" هذه القصيدة لمّا أكملها صاحبها خلع النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بردته وأعطاها له فاشتراها منه معاوية بثلاثين ألف درهم، وهي التي يتوارثها الخلفاء يلبسونها في الجمع والأعياد تبرّكا بها " [7] .

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم 3683، ص 906 .
[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، باب الإيمان، رقم 17، ص 48 .
[3] ـ المرجع نفسه، باب فضائل الصحابة، رقم 2419، ص 1881 .
[4] ـ حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت،، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 2، س 1994، ص 14 .
[5] ـ المرجع نفسه، ص 21 .
[6] ـ بن زهير، ديوان كعب بن زهير، تح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 1997، ص 67 .
[7] ـ ينظر كتاب العمدة، لإبن رشيق المسيلي، ص 4 .

وعلى الرغم من أنّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقبل المدح إلاّ أنّه عليه الصلاة والسلام كان يكره الإسراف فيه فكان يقول : " لا تطروني كما أطرت النّصارى عيسى بن مريم فإنّما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله " [1]، وسمع ﷺ رجلا يثني على رجل ويطريه في المِدْحَة فقال : " لقد أهلكتم، أو قطعتم ظهر الرجل " [2]، وجاء في الحديث الذي يرويه مسلم أنّ المقداد رضي الله عنه قال : " أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المدّاحين التراب " [3] .

هذه النصوص وأمثالها يقصد بها الذين يبالغون في المدح، ويتّخذونه سلّمًا لتملّق المسؤولين من أجل تحقيق أغراض دنيويّة، أو مصالح شخصيّة، ولذا وجب الاقتصاد في المدح والصدق في إطلاق الأوصاف، فما المدح إلا نوع من الشهادة، قد تكون شهادة حقّ وقد تكون شهادة زور، فلا ينبغي لعاقل أن يشتري غضب الله عز وجل بمتاع قليل من الدنيا .

ـ محاولة إثبات الصفات المنسوبة للمكرّم : ولا يكون ذلك إلاّ من خلال بيان أخلاقه في العمل وشهادات أصدقائه، ومواقفه الثّابتة، وتعامله مع من هو أعلى منه، ومع من هو أدنى منه. والغرض من كل ذلك تشجيع المُكرَّم على المزيد ودفع الغير إلى الاقتداء، كما كان يفعل النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مع أصحابه، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: " من أصبح منكم اليوم صائما ؟ قال أبو بكر أنا، قال : فمن تبع منكم اليوم جنازة ؟ قال أبو بكر : أنا، قال : فمن أطعم اليوم منكم مسكينا ؟ قال أبو بكر : أنا، قال: فمن عاد منكم اليوم مريضا ؟ قال أبو بكر: أنا، فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : ما اجتمعن في امرئ إلاّ دخل الجنّة " [4]، ولذا كان الصحابة يتسابقون إلى فعل الخير مثلما حدث بين عمر بن الخطّاب وأبى بكر الصدّيق، " فعن عبد الله بن مسعود قال : دخل رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ المسجد وهو بين أبي بكر وعمر، وإذا ابن مسعود يصلي، وإذا هو يقرأ النّساء فانتهى إلى رأس المئة، فجعل ابن مسعود يدعو، وهو قائم يصلي، فقال النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : اسأل تعطه، اسأل تعطه، ثمّ قال : من سرّه أن يقرأ القرآن غضّا كما أنزل فليقرأه بقراءة ابن أمّ عبد، فلمّا أصبح غدا إليه أبو بكر رضي الله عنه، ليبشّره وقال له : ما

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، رقم 3445، ص 854 .
[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم 3001، ص 2297 .
[3] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[4] ـ المرجع السابق، كتاب فضائل الصحابة، رقم : 1028، ص 1857 .

سألت الله البارحة ؟ قال : قلت اللهمّ إنّي أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد ومرافقة محمد في أعلى جنّة الخلد . ثم جاء عمر رضي الله عنه فقيل له : إنّ أبى بكر قد سبقك قال : يرحم الله أبى بكر ما سابقته إلى خير قطّ إلا سبقني إليه " [1]، ففي هذه الأمثلة وفي غيرها يتّضح أثر المدح على المكرّم وعلى السامع، فالأوّل يدفعة إلى المحافظة وبذل المزيد، والثّاني يدفعه إلى الغبطة والمنافسة المحمودة .

ب ـ خطب التّأبين :

وهي عادة حسنة دأب عليها أهل المغرب خاصّة فأثناء الدفن يلقي الخطيب خطبة ـ كما هو الحال عندنا في مدينة المسيلة ـ يُذكّر فيها بمناقب الهالك ويعظ النّاس ويُبصّرهم حقيقة الدنيا، ويدفعهم إلى الاستعداد ليوم اللقاء، عرّفها أحمد الحوفي بقوله : " هي الخطبة التي تلقى على قبر الراحل العظيم أو المتوفي العزيز، أو في حفل تأبينه أو في ذكرى وفاته " [2]، وهذا النّوع من الخطب قديم جدا أرجعه أحمد الحوفي إلى القرن الرابع قبل الميلاد حيث كان اليونان والرومان يلقونها في محافل رسمية لتأبين شهداء الوطن، وممّا يميّز خطب التأبين علوّ كعب المناسبة، فالقلوب تكون مهيّأة مسبقا لعظم الفاجعة والنّفوس مستعدّة فطريّا لتلقّي الموعظة، لذا ينبغي على الخطيب أن يكون حريصا في انتقاء ألفاظه واختيار أساليبه وأن يتقن فنّ المواعظ، وأن يراعي بعض النقاط الرئيسة أثناء خطبته :

ـ أن يعدّد خصال الهالك، وأن يبيّن الثّلمة التي تركها، والفراغ الذي خلّفه، دون إفراط أو تفريط، أو غلوّ أو تقصير، " فيبيّن الخطيب عظم الفجيعة فيه، ويعدّد مناقبه، ويجلّي آثاره ويواسي آله وأحبابه " [3]، كما يستحب أن تكون مقدمة جذّابة، تصوّر الفاجعة تصويرا دقيقا وتقدّم مشهدا راقيا، يظهر المشاعر، وينقل الأحاسيس، ومن جميل تلك المقدّمات ما افتتح به البشير الإبراهيمي كلمته في تأبينيّة محمد بن شنب، حيث قال : " ماهذا الجمع الحاشد ؟ ما هذه الزمرة المحدوة ؟ وما للأحياء حشروا في صعيد الأموات ؟ أجل ما لهذا الفريق الممتاز من إخوان الأدب، وأخدان العلم، وعشراء البحث، ورصفاء التفكير، وأسرة الكتابة والقلم يظهرون بهذا

[1] ـ أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، ج 7، رقم 3440، ص 359، 360 .
[2] ـ أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص 90 .
[3] ـ المرجع السابق، الصفحة نفسا .

المظهر الرهيب، وينزعون هذا المنزع الغريب، لولا داع دعا، وباعث بعث وسايق حثّ فأزعج، بلى ما هذا الحشد فوق التراب، إلا لقضاء حقّ عزيز ثوى تحت التراب ... " [1] .

وكانت هذه المقدمة مفتاحا لكلمة رائعة، وخطبة شائقة، ألقاها الشيخ في هذه التأبينيّة تحسّ من ورائها مدى الألم الذي كان يحسّ به، واللّوعة التي كان يشعر بها، وصعوبة الفراق الذي كان يختلج مشاعره، لأنّه لا يعرف قدر العظام إلاّ العظام، ولا يعرف قيمة العلماء إلاّ من أشرب محبّة العلم .

ـ يذكر مآثر الهالك، وما ترك من كتب، أو حلق ذكر، أو طلبة علم، أو مساكن وقفيّة أو مدارس شرعيّة ... وغيرها مما يُحمَد عليه النّاس عادة، أو يبقى صدقة جارية يمتدّ نفعها إلى ما شاء ربّ العزّة، فإنّ ممّا يثبّت النّفس، ويعينها على آلام المشقّة والتّعب، سير الصّالحين، وحياة المجاهدين العاملين، قال تعالى مخاطبا نبيّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :﴿ **وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنَ اَنْبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُوَادَكَ وَجَآءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُومِنِينَ** ﴾ (سورة هود، الآية 120) .

فإذا كانت سيرة الأنبياء والمرسلين تثبيتا لفؤاد النبيّ عليه الصلاة والسلام فكذا سير العلماء والصالحين بالنّسبة لباقي المؤمنين، ومن أمثلة ذلك ما قاله البشير الإبراهيمي في ذكرى وفاة صاحبه ورفيق دربه عبد الحميد بن باديس : " وذكرى عبد الحميد بن باديس هي ذكرى أعماله وآثاره في الأمّة، فهذه اليقضة المتفشّية فيها، وهذه الحركات السارية كالنّار في الضّرام، وهذه النظرات الجديدة في الحياة، وهذه الاتجاهات المسدّدة فيها، وهذا التجدد في الأذهان والعقول وهذا التصلّب في المقاومة، وهذه الأقلام الجارية بالبيان العربي، وهذه الألسنة المحلولة العقد في الخطابة، كلّها مذكّرات بعبد الحميد، وفي كلّ منها أثر من يده وأثارة من عقله، ونفخة من روحه، دعا إليها، وجهر بها، وعمل لها، وغرسها في نفوس تلامذته بالدّرس، وفي عقول جلسائه بالمذاكرات، وفي عامّة الأمّة بالمحاضرات " [2] .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس ، ط 4، س 2015، ج 1، ص 45 .
[2] ـ أحمد طالب الابراهيمي، أثار البشير الابراهيمي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1، س 1978، ج 3، ص 590 .

حيث عرّج الشيخ على جملة من أخلاق عبد الحميد بن باديس، وبعض آثاره في المجتمع الجزائري من خلال المدارس التي أسّسها، والمعاهد التي فتحها، وكذا من خلال الدروس والمحاضرات التي كان يلقيها على الخاصّة والعامّة، ولذلك أثبت الشيخ لعبد الحميد بن باديس يد الفضل في الصحوة الجديدة وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولا يتباين عليها رأيان، فكانت كلمته مؤدّية لغرضها خادمة لأهدافها، شاهدة على صدق صاحبها، وشاهدة أيضا على ذكائه وفطنته، وبيانه وسرعة بديهته .

ـ مواساة أهل الهالك، والتفريج عنهم، ومشاركتهم في محنتهم، وحثّهم على الصبر والرّضا بقضاء الله عز وجل، وتوضيح أن عظم الجزاء يكون بعد الصبر على عظم البلاء، يقول أحمد الحوفي في هذه الجزئية : " ثمّ يشارك الخطيب آل الفقيد في فجيعتهم ويعزّيهم، ويواسيهم بأنّ عظمة الفقيد باقية فيهم، وأنّ منهم خلفاء له " [1]، ولا بأس على الخطيب أن يستشهد بمختلف النصوص الحاثّة على الصبر، وأن يُذَكِّر بسِيَر السلف وتعاملهم مع المحن والمصائب، فإنّ في ذلك تسلية لأهل الفقيد، وعونا لهم على تحمّل الفاجعة .

ـ حثّ أهل الفقيد على الدعاء، وأمرهم بالعمل الصالح الذي يرجع على فقيدهم بالنّفع ويعود عليه بالخير، " فعن عثمان ـ رضي الله عنه ـ قال : كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إذا فرغ من دفن الميّت وقف عليه فقال : استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنّه الآن يسأل " [2]، والدعاء للفقيد مستحب في كلّ حين، ويتأكد عند المشي بالجنازة، وعند الصلاة عليها، وأثناء الدفن وبعده مباشرة، هذا لعامّة النّاس أما خاصتهم وقرابته فإنّ الدعاء لفقيدهم مستحب في كل وقت وفي كلّ حين، قال صلّى الله عليه وسلّم: " إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلاّ من ثلاثة : إلاّ من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له " [3]، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال : " إنّ الله تبارك وتعالى ليرفع للرّجل الدرجة فيقول أنّى لي هذه فيقول بدعاء ولدك " [4]، ومن هنا تكمن معاني التربية الصالحة التي تنتج الولد الصالح الذي يدعو لوالديه بعد فقدهما، كما يستحب من الخطيب حثّ عائلة الفقيد

---

[1] ـ أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص 95

[2] ـ أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط خ، س 2009، ص 127 .

[3] ـ مسلم، صحيح مسلم، كتاب الوصية، رقم 1631، ص 1255 .

[4] ـ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، بد ط، بد س، ج 10، ص 153 .

على قضاء دينه وتنفيذ وصيّته، وإنفاذ عهده ، وتعهّد أصدقائه ومعارفه، وصلة الرحم التي لم تكن توصل إلاّ به، ومواصلة مسيرته، والحفاظ على مكتسباته وأعماله .

ـ **الخطب الاجتماعيّة** : وهي الخطب التي تعالج باقي المناسبات الاجتماعيّة، كالزّواج والصّلح وكذا المناسبات التي يدعو إليها الخطيب عادة لتقديم خدمة اجتماعية كبناء مستشفى أو مدرسة شرعيّة، أو بناء مسجد، أو تشييد طريق ... وغيرها، وكذا الخطب التي تعالج بعض المشاكل الاجتماعية كالطّلاق والعنوسة والمخدّرات ... وغيرها، ولذاك عرّفها أحمد الحوفي بقوله : " هي الخطب التي تعرض لدراسة مشكلة من مشكلات المجتمع، فتبرز العيوب وأسبابها، وتطبّ لها " [1] .

وفي الحقيقة هذا تعريف قاصر، وسَّع مدلول الخطب الاجتماعية، ولم يجعل لها ضابطا دقيقا، يمكن من خلاله تمييزها عن الخطب الدينيّة ؛ فالدّين أساسا ما جاء إلّا لِيُقَوِّمَ المجتمعات، ويعالج نقصها، ويداوي جرحها، ويرشدها لما فيه نجاحها وفلاحها، وقد عرّفها عبد الجليل شبلي بقوله : " هي الخطب التي تلقى في موضوع يهم المجتمع، ويعود عليه ببعض الفوائد " [2]، والملاحظ في هذا التعريف أنّ صاحبه خصّه بالمشاريع التطوعيّة التي يقوم بها المجتمع أو بعض أفراده من أجل تقديم خدمة إنسانيّة تفيد الفرد والأمّة، وقد مثّل لذلك بقوله : " أن يدعو خطيب القرية لإنشاء مدرسة، أو ناد بها أو يقترح شقّ ترعة، أو إقامة جسر " [3] .

والمعروف أنّ الخطيب ابن بيئته، وسليل مجتمعه يعيش همومه، ويحيى ألامه ويحاول أن يضع بصمة في مجتمعه، ويعالج مواضع الخلل ويداوي أماكن الألم، ولكن ينبغي عليه أن يختار لكل مقام مقالا، ولكل حدث ما يناسبه من الطّرح، وما يتلاءم معه من العلاج فللمناسبة سلطانها الذي تحكم به، وللموقف قوّته التي يحاجج بها، فالكلام عن الموت في مجلس زواج لا يقبله عاقل، والحديث عن قيام اللّيل في مجلس صلح لا يستسيغه حاذق وأحيانا تأتي بعض الأحداث التي تفرض نفسها، والنّاس ينتظرون الحديث عنها، لأنّها شغلهم الشاغل، وموضوع السّاعة الرّاهن، فتجد الخطيب في واد والحدث في واد .

---

[1] ـ أحمد الحوفي، فن الخطابة، ص 96 .
[2] ـ عبد الجليل شبلي، الخطابة وإعداد الخطيب، ص 91 .
[3] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

4 ـ الحجاج :

الحجاج مأخوذ من الحجّة والدّليل، وهو أسلوب لغوي الغرض منه الإقناع، وقد ظهر في الدّراسات الحديثة وأصبحت له مدارس تهتم به وبتطبيقاته وإجراءاته، وقد أسهم بشكل مباشر في تطوير البلاغة العربية، معتمدا في ذلك على دراسة آلياتها وأدواتها من أجل الوصول إلى الإقناع الممكن في شتّى المجالات خاصّة في الخطابة، التي هدفها الرئيس الاقناع والاستمالة .

4 ـ 1 ـ تعريف الحجاج :

أ ـ لغة: جاء في لسان العرب : " الحُجَّةُ : البُرْهَان ؛ وقيل : الحُجَّةُ ما دُوفِعَ به الخَصْم، وقال الأزهري : الحُجَّة الوجه الذي يكون به الظَّفَرُ عند الخصومة . وهو رجل مِحْجَاجٌ أي جَدِلٌ . والتَّحَاجُّ : التَّخَاصُم ؛ وجمع الحُجَّةِ : حُجَجٌ وحِجَاجٌ . وحَاجَّهُ مُحَاجَّةً وحِجَاجًا : نَازَعَهُ الحُجَّةَ . وحَجَّهُ يَحُجُّه حَجًّا : غَلَبَه على حُجَّتِه وفي الحديث : (حجّ آدم موسى) أي غلبه بالحُجَّةِ . واحْتَجَّ بالشيء : اتَّخَذَه حُجَّة " [1]، ونحو هذا المعنى جاء في المعجم الوسيط : " حَاجَّهُ مُحَاجَّة وحِجَاجًا : جَادَلَهُ، وفي التنزيل : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنَ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ** ﴾ (سورة البقرة، الآية 258)، احْتَجَّ عَلَيْه : أَقَامَ الحُجَّةَ ... تَحَاجُّوا : تَجَادَلُوا " [2]، وكذا ورد هذا المعنى في مختار الصحاح : " الحُجَّةُ البرهان وحَاجَّهُ فحَجَّهُ من باب رد أي غلبه بالحُجَّةِ وفي المثل (لَجَّ فَحَجَّ) فهو رجل مِحْجَاجٌ بالكسر أي جَدِلٌ والتَّحَاجُ التَّخَاصُمُ " [3] .

قال تعالى: ﴿ **قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** ﴾ (سورة البقرة، الآية 139) ، قال المراغي في تفسير هذه الآية : " المُحَاجَّةُ : المُجَادَلَةُ بدعوى الحق لدى كل من المتخاصمين، مع إقامة الحجة على ذلك " [4]، فالحجاج من الحجّة وهو الدّليل والبرهان، وجاء في تفسير الصابوني على مختصر بن كثير:" تُحَاجُّونَنَا : تُنَاظِرُونَنَا في توحيد الله " [5]، فالحِجَاجُ لغة معناه المخاصمة والمجادلة، مع تقديم الدّليل، أو الحجّة والبرهان، أي حمل المخاطب على الاقتناع، وقد ورد الحجاج في القرآن الكريم بعدة صيغ

---

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 2، ص 228

[2] ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشرق الدولية، القاهرة، س 2004، ص 156 .

[3] ـ محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، س 1986، ص 52 .

[4] ـ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ج 1، ص 277 .

[5] ـ محمد علي الصابوني، مختصر تفسير بن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 7، س 1981، ج 1، ص 134 .

(حَاجَّ، حَاجُوكَ حَاجَّكَ، أَتُحَاجُّونِي، حَاجَجْتُم، تُحَاجُّونَ) ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُل اَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 20) ، وقوله جلّ في علاه : ﴿ **فَمَــنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَــآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 61)، وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ **لِمَ تُحَآجُّون فِي~ إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 65) ، وقوله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي** حَآجَّ **إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 65) ، وقوله تعالى : ﴿ **أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 65)، وقوله تعالى : ﴿ **قُلَ اَتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 65) .

ولعلّ المتتبّع لكلمة الحجاج في القرآن الكريم يجدها في الأغلب متبوعة بتقديم الحجج والأدلّة والبراهين ومثال ذلك في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَن ـاتِيٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِيےٖ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَآ أُحْيِيےٖ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾ (سورة البقرة ، الآية 258) ، فقد ساق إبراهيم عليه السلام الأدلّة على صحّة اعتقاده، فلما حاجَّ إبراهيم صاحبه نقل لنا القرآن الكريم هذه الصورة (فبهت الذي كفر) .

ومثاله أيضا في قوله جلّ وعلا : ﴿ **قُلَ اتُحَآجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمْۥےٖ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ** ﴾ (سورة البقرة ، الآية 139) ، أي قل يا معشر اليهود كيف تدّعون أنّ دينكم هو خير الأديان وشعبكم هو خير الشعوب، وربّنا وربّكم واحد، وإلهنا وإلهكم واحد، يختار من يشاء من الرسل ويصطفي من يشاء من خلقه، الدّين دينه، والأمر أمره ، ونحن له مخلصون وله عابدون .

ب ـ اصطلاحا :

الحجاج من الناحية الاصطلاحية لا يكاد يبتعد على تعريفه اللغوي، فهو يعتمد الحجج والبراهين من أجل الوصول إلى الإقناع الممكن، عرّفه بعضهم بأنّه "جملة من الأساليب

تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع " [1]، وهذا جلّ ما تهدف إليه الخطبة، الإقناع أو زيادة الإقناع، أو دفع المتلقّي للامتثال، وحمله على الفعل أو عدم الفعل، ومن هنا تتحدّد الغاية الأساسية للحجاج " الفعل في المتلقي على نحو يدفعه إلى العمل أو يهيئه للقيام بالعمل " [2]، ويستعمل من أجل تحقيق هدفه كلّ الوسائل المتاحة، اللغوية منها وغير اللغوية وهو أيضا لا يغفل المتلقّي، بل يعده طرفا في تحديد المعنى، وتوجيه الخطاب " فنجاح الخطاب يكمن في مدى مناسبته للسامع، ومدى قدرة التقنيات الحجاجية المستخدمة على إقناعه " [3] .

وقد عرّف صابر الحباشة الحجاج بقوله : " يعني الحجاج بمعناه العادي طريقة عرض الحجج وتقديمها ويستهدف التأثير في السامع، فيكون الخطاب بذلك ناجحا فعّالا " [4] فجمال المعنى، ودقّة المراد، ومتعة الطرح، وقدرة التأثير، لا يمكن أن تتوافر إلا بوجود القدرة على الإقناع، وإلا كان الكلام هذرا لا غاية ترجى منه، والحجاج عند القدماء مرادف للجدل وهناك من جعله قاسما مشتركا بين الجدل والخطابة (كما عند أرسطو)، وهناك من جاوز المفهومين السابقين وجعل للحجاج سلطة أعمق، ومعنى أدق، مستقلاّ عن الخطابة وعن الجدل " يرى بعضهم أنّ الحجاج في الدراسات الحجاجيّة على ضربين : ضرب أنت لا تبرح فيه حدود المنطق، فهو ضيّق المجال ومرادف للبرهنة والاستدلال، إذ هو يُعني بتتبّع الجانب الاستدلالي في المحاجّة، وضرب هو واسع المجال لانعقاد الأمر فيه على دراسة مجمل التقنيّات البيانيّة الباعثة على إذعان السّامع أو القّارئ "[5]، ويقابل الحجاج بالفرنسيّة لفظة (Argumentation) التي تشير إلى : " الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر، معارضة مصاحبة بحجج " [6] .

---

[1] ـ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 2، س 2011، ص 21،
[2] ـ المرجع نفسه، نفس الصفحة .
[3] ـ صابر لحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسة والنشر، دمشق، ط 1، س 2008، ص 21 .
[4] ـ المرجع نفسه، ص 21
[5] ـ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2، 2007، ص 8 .
[6] ـ حافظ اسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، 2010، ج3، ص 32.

4 ـ 2 ـ الحجاج عند بيرلمان :

يرى شاييم بيرلمان CH. Perlman، وتيتيكاه O. Tytéca من خلال مؤلف (مصنف في الحجاج ـ الخطابة الجديدة) أنّ العلاقة وطيدة بين الخطيب وجمهوره، وذلك من خلال التفاعل بينهما وقد أسّسا فكرهما، وبنيا معتقدهما على مخلّفات الخطابة الأرسطية واجتهدا على فصل الحجاج عن الجدل والخطابة على الرغم من العلاقة المتينة التي تربطهما فالحجاج كما عُرّف سابقا والتعريف منسوب إلى بيرلمان هو : "جملة من الأساليب، تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقّي على الاقتناع بما نعرضه عليه أو الزيادة في حجم هذا الإقناع " [1]، يفهم من هذا التعريف " أنّ الحجاج يأخذ من الجدل التَّمشِّي الفكري، الذي يقود إلى التأثير الذّهني في المتلقي وإذعانه إذعانا نظريّا مجرّدا لفحوى الخطاب ... وهو يأخذ من الخطابة توجيه السلوك أو العمل ... ولكنّه يظل مختلفا عن الخطابة والجدل من جهة كسره للثنائيّة التقليديّة وجمعه بين التأثير النظري والتأثير السلوكي العملي " [2] .

وفقا لهذا الطرح أعاد بيرلمان للخطابة هيبتها، ومكانتها المنوطة بها، وذلك من خلال إرجاعها إلى أبعادها الفلسفيّة التي حرمت منها قرونا من الزمن، فاسترجعت بذلك ملكتها الإقناعية، ورسالتها التواصلية من خلال عملية إحيائها، وإعادة بعثها، مستفيدا من الخطابة الأرسطيّة، ومن الدرس اللساني والنظريات الأدبية الحديثة " انصب اهتمامه على إحياء الخطابة بمفهومها الأصلي اليوناني، أي باعتبارها دراسة لوسائل الإقناع ويعد شاييم بيرلمان رائد هذا الاتّجاه، وقد جمع بين جدل أرسطو وخطابته، لبلورة نظريّة في الحجاج سمّاها خطابة جديدة " [3] .

إنّ ارتباط شاييم بيرلمان بالخطابة الجديدة ليس وليد الصدفة، وإنّما هو نتاج جهد دام لسنوات، وتجسّد ذلك في أعماله العديدة، بدءا من المؤلف المشترك مع تيتكا (مصنف في الحجاج ـ الخطابة الجديدة) ومؤلّفهما (الخطابة والفلسفة) وانتهاء بمؤلّفه (إمبراطورية الخطابة) هذا الأخير الذي علّق عليه الحسين بنو هاشم " إنّ كتاب الإمبراطورية الذي ألّفه

[1] ـ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 2، س 2011، ص 21 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 22 .
[3] ـ الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، س 2014، ص 8 .

تسع عشرة سنة بعد المصنف وست سنوات قبل وفاته هو عصارة نظريّته وخلاصة خلاصات أعماله، سواء السابقة لصدور المصنّف أو اللاّحقة له فكل أعماله هي إمّا روافد تصبّ فيه أو امتدادات له " [1]، وقد حاول الحسين بنو هاشم في دراسة مختصرة لكتاب (إمبراطورية الخطابة) إعطاء أهمّ المرتكزات التي أقام عليها شاييم بيرلمان نظريّاته وبنى عليها أعماله فتحدث في الفصل الثاني من كتابه (نظرية الحجاج عند بيرلمان) عن منطلقات الحجاج (الوقائع والحقائق،المظنونات، القيم، التَّراتُبيات، مواضع الأفضل) والتي ينبغي لكل خطيب أن يتّخذها منطلقا لبناء حجاجه، وقد ركّز في هذه المقدمات على العلاقة التي تربط الخطيب بمستمعه " فالهدف من الحجاج ليس تقديم الدّليل على صدق النتيجة انطلاقا من صدق المقدمات، بل الهدف هو نقل الاعتناق الحاصل حول المقدمات إلى النتائج " [2] بمعنى يجب على الخطيب أن يضع بباله مدى قبول مستمعه للمقدّمات التي ينطلق منها، وأنّ عدم هذا الاعتبار هو من أكبر الأخطاء، وربّما هنا يكمن التمايز بين الحجاج والبرهنة، فالأخيرة تعتمد على صدق المقدمات، وصولا إلى صدق النتائج، أمّا الحجاج فينطلق من الممكن المحتمل فميدان الحجاج إذن ليس الصادق الضروري ـ وهو ما يميّزه عن البرهنة ـ وإنّما الممكن المحتمل، لذا يقول جيل دكلارك : " إنّ الحجاج وهو يتّخذ من العلاقات الإنسانيّة والاجتماعيّة حقلا يبرز كأداة لغويّة وفكريّة تسمح باتخاذ قرار في ميدان يسوده النّزاع وتطغى عليه المجادلة " [3] .

كما ساهم بيرلمان في إعادة بعث البلاغة التى أصبحت لا تؤدّي وظيفتها، وصارت تعيش نوعا من الموت الإكلنيكي الذي عزلها عن مواكبة تطوّر العلوم الإنسانيّة، وذلك من خلال التركيز على آليات الإقناع، ودراسة مختلف الأساليب الإقناعية بمفهومها الأصلي اليوناني حيث جمع بين الخطابة والجدل وكسر الحاجز الذي يفصل بينهما ممّا أرجع

[1] ـ المرجع السابق، ص 28 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 41 .
[3] ـ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، ص 24 .

إلى الخطابة بعدها الحجاجي " يتمثّل هذا التجديد في إعادة البعد الفلسفي إليها، ذلك بعد الذي أنكره عليها أفلاطون وعزلها عنه أرسطو بشكل من الأشكال حين فصلها عن الجدل " [1] .

يتّضح ممّا سبق أنّ بيرلمان قام بإجراءين هامّين جدّا، أعادا الخطابة للمسار الصحيح يتمثّل الأوّل في وصلها بالجدل، وإعادتها لأبعادها الفلسفيّة، ويتمثل الثّاني في فصلها عن البرهنة وإبعادها عن العلوم التجريبيّة " إنّ هذين الإجراءين كانا حاسمين لتحديد الخطابية فقد أتاح له الإجراء الأخير تحديد مجالها وعزلها بشكل صارم عن مجال الخطاب العلمي الدقيق المتّسم بالضرورة والإلزام كما أتاح له الإجراء الأوّل أن يوسّع خطابة أرسطو ويعدّلها " [2] .

أمّا الفصل الثالث من كتاب نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان فقد تحدث صاحبه حول تقنيات الحجاج وقسّمها إلى نوعين، الحجج القائمة على الفصل، والحجج القائمة على الوصل وأدخل تحت العنوان الأوّل عدة فروع أهمّها (الحجج الشبه منطقيّة، الحجج المؤسّسة على بنية الواقع، الحجج المؤسّسة لبنية الواقع، التناسب والاستعارة ....) .

كما أنّه خصّص الفصل الرابع والأخير للحديث عن تنظيم الحجج داخل الخطاب وذلك تحت عنوانين عريضين : (سعة الحجاج وقوّة الحجج، ترتيب الحجج في الخطاب) وختم الفصل بالحديث عن عنوان المُؤَلَّف (إمبراطوريّة الخطابيّة)، وكذلك أورد رد المُؤَلِّف على الفلاسفة المنكرين للخطابة والرّافضين لها، مع بيان ما للخطابة من فضل في السموّ بمسار الإنسانيّة .

4 ـ 3 ـ الحجاج عند محمّد العمري :

ممّا لا شكّ فيه أنّ الدراسات المغربية بلغت شأوا كبيرا، وتقدّمت تقدما ملحوظا في الدّراسات الأدبيّة والبلاغيّة، مقارنة بالمشرق ومن أهم الكتّاب المعاصرين والباحثين الذين تناولوا الحجاج ونظّروا له محمّد العمري، سواء من خلال المحاضرات والمقالات المنشورة في المجلاّت، أو من خلال كتابيه (البلاغة الجديدة بين التخييل والتّداول، في بلاغة الخطاب

[1] ـ محمد اشبال، البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2014، ص 150 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 151 .

الإقناعي) ولعل الدّراسات التي ضمّنها محتوى هذين المؤلّفين تقدّم أهمّ المحطّات التي تمرّ بها البلاغة العربية الحديثة .

من خلال كتاب (في بلاغة الخطاب) يتبيّن اعتماد مؤلّفه في تحديد مفهوم الخطابة على الآراء الفلسفيّة اليونانيّة وعلى آراء أرسطو بالدّرجة الأولى، الذي فصل بين الخطابة والشعر فطبيعتهما مختلفان، تتّفقان أحيانا وتتباينان في أحيان أخر " طبيعة الشّعر الذي يهدف إلى التخييل، وطبيعة الخطابة الهادفة إلى التّصديق حسب الأحوال والاحتمال "[1]، لقد حاول محمّد العمري دراسة مختلف الأساليب البلاغيّة في عصر صدر الإسلام وفي عهد بني أميّة محاولا البحث عن الخطاب الإقناعي ـ ويقصد بذلك الحجاج ـ مستعينا في ذلك بآراء علماء البلاغة العرب وكذا آراء الباحثين البلاغيّين الغربيّين القدماء منهم والحداثيّين، ومستعينا أيضا بالإرث الأرسطي الذي يعد من الأوائل الذين اهتمّوا بالخطابة، وبعدها التأثيري في المجتمعات " وبدأ الحنين من جديد إلى ريطورية أرسطو، التي تتوسل إلى الإقناع في كل حالة على حدة بوسائل متنوّعة حسب الأحوال " [2] .

وقد تطرّق في كتابه (فنّ الإقناع) إلى الحجاج بشكل فنّي دقيق، حيث اقترح خطاطات ونماذج عمليّة، وطرائق تطبيقيّة بغية تحليل الخطبة بطريقة حجاجيّة، وقد ركزّ دراسته على أمرين : المقام وصور الحجاج [3].

أ ـ المقام : المقام يفرض نفسه على الخطيب فيختار من أنواعه ما يناسب الحال، وقد صنّفه محمد العمري إلى :

1 ـ مقامات الخطابة السياسية : وهي الخطابة التي تتعلّق بالبلاط والحكّام والوزراء والإرشاد والنصح والتخاصم والتصالح والتّهديد والوعيد ويميل هذا النوع إلى الأسلوب الوعظي .

2 ـ مقامات الخطابة الاجتماعيّة : وهي الخطابة الموجهة إلى عموم الشّعب والمحكومين وتعالج مختلف المشاكل الاجتماعية والبحث عن سبل علاجها ويميل هذا النوع إلى الموضوعيّة

[1] ـ محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي(مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية، دار الثقافة، المغرب، ط 1، 1986، ص7 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص9 .
[3] ـ المرجع نفسه بتصرف ص 58 فما فوقها .

3 ـ مقامات الخطب الوجدانية : وهي الموجّهة إلى الرّوح بالدرجة الأولى وتسيطر عليها العواطف الجيّاشة والانفعال وتعتمد أساسا على الاستمالة لأنّ الغرض منها الفعل أو الكف .

ب ـ صور الحجاج :

وقد قسّمها إلى ثلاثة محاور (القياس والمثل والخطابة القضائية)، ووضّح من خلال هذا التقسيم أهم ما يميّز كل قسم، وما هي الآليات الحجاجيّة التى فرضت هذا التقسيم والتي يمكن من خلالها الإبداع في نوع واحد مقصود .

4 ـ 4 ـ الحجاج في اللغة :

لقد ألّف ديكرو كتابا في الحجاج وهو الموسوم بـ (الحجاج في اللّغة)[1] حيث بيّن من خلاله الحجاج عند بيرلمان والذي يقوم أساسا على اللغة ودعواه في ذلك أنّ الأقوال تترابط فيما بينها على نحو دقيق بحيث يكون بعضها حجّة لبعض " أي أنّ المتكلّم إنّما يجعل قولا ما حجّة لقول آخر هو بلغة الحجاج نتيجة يروم إقناع المتلقي بها، وذلك على نحو صريح واضح أو بشكل ضمني " [2] .

لقد عارض ديكرو المسلّمات التي انطلقت منها نظريّات التواصل، فليس هدف العمليّة التواصليّة هو نقل الخبر من الباثّ إلى المستقبل، فاللّغة أكبر من تكون مهمّتها توصيل المعلومة فقط، بل تحمل في طيّاتها رسائل إنسانيّة، وعلاقات معقّدة، تفرض على أصحابها أشكالا وأنواعا من المكوّنات الخطابيّة " من هذا المنطلق يتّضح أنّ اللّغة عامّة هي إنجاز لأفعال أكثر منها وصف لحالات، كما أنّ الفعل الحجاجي عبارة عن نظام متوار في صميم الخطابات اللّغوية وقوانينها الداخليّة، وليس مجرّد بناء منطقيّ مفروض عليها " [3]، إنّ نظرية الحجاج عند ديكرو استمدّها من الإسهامات التداولية التي ميّزت أفعال الكلام اللغوية عند أوستن وسيرل وبعض أعمال بنفينست حول التلفّظ فكانت نظريّته حول الحجاج تهتمّ بالأساليب اللّغوية التي تمدّنا بدورها بالآليات الحجاجيّة فهي نظريّة لسانيّة بحتة " تهتمّ بالوسائل

[1] ـ شاركه في تأليفه جان كلود أنسكمبر .
[2] ـ الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، ص 22 .
[3] ـ جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، ط 1، س 2016، ص 123 .

والإمكانات اللغويّة التي تمدّنا بها اللغات الطبيعيّة لتحقيق بعض الأهداف والغايات الحجاجيّة " [1] .

إنّ ديكرو لا يهتمّ باللّغة الخطيّة فقط، فهي لا يمكن أن تعطينا جميع السمات اللسانيّة دون أن نضفي عليها التداوليّة، فمحتوى الملفوظات لا يحتوي جميع المقصودات والمفهومات ولا يمكن الوصول إلى هذه الأخيرة إلاّ من خلال تتبّع المكوّنات الداخليّة المبثوثة داخل الاستعمالات اللّغويّة " يجري الفصل بين مكوّن تركيبي يركّز على قواعد تركيب الجمل ومكوّن دلالي يسهر على ضبط علاقة العلامة بمرجعها ومكوّن تداولي يهتمّ بقضايا الاستعمال اللّغوي " [2].

وقد نقل جواد ختام مثالا ساقه ديكرو لجملة مقتطفة من رواية (مادام بوفاري) لفلوبير :

ـ " أنهت جون إعداد حقيبتها، واقتربت من النّافذة، لكن هطول المطر لم يتوقّف " [3]، إنّها ثلاث جمل، كلّ جملة تحمل قضيّة منفصلة :

أنهت جون إعداد حقيبتها : تستعد لسفر ، تستعد لخروج ، مقبلة على أمر ما ...

اقتربت من النافذة : تترقب حضور شخص ، تريد مشاهدة أمر ما ...

لكن هطول المطر لم يتوقف : هنا رفع الإشكال وزال اللبس فجون كانت تريد النزول أو السفر ولكن المطر منعها من ذلك .

فلابد من وجود رابط يجمع شمل هذه الأحكام المنفصلة ، ويوضح مبهمها، ويقارب بين هذا التعارض الحجاجي، فكلمة (لكن) كانت الرابط لما قبلها وما بعدها، أنهت جون إعداد حقيبتها، ثمّ تأتي الجملة الثانية التي تصف الحالة النفسيّة لجان اقتربت من النافذة، ثمّ جاءت الجملة بعد (لكن) لتؤكد هذه الحالة، فمفهوم الجملة يكون كالآتي :

[1] ـ عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، لبنان، ط 1، س 2013، ص 95 .
[2] جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، ص 132 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 135 .

ـ " تأمل جان توقف هطول المطر، لكن ذلك لم يحدث " [1].

إنّ الدمج بين البعد الدلالي والبعد التداولي أعطى اللّغة وظيفة أخرى إضافة لعمليّة الإبلاغ فهي تملك قوّات إنجازيّة تتجاوز العبارة، وتفرضها الحاجات والمقصديّات " معنى أيّ ملفوظ وحتّى في الحالة التي نقدّم فيها للكلمة مفهومها الأكثر ضيقا ـ أي أكثر نحوية ـ لا يمكن أن يوصف دون استحضار مقصديّات معيّنة لتلفّظه " [2] .

لقد وضع ديكرو شكلا يوضح فيه كيفية دراسة المضمون جاء رسمه كالآتي [3] :

الملفوظ (م)

⇩

التركيب

⇩

الوصف التركيبي لـ م

⇩

الدلالة

⇩

المحتوى الخبري لـ م

⇩

التداولية

⇩

القيمة الإنجازية للملفوظ

[1] ـ المرجع السابق الصفحة .
[2] ـ عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، ص 96 .
[3] ـ المرجع السابق، ص 132 .

4 ـ 5 ـ السلّم الحجاجي :

عندما نهدف الوصول إلى نتيجة معيّنة من خلال كلامنا، وإقناع المتلقّي بها فإنّنا نحتاج إلى وضع عدّة حجج، تترتب فيما بينها في سياق خاص يجمعها تحت ما يعرف بالفئة الحجاجيّة، والتي بدورها تخدم هذه النتيجة، هذا الترتيب وهذا التفاوت في مراتب الحجج هو ما يعرف بالسلّم الحجاجي، " يتمثّل فعل الحجاج في تدافع الحجج وترتّبها حسب قوّتها، إذ لا يثبت غالبا إلا الحجّة التي تفرض ذاتها على أنّها أقوى الحجج في السياق ولذلك يرتّب المرسل الحجج التي يرى أنّها تتمتّع بالقوّة اللازمة التي تدعم دعواه " [1]، ومثال ذلك النصّ الآتي :

(تحصّل زيد على شهادة التعليم الابتدائي من مدرسة الحي، ثم كان من الأوائل في شهادة التعليم المتوسط، ونال شهادة الباكالوريا بتقدير جيد، ثم التحق بجامعة الجزائر التي تخرج منها بشهادة الدكتوراه).

فهذه الحجج تخدم نتيجة واحدة وهي إثبات الكفاءة العلميّة لزيد، تتفاوت فيما بينها في القوّة، فنيله شهادة التعليم المتوسّط أقوى حجّة من نيله شهادة التعليم الابتدائي، ونيله شهادة الباكالوريا أقوى من حجة نيله شهادة التعليم المتوسّط، ويبقى نيله لشهادة الدكتوراه في المرتبة العليا الدالة على كفاءته العلمية، ويمكن أن نتخيّل السلّم الحجاجي على النحو الآتي :

[1] ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديد، لبنان، ط 1، س 2004، ص 499 ـ 500

ومثال ذلك أيضا قصّة ساقها الأبشيهي صاحب المستطرف على لسان خاقان بن صبيح جاء فيها : " دخلت على رجل من أهل خراسان ليلا فأتانا بمسرجة فيها فتيلة في غاية الرقّة وقد علّق فيها عودا بخيط فقلت له ما بال هذا العود مربوطا، قال قد شرب الدهن وإذا ضاع ولم نحفظه احتجنا إلى غيره فلا نجد إلا عودا عطشانا، ونخشى أن يشرب الدّهن قال فبينما أنا أتعجّب وأسأل الله العافية، دخل علينا شيخ من أهل مرو، فنظر إلى العود فقال للرجل : يا فلان لقد فررت من شيء، ووقعت فيما هو شرّ منه، أما علمت أنّ الريح والشمس يأخذان من سائر الأشياء، وينشفان هذا العود، لم لا اتخذت مكان هذا العود إبرة من حديد فإنّ الحديد أملس، ومع ذلك فهو غير نشّاف، والعود أيضا بما يتعلق به من شعرة من قطن الفتيلة فينقصها، فقال له الرجل الخراساني : أرشدك الله، ونفع بك، فلقد كنت في ذلك من المسرفين " [1] .

فالكاتب أراد أن يعلل على البخل الكامن في أهل مرو فبدأ بقصة الخراساني وجعلها في أدنى السلّم الحجاجي، وقد ساق ذلك بطريقة توحي إلى مدى بخل الشيخ الخراساني، ثمّ جاء بقصة الشيخ المروي ووضع نصيحته للخراساني في أعلى السلم الحجاجي الدّالة على بخل أهل مرو وتفنّنهم في ذلك، وكأنّه يقول إذا كان بخل الخراساني عجيبا فالأعجب منه بخل الشيخ المروي .

كما يصدق ذلك في النفي أيضا ومثاله قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (1) اللَّهُ الصَّمَدُ (2) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (3) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ﴾ (سورة الصمد) ، فهذه السورة تتحدّث عن توحيد الله عزّ وجل وقد قدّم سبحانه وتعالى الحجج البيّنة والأدلّة الواضحة التي تشهد على وحدانيّته فبدأها بقوله لم يلد ووضع ذلك في أدنى السلّم الحجاجي .

لقد عرّف عبد الهادي بن ظاهر الشهري السلّم الحجاجي في موضع آخر فقال : " عبارة عن مجموعة غير فارغة من الأقوال مزوّدة بعلاقة ترتيبيّة وموفية بالشّرطين التاليين :

ـ كلّ قول يقع في مرتبة ما من السلّم يلزم عنه ما يقع تحته، بحيث تلزم عن القول الموجود في الطرف الأعلى جميع الأقوال التي دونه .

[1] ـ شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ص 251 .

ـ كلّ قول كان في السلّم دليلا على مدلول معيّن، كان ما يعلوه دليلا أقوى عليه " [1].

فعندما أقول مثلا : زيد تحصّل على شهادة الليسانس، وكان من الأوائل، ثمّ نال شهادة الماجستير، وتوجّ مجهوده العلمي بشهادة الدكتوراه، كل هذه حجج نثبت من خلالها الكفاءة العلمية لزيد، فشهادة الماجستير يلزم ما تحتها وهي شهادة الليسانس، وهذا تدرج علمي منطقي، كما أنّ شهادة الدكتوراه تكون أقوى دليلا من شهادة الماجستير .

للسلّم الحجاجي ثلاثة قوانين : (قانون الخفض، قانون تبديل السلّم، قانون القلب) [2] .

ـ **قانون الخفض** : ومقتضاه : " إذا صدق القول في مراتب معيّنة من السلّم فإنّ نقيضه يصدق في المراتب التي تقع تحتها " [3]، ويوضح هذا القانون الفكرة التي ترى أنّ النّفي اللّغوي الوصفي يكون مساويا للعبارة : (moins que) ومثاله عندما نستعمل جملا من قبيل :

ـ الحليب ليس باردا

ـ لم أجد في المحفظة كثيرا من المال

ففي المثال الأول وضعنا الحليب في درجة معينة من السلّم الحجاجي الحراري فالحليب إمّا أن يكون باردا جدا أو باردا أو فاترا أو ساخنا أو ساخنا جدا ... غير أنّنا استبعدنا أن يكون باردا أو باردا جدا، فنفي البرودة وضع حالة الحليب في درجة معيّنة من السلّم الحجاجي ويمكن صياغة الجملة بطريقة أخرى :

ـ إذا لم يكن الحليب باردا فهو فاتر أو ساخن أو ساخن جدا .

وفي المثال الثّاني استبعدنا وجود المال الكثير في المحفظة ويمكن تأويل الجملة بطريقة أخرى

ـ لم أجد في المحفظة إلاّ قليلا من المال

[1] ـ عبد الهادي بن ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 500 .
[2] ـ ينظر المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[3] ـ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط 1، 1998، ص 277 .

والملاحظ هنا أنّ الخفض الناتج عن النفي لا يتموقع في سلّم حجاجي واحد، بمعنى لا تندرج الأقوال المثبتة مثل (الحليب بارد) والأقوال المنفية (الحليب ليس باردا) تحت فئة حجاجية واحدة، أو سلّم حجاجي واحد، ولذلك قال عبد الهادي الشهري : " يختار المرسل حججه التي تنتسب إلى سلّم واحد، بما يضمن له التدليل على قصده، وعدم تناقضها، بل وليؤكد ما هو مضمر في درجات السلّم لمدلول واحد " [1] ، فالحجج قد تكون ظاهرة مكتوبة أو مسموعة، وقد تكون مضمرة تفهم من سياق الكلام، كما هو الحال في المثالين السابقين .

ـ **قانون تبديل السلّم** : ومفاده : " إذا كان القول دليلا على مدلول معين فإنّ نقيض هذا القول دليل على نقيض مدلوله " [2] وهذا ما يقتضيه المنطق والفطرة السليمة، فإذا كانت الحجة أقيمت من أجل غاية معيّنة، ومدلول واضح، فإن نقيضها يؤدي إلى نقيض ما وضعت له، وبنيت من أجله ومثاله :

ـ زيد طالب مجتهد فقد نال شهادة البكالوريا بنتيجة جيدة .

فقد وضعنا نجاح زيد في شهادة البكالوريا دليلا على اجتهاده، فإذا نقضنا هذا الدليل أدى ذلك إلى نقض مدلوله، وإلا لما استقام الكلام ولما انسجم، فلا يمكن أن نقول :

ـ زيد طالب مجتهد، فهو لم ينل شهادة البكالوريا .

وإنّما الصحيح أن نقول :

ـ زيد ليس طالبا مجتهدا، فهو لم ينل شهادة البكالوريا : حيث أدّى نقض الدليل إلى نقض مدلوله .

ـ **قانون القلب** : ومقتضى هذا القانون : " إذا كان أحد القولين أقوى من الآخر في التدليل على مدلول معيّن فإنّ نقيض الثّاني أقوى من نقيض الأوّل في التدليل على نقيض المدلول " [3]

ومثاله ما سقته سابقا في التدليل على الكفاءة العلمية لزيد :

---

[1] ـ عبد الهادي الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 502 .
[2] ـ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان، ص 278 .
[3] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

ـ تحصّل زيد على شهادة التعليم الابتدائي من مدرسة الحي، ثمّ كان من الأوائل في شهادة التعليم المتوسّط، ونال شهادة الباكالوريا بتقدير جيّد، ثمّ التحق بجامعة الجزائر التي تخرّج منها بشهادة الدكتوراه .

ويمكن ترتيب هذه الحجج على النحو الآتي :

زيد طالب مجتهد فقد :

ـ نال شهادة التعليم الابتدائي

ـ نال شهادة التعليم المتوسط

ـ نال شهادة البكالوريا

ـ نال شهادة الليسانس

ـ نال شهادة الماجستير

ـ نال شهادة الدكتوراه

فوضعنا شهادة الدكتوراه في أعلى السلم الحجاجي، وهى أكبر دليل على الكفاءة العلمية لزيد، ولكن قوة النفي تترتب ترتيبا عكسيا، إذ أن نفي ما يقع في أدنى السلم يكون أقوى لنفي مدلول الخطاب، فإذا نفينا عن زيد نيل شهادة البكالوريا فإنّ ذلك يؤدي إلى نفي ما فوقها من الشهادات والذي يؤدي بدوره إلى نفي الكفاءة العلمية، لأنّ هذه الشهادات تترتب ترتيبا منطقيا كما تقتضيه مراحل التدرّج في التعليم، مع أنّ العكس لا يصح، فنيل زيد لشهادة الدكتوراه دليل على نيله لشهادة الماجستير، ولكن عدم نيله لشهادة الدكتوراه ليس دليلا لعدم نيله شهادة الماجستير .

ومن هذا المنطلق أذا أردنا أن ندلّل على عدم كفاءة زيد (نقيض المدلول) يكون عدم نيله لشهادة البكالوريا (نقيض الدليل) أقوى دليلا من عدم نيله شهادة الدكتوراه .

الفصل الثاني : الآليات اللّغوية للحجاج في خطب البشير الإبراهيمي

- أسلوب التعليل
- الوصف
- الصفة المشبة
- تحصيل الحاصل

تختلف المستويات اللّغويّة بين المرسل والمرسل إليه، وحتّى يؤدي الكلام رسالته التواصلية ينبغي للمرسل أن يراعي المستوى التكويني للمرسل إليه، من أجل أن يخاطبه بلغة سليمة سواء على مستوى منطوقها أو مفهومها، ومن أجل تحقيق هذه الغاية كان لزاما عليه أن يستعمل مختلف الأدوات اللّغوية، هذه الأدوات التي لا تعدّ حججا بحدّ ذاتها، وإنّما تكمن حجّيّتها في القيمة التي تؤديها أثناء ربطها الحجج بالنتائج، وسأتحدث في هذا الفصل عن أهمّ هذه الأدوات التي يشتهر استعمالها في مختلف النصوص :

1 ـ أسلوب التعليل : يعد أسلوب التعليل من أهم الأساليب الحجاجية، وذلك لأنّه يربط النّتاج بالمقدّمات بطريقة مباشرة، وقبل الخوض في أدوات التعليل لا بأس أن أتحدث عن العلّة حتّى يُعلم معنى التّعليل، ومكانته الحجاجيّة، وقدرته الإقناعيّة، وكيفية استعمال أدواته عند ربط الحكم بالنّتيجة .

1 . 1 ـ العلّة :

تعريفها:

أ ـ لغة :

جاء في معجم اللغة العربية المعاصر : عَلَّلَ موقفه فَسَّره وأثبته بالدّليل والبُرهان بيان الأسباب الموجبة للحكم ..... ما يستدلّ به من العِلَّةِ على المعلول أو استدلال على المسبَّب بالسَّبب " قام وزير الاقتصاد بتعليل الأزمة الاقتصاديَّة، تعليلٌ غيرُ مُقنِع " [1] ـ هكذا وردت في المرجع ـ .

والتَّعْليلُ عند أَهل المناظـــرة : " تبيين علَّـة الشّـيء، والتَّعْليـلُ ما يُســـتدلّ به من العلَّة على المعلول، ويسمَّى برهانًا لِمِّيًّا " [2]، أي يقع جوابا للسؤال : لِمَ، ومثاله : عند سؤالك لشخص ما : لِمَ حملت هذا الكتاب فيكون جوابه : لأقرأه، فالجملة (لأقرأه) وقعت جوابا عن السؤال : (لِمَ) فيكون هذا الجواب علّة تبيّن سبب حمل الكتاب وهو القراءة

[1] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب القاهرة، ط 1، س 2008، م 1، ص 1540 .
[2] ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط 4، س 2008، ص 623 .

" والعلّة : يَحِلُ بالمَحَل فيتغيّر حَالُ المَحَل " [1]، وهو تقريبا التعريف نفسه الذي أورده أبو البقاء الكفوي صاحب الكلّيّات في كتابه : " العلّة لغة : عبارة عن معنى يحلّ بالمحلّ فيتغيّر به حال المحلّ " [2]، ومنه سمي المرض عِلَّةً، لأنّ الجسم ينتقل من حالة إلى حالة، من حالة القوّة إلى حالة الضّعف، ومن حالة السّلامة إلى حالة العطب، ومن حالة الصّحة إلى حالة السّقم .

وجاء في القاموس المحيط : "علَّلَه بطعام وغيّره شغله به ... وهذه عِلّتُه : سَبَبُه ومنه (لا تَعْدَمُ خَرْقَاءٌ عِلَّةً) يقال لكل مُعْتَذِرٍ مُقْتَدِرٍ" [3] .

والظّاهر أنّ العلّة ممّا سبق ـ حملا على المعنى المراد ـ هي السبب أو الحجّة والمبرّر أو هي نقل الذهن من حالة إلى أخرى، فلا تقدم الحجّة إلا لنقل المستمع من حالة الإنكار إلى حالة الإذعان، ومن حالة الشكّ إلى حالة اليقين، والتّعليل هو تقديم الحجج والبراهين على صحّة المقول، " العلّة والمعلول : كل وصف حل بمحل وتغيّر به حاله معا، فهو علّة وصار المحل معلولا، كالجرح مع المجروح وغير ذلك " [4].

ب ـ اصطلاحا :

ـ عند الفلاسفة :

العلّة عند الفلاسفة هي : " كلّ ما يصدر عنه أمر آخر بالاستقلال، أو بوساطة انضمام غيره إليه فهو علّة لذلك الأمر، معلول له، وهي علّة فاعلية، أو مادّية أو صوريـــّة أو غائيّة ومن كل شيء سببه " [5]، وجاء في كتاب الكليات : " العلّة : ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجا مؤثرا فيه " [6]، فعلّة غليان الماء مثلا هو درجة الحرارة المرتفعة، وعلّة تجمّده هو درجة الحرارة المنخفضة .

فالعلّة عندهم هي التفكير المجرّد، وربط الأسباب بالمسبّبات، وهي ما تميّز الإنسان عن سائر الكائنات، فالفلاسفة أعطوا للعقل الحرّية المطلقة، فلابد لكل ظاهرة من تفسير عقلي، وربط الأشياء والظواهر بعضها ببعض وفق مبدأ السببيّة والتعليل .

---

[1] ـ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، لبنان، بدون ط، س 1958، م 4، ص 193 .
[2] ـ أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط 2، س 1998، ص 620 .
[3] ـ مجد الدين الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط 8، س 2005، ص 2005 .
[4] ـ أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص 599 .
[5] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[6] ـ علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ص 130 .

ـ عند العروضيين :

العلّة عند العروضيين تتعلّق بالشِّعر وما يطرأ على تفعيلاته من تغيير : " العلّة تغيير لا يلحق ثواني الأسباب فقط، بل يلحق الأوتاد والأسبـــاب، أو كليهما ومن شأنه إذا عرض لـــزم، والمراد باللـــزوم : أنّ العلـة إذا عرضت العروض مثلا لزمت جميع أعاريض أبيات القصيدة " [1]، والأوتاد عبارة عن مقاطع صوتية تتكون من ثلاثة أحرف أو حركة ثلاثة أحرف وعلى حساب هذه الحركات يكون نوع الوتد : (مجموع //0، مفروق /0/) أما الأسباب فهي مقاطع صوتية تتألف من حركتين لحرفين وعلى حساب هذه الحركة يكون نوع السبب : (خفيف /0، ثقيل //) وهذه الحركات تستعمل في تشطير بيت الشعر لتحديد البحر الذي ينتمي إليه .

فالعلّة عند العروضيين هو التغيير الذي يلحق الأسباب والأوتاد سواء بالزيادة أو النقصان كزيادة (تن) مثلا على متفاعلن فتصبح متفاعلاتن، أو إسقاط السبب من آخر التفعيلة كـ : (مفاعيلن تصبح مفاعي)، وجاء في كتـــاب الكليّـــــات : " التغيير اللاّحق بالأسباب والأوتاد في الأعاريض والضروب خاصّة، لازما لها " [2]، بمعنى أنّ العلّة لازمة إذا عرضت يجب أن تكون في جميع أبيات القصيدة، حفاظا على الوزن والإيقاع وموسيقى الشعر .

ـ عند المُحَدّثين :

العلّة عند علماء الحديث تطلق على الخطأ الخفيّ، الذي يكون في الحديث سواء كان في المتن أو السّند، ولا يتفطّن له إلا الراسخون في هذا العلم، خاصّة إذا كان الراوي ثقة ويسمى الحديث معلولا، مع تحفّظ المتأخرين من علماء الحديث على هذه التسمية فالعلّة : " سبب خفي غامض يطرأ على الحديث فيقدح في صحّته " [3] ونقل حمزة عبد الله تعريفا آخر للعلّة لا يعدو أن يكون تفسيرا للأوّل وتوضيحا لمجمله : " العلّة سبب غامض يدلّ على وهم الرّاوي، سواء أكان الرّاوي ثقة أم ضعيفا، سواء أكان الوهم يتعلّق بالإسناد، أو فيما يتعلق بالمتن " [4]، فمعرفة علل الحديث علم شائق رائق، من أدقّ أبواب علوم الحديث، وأكثرها طرافة، ولا يتقنه إلا كل مدقق محقّق، قد أشرب الحديث، وفقه اللغة، وأبصر المقاصد يعـرف من خلال خبرته الصحيح

---

[1]ـ موسى الأحمدي نويوات، المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، دار البصائر، الجزائر، ط خ، س 2009، ص 33 .
[2]ـ أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص 624 .
[3]ـ نذير حمادو، تيسير مصطلح الحديث، بدون ط، ج 1، ص 182 .
[4]ـ حمزة عبد الله، الحديث المعلول، دار بن حزم، لبنان، ط 1، س 1996، ص 10 .

من السقيـــم، والضعيف من السليـــــم " ولذا لم يتصدر للكلام فيه إلا أفذاذ الرجال وجهابذة السنّة وأطبّاء الحديث " [1]، وليس لهذا العلم قواعد يعرف بها ولا ضوابط يستند إليها، قال الحاكم : " الحجّة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير " [2]، حتّى قال أبو زرعة :(أشهد أنّ هذا العلم إلهام) [3] .

ـ عند الأصوليّين :

العلّة عند الأصوليين ترتبط عادة بالقياس، فهي ركنه الأهمّ فلا يقاس الحكم على الحكم إلا إذا اتضحت علّته، وتجلّت حكمته، فإذا كان تعليل تحريم الخمر الإسكار حكم على كل مسكر بالتّحريم، قياسا على تحريم الخمر، ولذا عرف علماء الأصول العلّة بقولهم :

" ما شرع الحكم عنده تحصيلا للمصلحة المعرّفة للحكم بأن جعلت علما على الحكم، أو أنّها المعنى الذي كان الحكم على ما كان عليه لأجلها " [4]، ومن مرادفاتها عند الأصوليين : (المناط السبب، المقتضى، الدّليل، الأمارة، الحامل، الباعث، الدّاعي، المستدعي) [5]، وقالوا أيضا في تعريفها : " كلّ ما اتّخذ سببا للحكم في الأصل، واعتبرها البعض وصفا ظاهرا مناسبا للحكم كالإسكار بالنسبة للخمر ... والعلّة منضبطة لا تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والبيئات " [6]، فالأصوليون بنوا أحكامهم من خلال الاستقراء الدائم لنصوص الشرع فجعلوا لأحكام الشارع عللا تزول بزوالها وتنتفي بانتفائها، وجعلوا لهذه العلل أوصافا وشرطوا لها شروطا حتّى يستنير بها الفقهاء عند وضعهم للأحكام التفصيلية .

وهناك من الأصوليين ما جعلها مرادفة للسبب، والسّبب هو الحبل أوّل كلّ شيء يتوصّل به إلى غيره قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ** ﴾ (سورة الحج، أية 15) ، " قال بن عبّاس فليمدد بسبب أي بحبل ... قال عبد الرحمن بن أسلم فليمدد بسبب إلى السماء أي ليتوصل إلى بلوغ السماء " [7]، والسبب كما هو معروف عندهم ما يلزم بوجوده الوجود، وبعدمه

---

[1]ـ محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، دار الكتاب العربي، لبنان، س 1984، ص 487 .
[2]ـ المرجع نفسه، ص 217 .
[3]ـ المرجع نفسه، ص 184 .
[4]ـ محمد محدة، مختصر أصول الفقه الإسلامي، دار الشهاب، بد ط، ص 178 .
[5]ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[6]ـ رفيق العجم، الأصول الإسلامية، دار القلم، لبنان، ط 1، س 1983، ص 217 .
[7]ـ ابن كثير، تفسير القرآن الكريم، م 4، ص 621 .

عدم الوجود كجعل دخول الوقت سببا لوجوب الصلاة، ومن ثمّ انعدامه يعني انعدام وجوب الصلاة .

ـ عند النّحويّين :

نظر النّحويّون إلى العلّة من خلال الوظيفة النّحوية لكل كلمة : " يراد بالعلّة النحوية تفسير الظاهرة اللّغوية، والنفوذ إلى ما وراءها، وشرح الأسباب التي جعلتها على ما هي عليه " [1]، فكلّ لفظة وكلّ كلمة لها علّة جعلتها في مقام معيّن من السياق ، " العلّة هي السبب الذي يوجب الحكم للفظ ما، فيندرج ضمن شبيهه لتحصيل القاعدة " [2]، فكلّ تغيير في تركيب الكلمة أو في حركة آخرها يحتاج إلى تعليل، بل إنّ الحركة بحد ذاتها تحتاج إلى تعليل وتظهر هذه المزيّة بصورة أوضح في اللّغة العربية لما لها من مكانة وقدسية، فأغلب قواعدها قياسيّة على ما جاء في كلام العرب وسمتهم ممّا يوحي إلى قدمها، وإلى خصوصيّة منشئها ومصدرها .

هذه العلل ربما جاءت نتاج تساؤلات تطرأ على العقل البشري فعند قولنا (ضرب سعيدٌ عمرًا) جملة مكونة من فعل وفاعل ومفعول به فكيف نفرق بين أجزاء الجملة وما الذي جعل الفاعل يأخذ خاصّية الرّفع والمفعول به خاصّية النصب .... وهكذا نشأ علم علل النّحو وكثرت فيه المؤلّفات كـ : العلل في النّحو لقطرب (206هـ)، علل النّحو لابن كيسان (320هـ) الإيضاح في علل النّحو للزجّاجي (337 هـ)، علل النحو لابن الورّاق (381 هـ)، اللباب في علل البناء والإعراب للعكبري (616 هـ) ... وغيرها .

والعلّة هي أحد أطراف القياس، أو الجامع بين المقيس عليه والمقيس " هي السّبب الذي تحقّق في المقيس عليه فأوجب له حكما، وتحقّق في المقيس أيضا فألحق به فأخذ حكمه " [3]، على اعتبار أنّ المقيس عليه هو الأصل، والعلّة فيه أظهر وأبين، وأقرب إليه وألصق، أو أنّ الحكم أو الوصف عرف به المقيس عليه بداية ثمّ ظهر في غيره فألحق به " والعلّة أنواع ثلاثة : العلة التعليميّة، والعلة القياسيّة، والعلة الجدليّة النظريّة " [4] .

---

[1]ـ محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، الناشر الأطلسي، الرباط، المغرب، ط 2، س 1983، ص 108 .
[2] ـ محمد خان، أصول النحو العربي، مخبر اللسانيات واللغة العربية، الجزائر، س 2012، ص 99 .
[3]ـ علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، ط1 ، س 2006، ص 107 .
[4]ـ المرجع السابق، ص 108 .

وقد بيّن صاحب أصول النحو العربي [1] الفرق بين هذه الأنواع الثلاثة معتبرا النّوع الأوّل هو الدراسة الوصفيّة لظواهر اللّغة، كتعليل الفاعل بأنّه فاعل لأنّه مرفوع، والمفعول به أنّه مفعول به لأنّه منصوب، فإذا تدرّج الإنسان في تفكيره جعله يتساءل لماذا رُفع الفاعل ونُصب المفعول به، علّل ذلك للتمييز بينهما، وهذه هي العلّة القياسيّة، فإذا تعمّق أكثر تساءل لماذا رفعنا الفاعل ونصبنا المفعول به ولم يكن العكس ؟ علّل ذلك بكثرة المفعول به قياسا بالفّاعل والرّفع أثقل من النّصب، ومن عادة العرب الهروب إلى التّخفيف، فناسب التّثقيل (الرّفع) الفاعل لقلّته، وناسب التخفيف (النّصب) المفعول به لكثرته، وهذه هي العلّة الجدليّة أو النظريّة .

وهناك تقسيم آخر نجده في كتب القدماء، " فالزجّاجي يقسّمها إلى تعليميّة وقياسيّة وجدليّة، ويقسّمها الرمّاني إلى علّة قياسيّة وحكميّة وضروريّة وصحيحة وفاسدة، ونجد عند السّيوطي العلة البسيطة والمركّبة " [2].

الجمع بين الأقوال :

يتقارب مفهوم العلة عند الأصناف التي ذكرناها فلا تكاد تخرج في غالبها عن مفهومين :

الأوّل : أنّ العلة هي السبب أو ما يتوصل به إلى بلوغ شيء ما .

الثّاني : تغيير المحل بحلول شيء عليه، ولعلّ الأمر الثّاني تكاد تتلاقي فيه جميع التعريفات السابقة فالعلّة التي تعني المرض هو تغيّر حال الجسم من الصّحة إلى السّقم، والعلّة عند العروضيين تغيّر التفعيلة من حالة إلى أخرى، والعلّة عند الأصوليين هو تغيّر من حالة الجهل بالحكم إلى العلم به قياسا على حكم سابق، وهي نفسها عند النّحويين، وهي قريبة أيضا من تعريف المحدّثين لانتقال الحديث من حال الصحّة إلى غيرها.

فالغرض من العلّة والتّعليل هو نقل الذهن من حالة إلى أخرى، من الشكّ إلى اليقين ومن التردّد إلى الثبات ومن الإنكار إلى الاعتراف ... وهكذا، إذًا فالتّعليل : " أن يريد المتكلّم ذكر حكم واقع أو متوقّع، فيقدّم قبل ذكره علّة وقوعه لكون رتبة العلّة متقدّمة على المعلول" [3]، كقوله تعالى :﴿ **لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (سورة الأنفال، آية 68) ، فعلّل عدم وقوع الحساب بكتاب سبق من الله، حيث قدّم العلّة على المعلول وهذا

[1] ـ ينظر كتاب أصول النحو العربي لصاحبه محمد خير الحلواني ص 109 .
[2] ـ محمد خان، أصول النحو العربي، ص 110 .
[3] ـ أبو البقاء الكفوي، الكلّيات، ص 294 .

كلام رائق جميل، لأنّ الأصل في التّعليل هو ترسيخ المعلول وإثباته، أي أنّه ثابت عند المعلّل بداية وما ساق الأدلة وجمع البراهين إلا محاولة منه لإثبات ما هو ثابت عنده أصلا، وإلى هذا يشير صاحب الكلّيّات : " التعليل إقرار ثبوت المؤثّر لإثبات الأثر " [1].

والتّعليل قد يكون بالحرف كاللام والباء والكاف وغيرها، وقد يكون بالاسم كأسماء الإشارة والمصدر الصريح والمصدر المؤوّل، وقد يكون بوسائل أخرى كالتكرار والسياق وجملة الشرط وغيرها، وهي أبواب مبثوثة في أجزاء هذا البحث .

1 . 2 ـ التعليل باللام :

أ ـ لام التّعليل : فلا شك أن البداية باللاّم يفرض نفسه، إذ أنّ لها القسم الأكبر والحظّ الأوفر من الذكر، تتعدد أنواعها، ويتقارب مفهومها وأداؤها، فهناك لام التعليل، ولام الجحود، ولام الصيرورة ... وغيرها .

حرف اللاّم هو الحرف الثالث والعشرون في الترتيب الألفبائي، والثّاني عشر في الترتيب الأبجدي، يخرج من اللّسان : " من أدنى حافة اللّسان بعد مخرج الضّاد إلى منتهى طرفه مع ما يحاذيها من لثّة الضاحك والنّاب والرباعيّة والثنيّة، سواء من الحافتين أو من إحداهما " [2]، ويخرج حرف اللام عند علماء الأصوات الحداثيّين " ما بين الثنايا العليا مع مقدمة اللثة " [3]، أي يخرج مع (التاء والدال والضاد والطاء والنون)، وهو ينتمي إلى الحروف الصامتة، من صفاته التّي يشترك فيها مع بعض الحروف (الجهر والانفتاح والاستفال والإذلاق)، كما خصّ حرف اللام بصفة وهي (الانحراف)، " لأنّ الهواء عند نطقه ينحرف إلى أحد جانبي اللّسان، أو إلى كليهما " [4]، وللزجّاجي مؤلّف ظريف خصّه للحديث عن اللاّم ومواقعها في حديث العرب وقسّمها إلى واحد وثلاثين لامًا تحت قسمين كبيرين (الأصلية، وغير الأصلية) [5] .

---

[1]ـ أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص 294 .
[2]ـ عز الدين كيحل، النّصيحة لكتاب الله، الجزائر، ط 1، س 2002، ص 49 .
[3]ـ المرجع نفسه، ص 53 .
[4]ـ المرجع السابق، ص 62 .
[5]ـ ينظر كتاب اللامات للزجاجي ص : 31 .

وهناك تقسيم آخر للاّم اعتمادا على وظيفتها في الكلام أو في بنية الكلمة : عاملة وغير عاملة " وجميع أقسامها ترجع عند التّحقيق إلى قسمين : عاملة وغير عاملة " [1]، أمّا غير العاملة فليس للتعليل بها علاقة، وليس لها إليه سبيل، وهو خارج عن موضوع الدراسة، وأمّا العاملة فهي على ثلاثة أقسام : الجارة والجازمة والنّاصبة، والقسم الثّالث هو عند الكوفيين فقط، أمّا البصريّون فالنّصب عندهم بأن مضمرة بعد اللاّم، وهي جارة وليست ناصبة، " ويرى الكوفيّون للاّم العاملة قسما ثالثا هي النّاصبة للفعل، بخلاف البصريّين فهي عندهم لام جر، والنّاصب للفعل (أن) مضمرة بعدها "[2] .

لام التّعليل : أو لام كي عند الزجّاجي وغيره، وهي اللاّم التي يكون ما بعدها سببا لما قبلها " وهي التي يصلح موضعها (من أجل) "[3]، أي نستطيع تغيير اللاّم بـ من أجل دون أن يتغيّر معنى الجملة، " لام كي وتسمى لام التّعليل : اللام الجارّة التي يكون ما بعدها علّة لما قبلها وسببا له فيكون ما قبلها مقصودا لحصول ما بعدها "[4]، كقولنا مثلا : ذاكر دروسك لتنجح في الامتحان، فلام لتنجح هي لام التّعليل يصلح أن نضع مكانها (من أجل) على قول الزركشي، أو (لكي) على قول الزجّاجي، ويكون الفعل (تنجح) منصوبا بلام التعليل عند الكوفيين، وبأن مضمرة بعد اللام عند البصريين، كما أنّ النجاح في الامتحان سببه مذاكرة الدروس، ويكون مذاكرة الدروس مقصودا من أجل النجاح .

ب ـ لام التعليل عند البشير الابراهيمي : يعد الشيخ الإبراهيمي أفصح أهل زمانه، ألقت إليه اللّغة زمامها، وناولته الفصاحة خطامها، واستعادت به البلاغة أيّامها، جمع بين الخطابة والكتابة، حتّى عرف فضله، وكبر عند الناس قدره، حجّته قويّة، وأدلته واضحة جليّة، ولا شك أنّه من أراد الإقناع استعان بما في اللغة من آليات متنوّعة، وأساليب مختلفة ولا شكّ أيضا أنّ من أهم هذه الأساليب أسلوب التّعليل :

---

[1]ـ يونس الجنابي، أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن العظيم، دار المدار الاسلامي،لبنان، ط 1، س 2004، ص 49 .
[2]ـ المرجع نفسه، ص 50 .
[3]ـ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، دار التراث، مصر، ج 4، ص 340 .
[4] ـ مصطفى غلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، لبنان، ط 1، س 1993، ج 2، ص 173 .

جاء في مقالة تحت عنوان (عرض الحالة العلمية)، وهي محاضرة علمية ألقاها الشيخ في اجتماع عام لجمعية العلماء عرض فيها الحالة العلمية للجمعية : " ويلقي كل أعضائها العاملين محاضرات ليتمرنوا على الخطابة في مواضيع الدعوة " [1]، هذه المحاضرات كان الشيخ يأمل أن تلقى بشكل دوريّ سنويّ، ولذا سمّاها بعكاظ السنويّ يجتمع الدعاة والعاملون وعلماء الجمعيّة من كلّ سنة أسبوعا في الجزائر العاصمة بغية التّدريب على إلقاء الدّروس وخطب الإرشاد والوعظ، وجاءت لام التّعليل ليتمرّنوا موضّحة أنّ السبب الرئيس لهذا الحفل هو التدريب على كيفيّة التبليغ، فالمجال الدّعوي والإرشادي الذي كانت تتبناه الجمعية من أهم طرائقه، وأسمى وسائله، الخطب على المنابر، ومجالس التعليم في المدارس والمساجد، وكان هذا التمرين يفرض على كل الأعضاء العاملين والناشطين في مكاتب الجمعيّة، كما أنّ الشيخ كان حريصا على أن يشمل هذا التدريب الجميع دون استثناء، لأنّ هذه النّخبة هي النجاح العملي لنشاط الجمعيّة، الأنظار إليهم موجّهة، والآمال بهم معلّقة، والمسؤولية على عاتقهم كبيرة .

فدور لام التّعليل هنا اختصرت فكر الشّيخ ومبدأه في التعامل مع أعضاء الجمعية، وبيّنت مخطّطاته الآنية وتطلّعاته المستقبليّة، وقد بيّن ذلك عند انعقاد المؤتمر الخامس للجمعيّة فقال : " وقد تلقّى المؤتمر هذا القرار بالارتياح ورأى فيه تحقيقا لغرض طالما جال في نفوس الأدباء، وهو إقامة عكاظ سنوي، تتدرب فيه ناشئتنا الإصلاحية على الكلام في العموميات وتتمرّن على الخطابة ومناحيها، لتستعدّ للقيام بالدعوة والإرشاد وأنّ الخطابة لركن الإصلاح الركين " [2]، دون أن نغفل لام التعليل (لتستعدّ) وهذا تأكيد على ما سبق ذكره، وبيان الدور الذي تؤديه الخطابة في تربية المجتمع، ولذا كان الإبراهيمي يهتمّ بها اهتماما بالغا ويحاول تعليم الناشئة فنون الخطابة، وأسرار الفصاحة والبلاغة .

ثمّ ينتقل في المحاضرة نفسها فيقول : " فلنقارن حالنا قبل هذه النّهضة بحالنا الآن ونحن في عنفوانها لنعلم أيّ مدى بلغنا وإلى أي مرتبة وصلنا، وليكون ذالك حافزا لنا إلى التقدّم

[1]ـ أحمد طالب الابراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج 1، ص 71 .
[2]ـ المصدر نفسه، ص 85 .

ولنأنس بذلك كما يأنس المسافر حينما يقطع مرحلة من مراحل السفر " [1]، فالشّيخ يدعو إلى مفارقة بين زمنين، ومقارنة بين عهدين، قبل الصّحوة وبعدها هذه الصّحوة التي تبنّتها الجمعيّة، فجاءت لامات التعليل لتثبت النّتائج التي توصلت إليها الجمعية والتغييرات التي أحدثتها في المجتمع (لنعلم، ليكون، لنأنس)، ولقد رتّبها الشيخ ترتيبا دقيقا، ووزّعها توزيعا عجيبا، ليثبت ما هو ثابت عنده، ويوضّح ماهو راسخ في خلده، فقال بداية لنعلم إلى أيّ مدى بلغنا، مشيرا إلى التغيير الذي أحدثته الجمعيّة، والذي لا يغفله جاهل فكيف بعالم، فقد كانت نقلة بين زمنين، وارتقاء بين محطّتين يشهد أوّلها على فضل آخرها؛ فكان هذا التغيير الملحوظ حافزا للآمال، ومعينا على تحقيق الأحلام، وأثبتت لام التعليل ذلك، ثم علّل الشيخ استئناسه بما حقّقته الجمعيّة من نتائج، فعندما تبصر الثمر يهون عندك التعب، وكان تعليل الاستئناس إقرارا منه إلى ثبوت النتائج التي حققتها الجمعية .

ثمّ انتقل الشّيخ في عرضه هذا إلى نقد بعض العقائد الفاسدة التي أورثها شيوخ الطرقيّة لأتباعهم، فقال : " إنّما انتقلت إلينا عدوى هذه النزعة ـ نزعة التسليم ـ من مشائخ الطرق، فقد كانت مسيطرة على مجالسهم وخلواتهم، وكانوا يأخذون أتباعهم فيما يأخذونهم به من أصول التربية بتحقيق معناها من أنفسهم، ليروّضوهم بها على الطاعة العمياء لهم " [2].

فمشائخ الطرق ـ في نظر الإبراهيمي ـ وضعوا هذا الانحراف في المعتقد، من أجل التّسليم لهم من قبل أتباعهم، وهذا المعنى واضح بَيِّنٌ ثابت في نفس الإبراهيمي، ومسلّم به من قبل العامّة، ولكنّ الجهالة تكمن في الطّريقة التي أوصلت المريد إلى سلوك هذا المسلك، فجاء بلام التعليل(ليروّضوهم) حتّى يثبت من خلالها أنّ السبب في ذلك هو التربية السقيمة والانحراف العقدي والمسخ في الفهم لدى مشائخ الطرقيّة، الذين روّضوا أتباعهم عليه، لحاجة في نفوسهم ولمصالح لا تُستر على ذي لب، حتّى بالغ مريدوهم في تقديسهم، ونسبوا لهم من المعجزات والكرامات مالم يكن حتّى للأنبياء والرّسل .

---

[1] ـ المصدر السابق، ص 73 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 74 .

وفي مقال جاء تحت عنوان فلسفة الإصلاح الدّيني قال الإبراهيمي : " ... نعاه القرآن على من قبلنا ليعظنا ويحذّرنا ما صنعوا " [1]، جاء هذا السياق في معرض حديثه عن غلو بعض المسلمين في تعظيم بعض الأسماء غلوّا منكرا، وتقديسا زائدا، حتّى أنّهم كانوا يخصّونهم ببعض أنواع العبادة، ويعتقدون نفعهم وضّرهم دون الله تعالى، فذكر الشيخ أنّ القرآن نعى إلينا قصص أمثال هؤلاء، وجاء بكلمة نعى دلالة على الكراهة والاشمئزاز، فالنعي يحمل وراءه رائحة الموت، " نعى بمعنى شهّر عليهم لتعاطيهم الفواحش " [2]، ثمّ جاءت لام التّعليل لتقر هذا المعنى (ليعظنا) والوعظ تعلّقه بالقلوب يضاهي تعلّقه بالعقول، ثمّ نسب الوعظ للقرآن حتّى تزداد حجّته وتقوى بَيِّنَتَه، والكيس من استفاد من أخطاء الغير، واستبصر من هفوات السابق ، واتعظ من زلاّت الأول .

وقد حذر الإبراهيمي الأمّة من أشباه العلماء الذين يتاجرون بالدّين، ويمرقون منه كما يمرق السّهم من الرميّة، الذين صدق فيهم قول العبّادي :

نُرقّعُ دُنيَانَا بتَمزِيقِ دِينِنَا فلا دِينُنَا يَبْقَى ولاَ مَا نُرَقّعُ [3]

وقال في موضع آخر : " إنّ الأمة الجزائريّة استيقنت سفه الأيدي التي كانت تقودها باسم الدّين فصمّمت على التفلّت منها وإلقاء المقادة إلى أيدي العلماء لتبتدئ السير في نهضتها على هدى وبصيرة " [4]، فجاء بلام التعليل هنا (لنبتدئ) إشارة منه إلى الحالة المزرية، والوضعيّة المؤسفة، التي كانت تعيشها الجزائر في ظلّ علماء التجارة بالدين، الذين ضلّوا وأضلّوا كثيرا من خلق الله، ولولا ما سخّره الله تعالى من عباده المخلصين، ومن العلماء ورجال الدّين لعمّت الضّلالة، وانتشرت الجهالة، وعمّ الفساد وخربت البلاد، فالتفّ النّاس خلف هذا الرّعيل من العلماء فأناروا لهم الطّريق، ووضّحوا لهم السبل، وكشفوا لهم زيف المتاجرين بالدّين، وسار النّاس على هدى وبصيرة، فقبل لام التعليل لم تكن هناك بداية فلمّا التقى وعي النّاس مع

[1]- المصدر السابق، ص106 .
[2]- ابن منظور، لسان العرب، م 6، ص 335 .
[3]- محمد جبار المعيبد، ديوان عدي بن زيد العبادي، دار الجمهورية للنشر والطبع، العراق، س 1965، ص 200 .
[4]- أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ص 123 .

حكمة العلماء كانت الانطلاقة المنشودة، والبداية المحمودة، وبدأ النّاس يرنون إلى نهضة واعدة، ومسيرة راشدة .

وفي مقالة تحدث فيها عن الشيخ رشيد رضا قال : " لقيته رحمه الله ببلدة دمشق على أثر انتهاء الحرب العظمى وقد جاءها ليتّصل بالهيئات العاملة لخير العرب وليزور أهله في القلمون من لبنان الشماليّة " [1] .

فالبشير الإبراهيمي من أشد المعجبين برشيد رضا، فقد ذكر هذا اللقاء بعد أن قدّم سيرة موجزة من نشاط الرجل، أبانت على غزارة علمه، وعلوّ كعبه، ورجاحة عقله، وذكر سبب ذهابه إلى سوريا مثبتا ذلك بلام التعليل (ليتّصل) ثمّ عطف على الاتّصال بزيارة الرجل أهله، وكأنّ الأولى هي السبب الرئيس لهذه الزيارة، فلم يعد له ارتباط بالزّمان ولا بالمكان لأنّ همّه الأوحد وشغله الأكبر ما تعانيه الأمّة الإسلاميّة والشعوب العربيّة في مشارق الأرض ومغاربها .

وجاء في المقال نفسه : " ثمّ زحفت من أولئك التلاميذ في ذلك العهد أيضا كتيبة جرّارة سلاحها الفكرة الحيّة الصحيحة إلى جامع الزيتونة لتكمل معلوماتها ولتبني على تلك الفكرة الحيّة وعلى ذلك الأساس العلمي الصحيح بناء علميّا محكما " [2]، حيث يتحدّث الشّيخ في هذا الجزء من مقالته عن أبناء الجمعيّة، وتلاميذ المدارس التي أنشأتها في ربوع الوطن، وكذا تلاميذ معاهدها، وكلّ ملتزم بحلق الدروس والمواعظ في مختلف المساجد فقد كان كل هؤلاء في مرحلة إعدادية، وفترة تربص يطول أمدها ويقصر على حسب الظّرف والحاجة، ليتخرّج من جملة ذلك طائفة تستطيع أن تواصل تعليمها في جامع الزيتونة الذي كان يعدّ منارة للعلم، ومقصدا لطالبيه من كل أنحاء العالم الإسلامي في ذلك الوقت، وجاء بلام التّعليل هنا (لتكمل، لتبني) حتّى يُثبِت هذه الحقيقة، ولتختصر هذه اللاّم جهد الجمعية وتبيّن أهدافها وتحدّد طموحها، والتي على رأسها إعداد طالب ناجح متسلّح بأنواع العلوم والمعارف يمكنه أن يواصل دراسته في جامع الزّيتونة، ثمّ العودة إلى وطنه والعمل في مجال الإرشاد والإصلاح، وليبني مستقبل بلاده على أسس صحيحة وقواعد متينة وسليمة، فسبب الالتحاق بالزّيتونة هو

[1]- المصدر السابق ص 113 .
[2]- المصدر نفسه ص 116 .

إكمال مسيرة التّعلم، والاستزادة من أفق المعرفة، والنّهل من معين العُلماء، ثمّ العودة من أجل البناء والتشييد .

وفي مقال آخر تحت عنوان (الأمّية) قال الشيخ : " ... ووضع بين عينيه صور الموجودات وعوارض الكمال والنّقص فيها لينتزع من قانون الكمال كماله، وليتجنّب من علمه بأسباب نقصها أسباب نقصه " [1]، فالإنسان لا يعيش في وسط الكّون بمفرده، والمجتمعات ليست معزولة عن بعضها، والأمم تتعايش مع بعضها وفق قانون التأثّر والتأثير، والكيّس من استفاد من أخطاء الغير، وقرأ التاريخ، وتجنّب مواطن الخلل والزلل، هدفه دائما السّعي إلى مدارج الكمال، والابتعاد عن نواقض الجمال، يرى اجتهاد أممٍ وكيف حصّلت أسباب البقاء، وتخلف أممٍ وكيف سارعت إلى أسباب الفناء، فيأخذ من هذه أسباب كمالها فيحذو حذوها، ويأخذ من الأخرى أسباب زوالها فيجانب فعلها، فجاء بلام التّعليل هنا (لينتزع، ليتجنّب) مقرا بهذه الحقيقة ومعترفا بما سنّته من قانون ونظام .

جاء في مقال تحت عنوان (العربية فضلها على العلم والمدنيّة) : " إنّ الفائدة الكبرى التي يعلّقها القرآن على آثار الأمم البائدة هي الاعتبار بحال الظالمين ليعلم المعتبر أنّ الظلم هو سوس المدنيّات " [2]، حيث يتحدث الشيخ عن قيمة حضارية وقضيّة إنسانيّة، هي سبب بقاء دول وزوال أخرى، وسبب سعادة مدن وتعاسة أخرى، وإذا حل بالأمّة نقيضها تهالكت، وأعلنت سبب زوالها وتآكلت؛ إنّه العدل ونقيضه الظلم، " يروى : أنّ الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة " [3]، فالسّماوات رفعت بالعدل، والأرض بسطت بالعدل، والجبال نصبت بالعدل، قال تعالى : ﴿ **وَالسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ** ﴾ (سورة الرحمان آية 7،8،9)، ولذلك بيَّن الشيخ أنّ من أهمّ الرسائل التي يقدّمها القرآن من خلال قصص الأوّلين وحياة الغابرين وعاقبة الظالمين إنّما هو العظة والاعتبار، وجاء بلام التّعليل (ليعلم) وكأنّها الحقيقة الوحيدة الثابتة التي بسببها قصّ القرآن حكاياتهم وبيَّن لنا نهاياتهم، قال تعالى :﴿ **لَقَدْ كَانَ**

---

[1]ـ المصدر السابق ، ص 139 .
[2]ـ المصدر نفسه، ص 260 .
[3]ـ أحمد عبد الحليم بن تيمية، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، دار المكتبة العلمية، لبنان، ص 7 .

فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ ﴾ (سورة يوسف، الآية 111).

وفي مقال تحت عنوان (أثار اعتقال الأستاذ العقبي) قال : " إنّ الله سيديل الحقّ من الباطل وإنّه يبتلي أولياءه بالأذى والمحنة ليمحّصهم "[1]، حيث إنّ فتنة العقبي واتّهامه بجريمة القتل قد هزّ أرجاء الوطن وزلزلت أركان الجمعيّة واتّهمت مسارها، وشوّهت منهجها، فليس من عادة الجمعيّة حياكة المؤامرات، ولا تصفية الحسابات وإنّما تردّ الفكرة بالفكرة، والعلم بالعلم، والحقّ واضح أبلج، وعليه من الله نور وضياء، ومهما طالت الأزمة واستمرّت المحنة، فسيظهر الله الحقّ ويديله، " مأخوذ من الدّولة وهو انقلاب الزّمان من حال البؤس والضرّ إلى حال الغبطة والسرور ... إيدال النعمة من قوم إلى قوم : الاستيلاء والغلبة " [2]، وإنّما ما أصاب العقبي من المحنة التي تعقب بعدها منحة، ومن البليّة التي تورث عطيّة فجاء الشيخ بلام التّعليل (ليمحّصهم)، فلم تمض إلاّ أيّام حتّى أفرج عن العقبي وأزيح عنه ما اتّهم به، وسطع نجمه وذاع اسمه في الجزائر وخارجها، وعرفه الصغير والكبير واكتسبت الجمعيّة صيتا لم يكن لها من قبل، وعرف النّاس فضلها، وأدركوا أهميتها وقدرها، فكانت نعمة الهناء مخبّأة تحت بساط البلاء، وحلاوة السعادة كامنة تحت فرش الشقاوة، وما غلب عسر يسرين .

1 ـ 3 ـ المفعول لأجله :

أ ـ تعريفه : ويسمّى المفعول لأجله والمفعول من أجله والمفعول له : " هو الاسم المنصوب الذي يذكر بيانا لسبب وقوع الفعل نحو قام زيد إجلالا لعمرو وقصدتك ابتغاء معروفك " [3] فسبب قيام زيد هو إجلاله لعمر، فقام من أجل ذلك، وسبب قصدي لك هو ابتغاء معروفك فقصدتك من أجل ذلك وقيل أيضا في تعريفه : " هو اسم يذكر لبيان سبب الفعل نحو: ﴿ **وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ** ﴾" (سورة البقرة، الآية 207)، فالمفعول لأجله من المنصوبات التي تبيّن سبب وقوع الفعل والذي يصلح أن يكون جوابا لـ (لِمَ) :

---

[1]ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الابراهيمي، ج 1، ص 207 .
[2]ـ محمد مرتضى الحسني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح محمود محمد الطناحي، س 1993، ج 28، ص 506 .
[3]ـ محمد بن صالح العثيمين، الجامع في شروح الآجرومية، دار التقوى، مصر، س 2016، ص 567 .

ـ لِمَ قام زيد : قام زيد إجلالا لعمرو .

ـ لِمَ قصدتك : قصدتك ابتغاء معروفك .

وهو من أساليب التّعليل التي ألفها العرب واستعملوها في كلامهم لبيان علّة وقوع الفعل، قال جلّ وعلا : ﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَآءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ** ﴾ (سورة البقرة، الآية 207) ، ابتغاء مفعول لأجله منصوب : ومعنى الكلام أنّ من النّاس من يبيع نفسه من أجل مرضات الله عز وجلّ، فسبب بيع النّفس شيءٌ أجلّ وأسمى، وأعظم وأرقى، فيقال : لِمَ يشري بعض النّاس نفسه والجواب ابتغاء مرضات الله .

ويقال أيضا في تعريف المفعول لأجله : " هو المصدر، المُفهم علّة، المشارك لعامله في الوقت والفاعل " [1]، ولعلّ هذه هي الشروط التي وضعها علماء النّحو لنصب المفعول لأجله أو المفعول له عند بعض النّحاة (أن يكون مصدرا ـ أن يفهم علّة ـ أن يكون مشاركا لعامله في الوقت والفاعل)، " وحكمه جواز النّصب إن وجدت هذه الشروط الثلاثة أعني : المصدرية وإبانة التّعليل واتّحاده مع عامله في الوقت والفاعل، فإن قصر شرط من هذه الشروط تعيّن جره بحرف التّعليل "[2] .

والحقيقة أنّ المصدرية ليست شرطا للنّصب فحسب، بل لابد منها فالمفعول لأجله لا يكون إلاّ مصدرا، ولا يمكنه أن يكون غير ذلك " لاحظوا أنّ المفعول لأجله لا يكون إلاّ مصدرا ولا يمكن أن يكون اسم فاعل أو اسم مفعول، لابدّ أن يكون مصدرا " [3] .

ب ـ المفعول لأجله عند البشير الابراهيمي :

لقد كان الشّيخ الإبراهيمي يكثر من استعمال المفعول لأجله، فإقناع المستمع لا يكون إلا ببيان الأسباب، وربطها بالمسبّبات، وبيان علل حدوث الفعل، وربط الكلام آخره بأوّله ولعلّ من أهم الأدوات الحجاجيّة التي تصلح لذلك هي المفعول لأجله الذي يظهر سبب وقوع الفعل،

[1] ـ ابن عقيل، شرح إبن عقيل، دار الطلائع، مصر، ج 2، ص 83 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ العثيمين، الجامع لشروح الآجرومية، ص 83

فيكون ذلك أدعى للإقناع، وأمثل للاستمالة، وأحسن وقعا لدى المستمع، وهذه بعض الأمثلة الشاهدة :

جاء في كلمة ألقاها الشّيخ في إذاعة باكستان شهر أفريل من سنة 1952 : " فلا ينسيني الدّلال بهذه الأخوة أن أحيّيكم تحيّة المسلم الصّادق لإخوانه الصّادقين، جزاء لما أنزلوني من منازل الكرامة والبرّ، وكفاء لما قابلوني به من التأهيل والترحيب، ومهرا لما تخيلته فيهم من مخايل صادقة تبشر بأنّهم أمّة تدعى إلى الحقّ فتجيب، وإعلانا منّي بأنّ ما وهب الله لهذه الأمّة ... " [1]، وقد استعمل الشيخ هذه المفاعيل ليقابل مدى الإحسان الذي لقيه من إخوانه في باكستان الذين غمروه بكرمهم، وأفاضوا عليه بجودهم، وأنعموا عليه بحسن استقبالهم، وزاده إجلالهم لشخصه، وإكبارهم لعلمه، حبّا في القلب، وراحة في النّفس، فجاءت تحيّته تحيّة صدق وإخلاص، وإجلال وإكبار، وكانت (جزاء، وكفاء، ومهرا، وإعلانا)، فعبّرت هذه المفاعيل عن أحاسيس القلب أحسن تعبير وعلّلت خوالجه أجمل تعليل، وكأنّه يقول إنّما الجزاء والكفاء والمهر والإعلان سببه صدق المشاعر الذي نتج من حسن الاستقبال .

وقال في كلمة ألقاها في القاهرة بإذاعة صوت العرب سنة 1953 : " قدّمت الأمّة شبّانها فداءً لأوطانها، أمّا أنتم فقدّمتم الشبّان والكهول والشّيوخ " [2] وقد كان هذا الخطاب موجّها للشّعب الليبي، الذي ضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والبسالة، فإذا كانت الأمم قد قدّمت شبّانها، وهم سلاح بقائها، وعلامة ازدهارها، فإنّ ليبيا قدّمت إضافة إلى ذلك شيبها وكهولها، فجاء الشيخ بالمفعول لأجله (فداء) حتّى يبيّن الثّمن الذي قدّمته الشّعوب من أجل استرجاع سيادتها، وتحرير أرضها، فهان المال وهان الولد وهان الوالد وهانت النّفس ثمنا لاستقلال البلاد وتحرير العباد، وكأنّ الأمة ما قدّمت هؤلاء الشباب إلاّ من أجل هدف واحد وغاية سامية وهو أن تكون أرواحهم فداء لهذا الوطن .

[1]ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الابراهيمي، ج 4، ص 61 .
[2]ـ المصدر نفسه، ج4، ص 238 .

وفي محاضرة ألقاها الشيخ تتعلق بالرّقّ في الإسلام قال فيها :" وخاطبها بذلك استقلالا، تشريفا لها وإبرازا لشخصيّتها " [1]، يتحدّث في هذه الفقرة عن مكانة المرأة في الإسلام، وكيف أعلى هذا الدّين شأنها، ورفع قدرها وجعلها معزّزة مكرّمة، وأوجب لها من الحقوق ما فاقت به الذكر أحيانا، فبعد أن كانت متاعا يباع ويشترى أصبحت الأمّ والبنت والأخت، ووصايا الشرع بها لا تخفى على منصف، ويقصد الشيخ بـ (وخاطبها بذلك استقلالا) أي خطاب الشرع لها وما خصّها به من أحكام دون الرجل، كيف لا ؟ والله عز وجل قد سمع شكواها من فوق سبع سماوات : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ**﴾ (سورة المجادلة، الآية 1) ، فكان هذا الخطاب تشريفا لها وإبرازا لشخصيّتها، وجاء بالمفعولين (تشريفا، وإبرازا) ليثبت هذه الحقيقـــة، وما خصّها الشرع بالخطاب ولا أفردها بالأحكام إلا تحقيقا لهذه المعاني الثابتة .

وقال في المحاضرة نفسها : " وبالغ نبيّ الإسلام في التلطّف والحنوّ على هذا الصنف حفظا للكرامة الإنسانيّة " [2] . حيث تحدث في هذه الفقرة عن الرّقيق وأحكام التعامل معهم في الإسلام فقد بعث النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وهذا النّوع من التملّك موجود وشائع، ليس عند العرب فحسب، بل عند جميع البلاد المعمورة، فحاول ـ عليه الصلاة والسلام ـ القضاء على هذه العادة، وفق سنن الله التي لا تتغيّر، وشرائعه التي لا تتبدّل، فرغّب بداية في العتق، فلا تكاد تجد نوعا من أنواع الكفّارة إلا ووجدت أوّل خياراته عتق رقبة مؤمنة، ثمّ رغب بعد ذلك في الإحسان إلى الإماء والعبيد، بل أصبح لهم من الحقوق وحسن المعاملة ما لا يملكه حتّى الحرّ، فجاء الشيخ هنا بالمفعول لأجله (حفظا) حتّي يؤكد هذه الشرائع التي جاء به ديننا الحنيف؛ أي أنّ النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ما سنّ القواعد ولا وضع المناهج إلا حفظا للكرامة الإنسانيّة، وحفاظا على العدالة السماويّة .

ويقول في موضع آخر : " وقد كان المسلمون الأوّلون يتبارون في العتق ويبعثون في الأسواق حاشرين لشراء العبيد بنية العتق اغتناما لأجره وتحقيقا لحكمه " [3]، فلا شيء أجمل

---

[1]ـ المصدر السابق، ج4، ص 360 .
[2]ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج4، ص 362 .
[3]ـ المصدر السابق، ج4، ص 367 .

من أن تتحول العبادة من جهد يبذله الإنسان على مضض، أو مال ينفقه على حسرة، أو شعائر يؤدّيها دون روح، إلى التلذّذ بآداء الواجب، والسّعادة عند الشروع في العبادة، والراحة والطمأنينة عند الفراغ منها، وهذه ـ والله ـ هي السعادة الحقيقيّة التي لم يتذوّقها إلاّ من خلص عمله، وحسن فعله، ولذا كان المسلمون الأوائل يتنافسون في أعمال الخير وعلى رأس هذه الأعمال عتق العبيد، فجاء الشيخ بالمفعول لأجله (اغتناما، تحقيقا) حتّى يقرّ هذه الحقيقة، فسبب إقبالهم على العتق والمنافسة في ذلك إنّما هو نيل الأجر وتحصيل الثواب، وحتّى يحققوا القيم الربانيّة التي نزل بها القرآن وجاء بها الإسلام .

وقد وجّه للأستاذ عبد العزيز الميمني خطابا جاء فيه : " لم يكتف أحدهم بطبع الكتاب حتّى يعلق عليه افتتانا بهذا اللقب الجديد الذي يفيده قولهم نشره فلان وعلّق حواشيه " [1] . حيث عدّ الشيخ هذا الخطاب من قبيل المراجعات، حين خالف عبد العزيز الميمنى في قراءة كلمة (الوَرَقِ) من بيت شعر منسوب لـ سحيم عبد بني الحسحاس يقول فيه :

أشْعَارُ عبد بني الحَسحَاس قُمْنَ لَه يَومَ الفَخَار مَقَامَ الأصْل والوَرَقِ [2]

فقرأها الشيخ بفتح الرّاء (الوَرَقِ) وهو المال بمختلف أنواعه ذهبا كان أو فضّة فصحّحها له الميمني (الوَرِقِ) بكسر الرّاء وهي الفضّة، فأرسل له هذا الخطاب يوضّح له فيه صحّة مذهبه، وقوّة شاهده، ورجاحة رأيه، وسداد قوله، وقد أبان في هذا الخطاب عن قوّة شخصيته، وغزارة علمه، وحسن استدلاله، ومتانة حفظه ـ وهو حقيقة من أجمـل ما قرأت في هذا الباب ـ وبدأ خطابه هذا بذكر طائفة من المتعالمين الذين تستهويهم الألقاب فيجرون خلفها، ويلهثون وراءها، فجاء بالمفعول لأجله (افتتانًا) حتّى يقّر هذه الحقيقة، ويثبت هذه النقيصة، مؤكّدا أنّ سبب إقبالهم على التأليف وركوب أمواج الكتابة هو مجرّد سعيٍ وراء الألقاب وبحثٍ عن الشهرة .

[1] ـ المصدرالسابق، ج 4، ص 383 .
[2] ـ عبد العزيز الميمني،ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، دار الكتب المصرية، مصر، س 1950، ص 54 .

وفي مقال جاء تحت عنوان (ذوق صحفي بارد) تجلّى فيه دور المفعول لأجله حيث قال فيه :" ما هذه التفاهة في الذّوق أيّها الصحفيّون أماتت فلسطين حتّى تصفوها بالشهيدة وتجلّلوا صحفكم بالسواد حِدادًا عليها " [1]، لقد تفاعل الشيخ مع وصف بعض الصحفيّين والكتّاب لفلسطين بالشّهيدة، وكأنّها ماتت وانقطع خبرها، وانتهى أمرها، ولم يبق إلاّ البُكاء على أطلالها، والنّوح على ضياعها، وإعلان الحداد على فقدها، فجاء بالمفعول لأجله (حِدادًا) حتّى يوضّح سبب الكتابة عن فلسطين وكأنّ الذي شجّع الصحفيّين على الكتابة في هذه القضيّة هو مجرد البكاء على الأطلال والنّوح على الآثار، ففلسطين بالنسبة لهم شهيدة قد ماتت، وحقّ لها قصائد الرّثاء، وكلمات التأبين، وكان ينبغي لهؤلاء الكتّاب والصحفيّين قذف روح الأمل في النّفوس، ودفع النّاس إلى الجدّ والعمل، ومحاربة العجز والكسل، ففلسطين حيّة ما بقيت الأرواح في الأجساد وستبقى بإذن الله قلعة حصينة من قلاع المسلمين، واللّيل مهما طال فإنّ الفجر لا محالة قريب .

وجاء في مقال نشر في جريدة البصائر 1948 : " كان من المعقول أن يقف الكتابيّ أو الوثني في طريق الإسلام ليقطع مجراه أو ليصد تياره ذيادًا عن دينه أن يهضم وعن حوضه أن يهدم " [2]، كان هذا المقال عرض حال لعمل الجمعيّة، وأهم المعوّقات التي تعترض طريقها، وقد أوضح فيه حقيقة يغفل عنها الكثير ممّن ينتسب إلى الإسلام فأمم الغرب سخّرت كلّ وسائلها، ووفّرت كل إمكاناتها من أجل الحفاظ على دياناتها، والذبّ عن معتقداتها، ولم ولن تألو جهدا في إعلان عدائها للإسلام، لأنّه الدّين السماويّ الوحيد الذي يهدّد شأنها، ويفضح ظلمها ويحارب استبدادها، فليس من الغريب أن يصلوا الليل بالنهار حربا لهذا الدين، ولذلك جاء بالمفعول لأجله (ذيادًا) أي ما فعلوا هذا الأمر إلا دفاعا عن معتقداتهم، ولكن الغريب كل الغرابة أن يحارب الإسلام من قبل أبنائه، وتحارب العربية من لدن أهلها وعشيرتها .

ويواصل الشيخ استعماله للمفعول لأجله في كثير من خطبه كما يبدو ذلك من قوله : " وقد حلّينا بهذا الرسم صدر العدد 97 وصدر هذا العدد تنويهًا بهذه الهديّة الفنية واعترافًا

[1]ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 199 .
[2]ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 246 .

بلطف موقعها منّا " [1]، جاء هذا الكلام ردًّا على هديّة للرسّام العراقي محمد جعفر أرسلها لجريدة البصائر فجاء الشيخ بالمفعولين لأجله (تنويهًا) و (اعترافًا) حتّى يبيّن موقع هذه الهديّة في نفسه، وقيمتها في قلبه، التي تدلّ على الرّغم من بساطتها على الإلف والمودّة الجامعة بين أبناء الطبقة المثقفة في العالم العربي، وتدلّ أيضا على أهمية جريدة البصائر حتّى أضحت لها أنصار في أرض العراق، ولذلك حلّت البصائر صدر عدديها بهذا الرسم تنويهًا بهذه الوحدة بين أجزاء القطر العربي، واعترافًا بفضل الرسّام وجمال هديّته .

1 ـ 4 ـ التعليل بألفاظ أخر كـ (الغاية، السبب، لأجل، لأن ....) عند الإبراهيمي :

قال في كلمة ألقاها في إذاعة باكستان : " وإنّ عليهم قسطا عظيما من تبعة هذا الانحطاط الشامل للشّعوب الإسلامية لأنّهم فرّطوا ـ من قرون ـ في القيام بواجب العالم الدّيني في الإسلام " [2]، وقد تحدّث الشيخ في هذه الفقرة عن علماء الأمّة الإسلاميّة، ودورهم في سبيل النهوض بها فالآمال عليهم معقودة، والأبصار إليهم مشدودة، ولا حياة للأمم إلاّ بعلمائها، ولا تقدم للبلدان إلا بمفكّريها، ولا سعادة للشعوب إلا بعقلائها ومنظّريها، وإذا تخلّى العلماء عن واجبهم وأغفلوا المسؤوليّة المنوطة بهم تفشّت الجهالة، وانتشرت الضّلالة، وتردّت الأمّة إلى الهاوية، ولذلك استعمل الشيخ (لأنّ) محمّلا العلماء وزر التخلّف، وذنب التبعيّة، بسبب تقاعسهم عن واجبهم وتخاذلهم في نصرة دينهم، فلو قام كل عالم بما أمر به، وسعى مجاهدا في سبيل ذلك سارت الأمّة على بصيرة من أمرها، وعلى هدى من ربها .

وقال في مؤتمر العالم الإسلامي (ماي 1952) :" إنّ أكبر آية على أنّ هذا الشمال شيء واحد وكلٌّ طبيعيّ هو أنّ المغيرين من قديم الزمان كانوا يقصدونه كلاّ، فكلّ مغيّر استولى على بعض أجزائه إلاّ ورمى ببصره إلى الأجزاء الأخرى، وعمل على ضمّها إلى بعضها لأنّها مكمّلة لبعضها " [3]، في هذا المقبوس يرى الإبراهيمي أنّ الشمال الإفريقي شعب واحد ومصير واحد، وأنّه كل لا يتجزأ يشهد بذلك العدو قبل الصديق، إذا استولى المدمّر على جزء منه طمع في باقيه، وإذا رفعت راية الإصلاح في ركن منه تلقّاها جميع القطر

[1]ـ المصدر السابق، ج2، ص 202 .
[2]ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 61 .
[3]ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 77 .

على نفس القدر من الأهميّة، فشعوب شمال إفريقيا متقاربة في الطباع جمعت بينها العادات والتقاليد مثلما جمعت بينها الجبال والوهاد، ووحّدت شعوبها اللغة والديانة مثلما وحد مصيرها التاريخ والجغرافيا، وجاء الشيخ بـ (لأنّ) حتّى يثبت هذه النظرة، ويبيّن هذه الحقيقة، وكان الشيخ يعدّ نفسه ناطقا باسم شمال إفريقيا كلّها، ومتحدثًا عن آلام شعوبها التي جمعت بينهم مرة أخرى هيمنة الاستدمار الغاشم .

وفي المؤتمر نفسه جاء قوله : " إنّ العالم في اضطراب لأنّ أهله في احتراب " [1]، وهذه حقيقة بيّنة ومعضلة واضحة، فقد عاش الشيخ الحربين الأولى والثانية التي لم يسلم من ويلاتها مَصر، ولم ينج من نكساتها قطر، وأصبحت الأرض نصفين، عالم معمّر وآخر مدمّر، وشعوب تقتات على إذلال شعوب، ومعسكر في الشرق وآخر في الغرب، فالعالم كلّه في اضطراب والسبب كما ساقه الشيخ ووضّح مبهمه (لأنّ أهله في احتراب) أي أنّ هذه الحروب المتوالية، والأطماع الدنيئة هي سبب هذه الفوضى، وهي التي جعلت الشعوب تعيش ويلات الفقر والمجاعة والأمراض، وتعيش خوفا من نكسات المؤامرات، وجزعا من الدسائس والمكائد .

وفي الصدد نفسه يواصل الإبراهيمي قائلا : " أنا لا يرضيني أنّني في وطني كلّ لأنّني مرجع لإخواني العلماء ومطاع من أتباع جمعيّتي لأنّ هذا الكلّ مهما قوي ضعيف " [2]، والملاحظ من هذا القول أنّ الشيخ يتحدث عن الوحدة العربية والإسلاميّة، التي ينبغي أن يمسك زمامها العلماء، ويتولى قيادها العقلاء ؛ لأنّ صلاح الأقطار لا يكون إلا بصلاح أجزائها وكمال الجزء الواحد لا يمكن أن يكون مؤثرا إلا إذا توافق مع كمالات الأجزاء الأخرى، فالعالم الإسلامي كلّه في بوتقة واحدة، الأهداف واحدة، والغايات موحّدة، فيجب أن تلتقي الجهود وتتوحّد السواعد لتسطّر غدا أفضل، وترسم طريقا أكمل وأجمل، ولذلك قال الشيخ (لأنّ هذا الكُلّ مهما قوي ضعيف) وكأنّه يقول على الرغم من النتائج التي حقّقتها الجمعية في الجزائر، وعلى الرغم من المكانة التى يحتلها الشيخ في وطنه، إلاّ أنّه يسعى لشيء أكمل، وهو واقع

[1]ـ المصدر السابق، ج 4، ص 78 .
[2]ـ المصدر نفسه، ج 4، ص

الجزائر بين بلدان العالم العربي والإسلامي، وواقع علماء الجزائر ضمن هذا الرعيل من العلماء .

وجاء في مقال تحت عنوان وحدة الصّوم والعيد : " ولم نستثن إلاّ قضاة الجزائر لأنّهم معيّنون من حكومة مسيحيّة بصورة ترفع الثقة بهم " [1]، فقد دعا الشيخ إلى توحيد رؤية هلال الصوم في جميع بلدان شمال إفريقيا، فمتى ثبتت رؤية هلال رمضان في أيّ بلد عمّ الصّوم جميع الأقطار، وناشد جميع قضاتها إلى توحيد الكلمة، وتعميم الرؤية، وتبليغ الشّعوب بجميع الوسائل المتاحة السمعيّة منها والبصريّة، واستثنى من هذا النداء قضاة الجزائر، وعلّل ذلك بأمرين الأوّل : (لأنّهم معيّنون من حكومة مسيحيّة) إذ لا يعقل أن يحتكم مسلم إلى مسيحيّ في أمر يتعلّق بدينه، فالشّيخ كان يرفض رفضا قاطعا تدخل الحكومة الفرنسيّة في الشؤون الإسلاميّة، فلا يحق لها أن تختار القضاة الذين يحكمون بين أفراد الشّعب المسلم ولو بطريقة إسلاميّة، والأمر الثّاني : (بصورة ترفع الثقة بهم) أي طريقة اختيار هؤلاء القضاء التي لم تقم على أسس موضوعيّة أو منطقيّة أو علميّة، وإنّما قامت على مدى ولاء هؤلاء القضاة لفرنسا، ومدى سعيهم في خدمتها .

وفي استجواب لصحيفة باكستانية 1952 قال : " الاستعمار الفرنسي في الجزائر وفي شمال إفريقيا عامّة، هو أفظع أنواع الاستعمار التي عرفها البشر في مراحل التاريخ لأنّه ظلم صريح الأثر، وحشيّ الأسلوب، حيوانيّ النزعة، متوقّح الوجه، ولأنّه لا يتصل بالنّفوس بحبل، أو بخيط من الإحسان إليها " [2]، حيث يتحدث في هذه الفقرة عن فظاعة الاستدمار الفرنسي، وعن الخراب الذي جلبه للبلاد الذي عاث فيها الفساد، وأضر بالخلق والعباد، وعانى من ويلاته حتّى الحيوان والجماد، وبيّن سبب ذلك بقوله (لأنّه ظلم صريح الأثر) فما مرّ على البشريّة احتلال كالاستدمار الفرنسي الذي لم يرقب في الشعب الجزائري إلاّ ولا ذمة، ولم يراع فيه حقًّا ولا واجبًا، خرّب ودمّر، وصفّر وزمّر، قتل الرجال واستحيى النساء واستعبد الأطفال، وسرق الخيرات، وجاب الحسرات، ثمّ ساق الشيخ عدة أسباب وضّح من خلالها صحّة

[1]ـ المصدر السابق، ج 4 ص، ص 81 .
[2]ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 87 .

الحكم الذي قضى به عليه (وحشيّ الأسلوب، حيوانيّ النزعة متوقّح الوجه، لا يتصل بالنفوس) ولقد كتب التاريخ سجلات من الخزي والعار ملأت مدونة فرنسا الشاهدة على هذه الحقبة .

وفي حديث لإذاعة بغداد 1952 : " والغرض الأساسي من رحلتي هو التعرّف على إخواني ... " [1]، فقد بدأ الشيخ مباشرة في توضيح سبب زيارته للأقطار العربيّة والإسلاميّة، التي توحّدت همومها، واتّفقت أوجاعها، فكان لابد للعلماء من الاجتماع والتلاقي لبحث آلام الأمّة وتحديد الأمراض والعلل، ومواطن الخطإ والزلل، من أجل إيجاد الجواب الكافي، والدّواء الشافي والنهوض بالأمّة من كبوتها، وإيقاظها من غفوتها، وقد ذكر كلمة الغرض الأساسي ثمّ وضع تحته مجموعة من الأسباب التي تخدمه ويدل عليها وتنتهي إليه : (دراسة أحوالهم، الاتصال بعلمائهم، لننظر ونتبادل الرأي، إكمال الناقص، التعاون على تبديل حالتهم، إزالة التناكر، تهيئة الوسائل الممكنة) .

وقال في كلمة أخرى ألقاها في باكستان (أفريل من سنة 1952) : " الغرض الأوّل الأهم من هذه الرحلة هو دراسة أحوال المسلمين في مواطنهم " [2]، وذكر الشيخ هنا الغرض من الرحلة في بداية الجملة، حتّى يضع تحته جملة من الأسباب التي دفعته للقيام بها، خاصّة إلى باكستان التي كانت تمثّل حاضرة شاهدة، بل هي من أهم حواضر العالم الإسلامي في ذلك الوقت، حتّى أصبحت قبلة للعلماء، وملاذا آمنا للباحثين والدّارسين وأرضا خصبة للتجار والسائحين، فقصدها الشيخ ليتفقد أحوال المسلمين في بلدانهم، وليعاين ما سمعه عنهم من أخبارهم، وقد وضع الشيخ تحت هذا الغرض مجموعة من الأسباب (دراسة أحوال المسلمين، التعرف إلى قادة الرأي، الامتزاج بمجتمعاتهم) .

ثمّ ذكر الشيخ الغرض الثّاني من الزيارة :" والغرض الثّاني من هذه الرحلة هو التّعاون بجهد المقل مع أولئك القادة في تشخيص أمراض المسلمين ... " [3]، حيث بدأ بذكر الغرض ثمّ صنّف تحته ما شاء من العلل والأسباب، وهذا أسلوب شائق وعرض رائق، وطريقة جميلة لبيان

---

[1]- المصدر السابق، ج 4، ص 96 .
[2]- المصدر نفسه، ص 60 .
[3]- المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

المراد، فتكون بذلك جميع الأسباب محصورة في غرض واحد، ترجع بالمعنى إليه، وتعود في الأصل عليه (التعاون بجهد المقل، البحث عن وسائل علاجها، رد الآراء المتفرقة فيها، تمكين أسباب التعارف بين قادة المسلمين) فتحسّ من مجموع هذه الأسباب أنّها خلجات الوجدان، وأحاسيس الجنان، نقلها الشيخ بواسطة البيان، وعبّر عليها بالقلم .

وفي حديث لإذاعة بغداد سنة 1954 قال : " والغرض الأخصّ للإسلام في عباداته التي شرعها هو تزكية النّفس وتصفيتها من شوائب الحيوانيّة الملازمة لها ... " [1]، لقد وضع الشّيخ السبب الذي من أجله شرعت الشرائع، وأنزلت الكتب، وبعثت الرّسل ووضعت الأحكام، وعبر عنه بالغرض الأخصّ، وكأنّ الإسلام كله هدفه محصور في هذه الغرض ولذلك سطّر تحته مجموعة من الأسباب هي لهذا الغرض بيان، وله تبع وعنوان (تزكية النّفس، تصفيتها من شوائب الحيوانيّة، ترقيتها لمنازل الإنسانيّة الكاملة، تغذيتها بالمعاني السماويّة، فتح الطريق أمامها للملإ الأعلى) وكلّها معاني روحانيّة، ونفحات ربانيّة وعطاءات إلهية، جاء بها الإسلام ليسمو بالإنسان إلى السعادة الحقيقيّة، ويرقى به إلى الملائكيّة .

وفي استجواب لصحيفة باكستانية سنة 1952 جاء قوله : " ثمّ هاجر أبي بعد موت عمّي إلى المدينة المنورة سنة 1908، هجرة دينية سببها ضغط الاستعمار وظلم الحاكمين " [2]،

وبيان العلّة واضح جليّ، فقد ذكر الشيخ هجرته إلى المدينة المنوّرة، واختارها والده دون غيرها من البقاع لما فيها من بقايا النبوّة، ولما فيها أيضا من المحطّات الإيمانيّة، والنفحات الربانيّة ولذلك قال الشيخ (هجرة دينيّة)، وسبب هذه الهجرة كما ذكر ما كانت تعانيه الجزائر من ظلم المدمر الفرنسي ، ومن سياسة التجويع والتجهيل التي كان ينتهجها عقابا لهذا الشعب، إضافة إلى تلك المعاملة المشينة للحكومة الفرنسيّة ومن والاها لعائلة الشيخ، فقد كانت عائلة معروفة بالعلم، لها كلمتها المسموعة، ولها أنصار وأتباع، وهذا جل ما تخشاه فرنسا فضيّقت على العائلة أمرها، وأقترت عليها رزقها، فلم يجد والده مساغا من الهجرة إلى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام، لتأنس النفس، ويرتاح الضمير، وليكمل ولده تحصيل العلم .

---

[1]ـ المصدر السابق، ص 288 .
[2]ـ المصدر نفسه، ص 89 .

وبعد ذلك يذكر سبب خروجه من المدينة : " خرجت إلى دمشق في من خرج من أهل المدينة بسبب حصار الشريف الحسين لها " [1] . والعلّة هنا أيضا جليّة بيّنة، وضّح الشيخ من خلالها سبب خروجه من المدينة المنوّرة، وهو الهروب من حصار الشريف الحسين لها، هذا الحصار الذي طال أمده وشقّ على النّاس العيش في المدينة، ولقد كان الرجل منهم يبيع منزله من أجل كيس أرز " دام الحصار أكثر من سنتين 1916 ـ 1919 بعد أن اتّخذها الأتراك قاعدة عسكريّة لحماية ممتلكاتهم " [2]، ومعنى هذا الكلام أنّ الشيخ خرج مكرها من المدينة، ولذلك ذكر السبب حتّى يزال اللبس ويرفع الإشكال .

وفي مقال يتعلق بنشاط الجمعية جاء فيه : " إنّ من الأسباب التي مكّنت للإلحاد في نفوس الشبّان المتعلّمين مجانبة علماء الدين الجامدين لهم ونفورهم منهم " [3]، لقد سطّر الشيخ في هذه الفقرة المنهج الذي وضعته الجمعية من أجل إصلاح المجتمع، فهي لم تهمّش طرفا منه، ولم تستثن مجموعة من مجموع، فقد طرقت كلّ الأبواب، وسلكت كل السّبل، من أجل إصلاح أكبر عدد ممكن من الأفراد والجماعات، ولذلك عَدَّ العلماء المتقاعسين عن آداء واجبهم، والنائمين على فرش الغفلات، هم أيضا من المسهمين في انتشار الإلحاد بين الشباب المتعلّمين، لأنّهم لم يحتضنوا هؤلاء الشباب، ولم ينصحوا لهم ولم يبذلوا جهدا لهدايتهم، ولم يصرفوا وقتا للعناية بهم، فهم بذلك قد أقصوا جزءا هامًّا من المجتمع، هو في عرف التاريخ قوام الأمة ومستقبلها، وحاضرها وحضارتها، ورمز تقدّمها وعلامة ازدهارها، وعنوان عزّتها وكرامتها .

2 ـ الوصف : يعدّ أسلوب الوصف من أهم الأساليب الحجاجيّة، لأنّه يعطي صورة مقرّبة عن الموصوف، قد تسمو به وقد تنزل به على حسب الأوصاف المنسوبة إليه، ولذا كان أسلوب الوصف يعطي النصّ أبعادا جمالية، وأخرى دلالية، تزيد النص عمقا ووضوحا وتكسبه حسنا وجمالا، وتضفي عليه قدرة حجاجية إضافية، وتكون الممايزة بين النّصوص على قدر المعاني التصويريّة التي يعطيها الواصف للموصوف، ولربما قد تشكّلت قصائد خالدة ترتكز

---

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 89 .
[2] ـ ينظر كتاب فصول من تاريخ المدينة المنورة، علي حافظ، ص 45 - 46 .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 132 .

أساسا على الوصف، وما قصائد الهجاء إلا جملة من الأوصاف الراكدة، وما قصائد المدح إلا جملة من الصفات الخالدة، وما قصائد الفخر إلا تعداد للصفات الماجدة، وما قصائد الغزل إلا افتخار بأوصاف الحبيب، وما الرّثاء إلا ذكر لخصال الفقيد، ويشمل الوصف عددا من الأدوات اللّغوية منها : اسم الفاعل، واسم المفعول، والصفة المشبهة .

2 ـ 1 : اسم الفاعل :

أ . تعريفه :

يظهر من اسمه المركب الدال على اسميته إذ له علاقة بفاعل الفعل، ولذا جاء في تعريفه : " صفة تُؤخذ من الفعل المعلوم لتدلّ على معنى وقع من الموصوف بها أو قام بها على وجه الحدوث لا الثبوت ككاتب ومجتهد " [1]، فكتب هو الفعل قام به شخص معيّن، فإذا أردنا أن نصف هذا الشخص الذي قام بفعل الكتابة قلنا هو كاتب، فكانت هذه الصفة تحمل شيئا من معنى الفعل (كتب) وجاء في تعريفه أيضا : " اسم مشتقّ يدل على معنى مجرّد حادث وعلى فاعله " [2]، فاسم الفاعل في أصله صفة، ووضع هذا البيان للتفريق بينه وبين الصفة المشبهة التي هي لصيقة بالموصوف، دائمة الإلف معه، ثابتة العلاقة معه، فهي من سجاياه وخصاله ومن طبائع فعاله، كقولنا: زيد كريم، فالكرم مما لازم زيدا حتّى عرف به ونسب إليه، أما قولنا : زيد قائم، فصفة القيام ليست ثابتة، ولا يمكنها أن تكون كذلك، لذا يقال عنها بأنّها حادثة، لكنّها في الوقت نفسه تصف الآنية وتتغير بتغير الزمن، وعرّفه محمد السامرائي بقوله : " هو اسم مشتق يدلّ على من وقع منه الفعل أو الحدث " [3]، وربّما هذا هو السرّ الذي جعل لاسم الفعل هذه المكانة، فعادة الاسم يدل على الدوام والثبات بخلاف الفعل الذي يحمل معنى الحركة والتجدّد، واسم الفاعل رغم اسميّته إلا أنّه يحمل شيئا من الفعليّة وشيء من الزمان، فكلمة (شارب) تدل على الشرب، وعلى من قام به حتّى اتصف به وعلى زمان يحدده سياق الكلام " اسم الفاعل يدل على الحدث والحدوث وفاعلـــه " [4] .

---

[1]ـ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، لبنان، ط 30، ج 1، ص 178 .
[2]ـ عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف المصرية، مصر، ط 3، ج 3، ص 269 .
[3]ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان، دار الفكر، لبنان، ط 1، س 2013، ص 92 .
[4]ـ المرجع نفسه، ص 94 .

ويصاغ من الفعل الثلاثي على وزن (فاعل) فنقول شرب فهو شَارِبٌ، حفظ فهو حَافِظٌ، وإذا كانت ياء الفعل من حروف العلة فإنها تقلب همزة فنقول للذي يصيد صَائِدٌ، وللذي يقوم قَائِمٌ .

ويصاغ من غير الثلاثي على وزن فعله المضارع المعلوم مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة مع جر ما قبل آخره فنقول : مُتَكلِّمٌ ومُسْتَمِعٌ ومُتَحَدِّثٌ ... إلخ، وكسر ما قبل آخره قد يكون ظاهرا حال الأمثلة السابقة، أو مقدرا نحو : مستدير ومختار فإن أصلهما مُسْتَدْوِرٌ ومُخْتَيِرٌ، فقلبت الواو ياء في الأولى ونقلت حركة الكسر للدال وهو الحرف الساكن قبلها، وقلبت الياء في الثانية ألفا لأنّ ما قبلها مفتوح، " وشذّت ألفاظ جاءت بفتح قبل الآخر، نحو: مُسْهَبٍ ومُحْصَنٍ ومُفْلَجٍ ومُهْتَرٍ ومنها : (سيل مُفْعَمٌ) " [1] .

جاء في كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته : " اسم الفاعل من نماذج الوصف التي يحاجج المخاطب بها ليُسوِّغ لنفسه إصدار الحكم الذي يريد أن تنبني عليه النتيجة التي يرومها " [2]، وربما وَصْفُ النبي ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ لأبي بصير يوضح هذا المعنى فقد قال فيه عليه الصلاة والسلام : " ويح أمه مُسَعِّر حرب لو كان له أحد " [3]، قال هذه الكلمة لما رأى إصرار الرّجل بعد أن ردّه إلى كفار قريش التزاما بما جاء في صلح الحديبيّة، فكانت هذه الكلمة (مُسَعّر حرب) بداية لإعلان نوع جديد من الحرب تمثّل في حرب العصابات الذي قام به أبو بصير ومن التحق به إلى جبال العيص، هذه الحرب التي أرغمت قريشا على التنازل عن شرط من أهم شروط صلح الحديبيّة، والذي كان يعدّه عمر رضي الله عنه نوعا من الإذلال " على أنّه من أتى محمدا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه "[4]، ولكنّ سنّة الله باقية، ولن تجد لسنّة الله تبديلا، ولن تجد لسنّة الله تحويلا، حتّى قال عمر بعدها الله ورسوله أعلم . والقصّة كاملة موجودة في كتب السير .

---

[1]ـ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج 1، ص 169 .
[2]ـ حافظ اسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 89 .
[3]ـ محمد بن اسماعيل البخاري، صحيح البخاري ، حديث رقم 4732، ج 3، ص 241
[4]ـ علي محمد الصلابي، السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار التوزيع والنشر الاسلامية، مصر، ط 1، سنة 2001، ج2، ص 267.

ب ـ اسم الفاعل عند البشير الإبراهيمي :

جاء في بيان بعنوان (نصيحة دينية) ما يأتي :" والمفطر يرمي الصائم بالشناعات " [1]، حيث يتحدث الشيخ في هذه الفقرة عن اختلاف المسلمين في يوم العيد، وقد كان هذا شائعا في الجزائر إلى زمن قريب، فكان من أبناء الجزائر من يصوم بصوم إخواننا في السعودية ويفطر بفطرهم، فيكون في البيت الواحد صائم ومفطر، وكلّ يشنّع على الآخر، وجاء الشيخ باسمي الفاعل (المفطر والصائم) من أجل أن ينقل الصراع الدائر بين الفريقين بصورة أوضح وبطريقة أجمل، وبعبارة أدق، فلا المفطر باق على فطره، ولا الصائم باق على صومه، ولكن حزازات القلوب باقية، وهي التي تقسم ظهر الأمّة وقديما قال الشاعر :

وقَد يَنْبتُ المَرْعَى عَلَى دِمَن الثَرى وتَبْقَى حَزَازَاتُ النّفُوسِ كَمَا هِيَا

وما كسر شوكة الأمّة، وشتّت وحدتها، إلاّ مثل هذه النظرات الضيّقة، والتعالم الفاضح، والفهم السقيم للدّين، والبعد الشاسع عن فقه الواقع، وما فُرضت العبادات، ولا كانت صلاة ولا زكاة إلا تجسيدا لروح الوحدة التي جاء بها الإسلام .

وقال في ذكر محمّد خطّاب الفرقان الآتي : " إنّنا كما نعدّ أخانا السيّد محمد خطّاب عصاميًّا مجدّدا في أعماله آخذا بالنّظام الدقيق في مشاريعه محافظا في إيمانه ووطنيّته" [2]، يتحدث الإبراهيمي في هذا المقال عن السيّد محمّد خطّاب، وهو من رجال الأعمال المسهمين في عمل جمعية العلماء، فخصّه بهذا الصنيع تعريفا به، واعترافا بإسهاماته، وتنويها بجميل فعاله، من باب قول النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : " من لم يشكر الناس لم يشكر الله " [3]، وجاء بأسماء الفاعل (مجددا وآخذا ومحافظا) من أجل إعطاء وصف دقيق وأحكام معبرة، حتّى يكبر الرجل في عيون أهل الجزائر مثلما كبر في عينيه، وحتّى يقتدي به رجال الأعمال وأصحاب الأموال إذا ما رأوا علوّ مكانته، وأهمية شخصيته، خاصّة عند علماء الجزائر فيكون هذا حافزا لهم ودافعا قويّا للتأسي والاقتداء .

---

[1] ـ أحمد طالب الابراهيمي، أثار الإمام البشير الابراهيمي، ج 2، ص 162 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 170 .
[3] ـ محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، ت أحمد محمد شاكر، دار الملتزم ، ط 2، ج 1، ص 339 .

وفي الغرض نفسه قال في حق الشيخ مبارك الميلي : " وأنا سائق لناشئتنا العلمية من حياة هذا الرجل عظة واحدة، وقائل فيها ما تحتمله كلمة قصيرة في صحيفة صغيرة " [1]، فهو يتحدث عن قامة علمية، وهامة أدبية قلَّ ما يجود الزمان بمثلها، ولذلك جاء باسمي الفاعل (سائق وقائل) واصفا بهما نفسه، ومعترفا بتقصيره في حق الرجل فمهما طال السوق وكثر القول يبقى مبارك الميلي أكبر من ذلك بكثير، فجريدة البصائر على الرّغم من كبرها وذيوع صيتها إلاّ أنّها صغيرة إذا قورنت بأعمال مبارك، ونستطيع أن نبي على وصف الشيخ باستعماله نائبي الفاعل عدّة أحكام منها :

ـ تواضع الشيخ البشير الإبراهيمي .

ـ ثقل الشيخ مبارك الميلي .

ـ اعتراف الجمعية بفضل رجالها .

ـ رابطة الحب والاحترام بين أعضاء الجمعية .

ولقد ختم الشيخ مقاله هذا بقوله : " وبهم نضرب الأمثال ليذّكر الغافل وينشط الخامل وإنّ في سير الأوّلين لذكرى للمقصّرين والغافلين " [2]، لقد ختم الشيخ بهذه الجملة مقالته، وهي مقالة عظيمة، تتحدث عن رجل عظيم، وعن سيرته العطرة، وتتحدث أيضا عن سعة اطّلاعه، وقوة إرادته، وجلادة عزيمته، وما ذكر الشيخ هذه الصفعات الناصعة، والشهادات المشرقة إلا محاولة منه أن تجد آذانا صاغية، وقلوبا واعية ولذلك استعمل اسمي الفاعل (الغافل والخامل) فعسى للغافل أن يفيق من غفلته، وعسى للخامل أن ينشط من سكرته، قال ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : " لكل عمل شِرَّة ولكل شرّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنّتي فقد اهتدي ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك " [3].

وقال في مقال آخر مسطّرا تحت مسمّى بلاغ إلى الأمّة الجزائرية : " إنّ الدستور الذي وضعته الحكومة الفرنسية للجزائر ووافق عليه برلمانها في أكتوبر 1947 هو دستور

[1] ـ أحمد طاب الإبراهيمي،آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 2 ص 184 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 186 .
[3] ـ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، س 2000، ج 1، ص 131 .

ناقص من جميع جهاته لم يحقّق رغبة واحدة من الرغائب الوطنية للجزائر " [1]، في هذا دلالة على اهتمام الشيخ بقضايا الوطن على مختلف الأصعدة الدينية منها والسياسية وغيرها، فهو ينتقد ما كان يعرف في ذلك الوقت بدستور الجزائر، وهو مشروع إصلاحي جاء به رئيس فرنسا أوريال، محاولة منه لتطويق الحركات الوطنية، والحدّ من نشاطها، والذي كان يعده الشّيخ كنوع من ذرّ الرماد في العيون، وجاء باسم الفاعل (ناقص) حتّى يمسك العصا من المنتصف، فالقانون في ظاهره فيه بعض التنازلات من الحكومة الفرنسيّة، وهذا في حدّ ذاته إنجاز وجب الاهتمام به والالتفات إليه، وكل ناقص إنّما يحتاج الكمال، فالشّيخ لم ينتقد القانون وإنّما ينتقد ما سكت عليه القانون .

وقال في مقال موسوم بـ (ذكرى عبد الحميد بن باديس الثامنة) : " ونحن نبتهج بكل عامل للعلم ساع في تعليم الأمة معتقد أن العلم وحده هو سلاح الحياة سبيل النجاة " [2]، يتحدّث الشّيخ في هذه الفقرة عن حقيقتين هامّتين، وأمرين متلازمين، عن صفة وموصوف وعن سعي الثّاني في تحصيل الأوّل إنّهما العلم والعالِم، فلا حياة للأمم إلاّ بهما، وجاء بأسماء الفاعل (عامل وساع ومعتقد) حتّى يبيّن عدّة من الحكم، وجملة من الحقائق، فالعلم الذي لا ينفع صاحبه ليس بعلم، والعالم الذي لا ينفع النّاس بعلمه ليس بعالم، ولذلك لابد من العمل والسّعي، ولابد أيضا من معرفة أهميّة العلم بالنّسبة للأمم، ويمكن أن نقف على بعض من هذه الحكم من خلال أسماء الفاعل التي ساقها الشيخ :

ـ أهمية العلم بالنسبة للنهوض بالأمم .

ـ لا قيمة للعلم دون العمل .

ـ لابدّ للعالم أن ينتفع النّاس بعلمه .

ـ الاعتقاد بأهمّية العلم يدفع النّاس إلى سلوك طريقه .

ـ الاعتقاد بأهمية العلم يدفع العالم إلى البذل والعطاء .

---

[1] ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الابراهيمي، ج 2 ، ص 190 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 198 .

وقال في كلمة ألقاها في باكستان في مؤتمر العالم الإسلامي سنة 1952 : " ولها في العالم الإسلامي عارفة تجلّ عن الشكر، وهي إحياء البيان العربيّ في وطن رماه الاستعمار الفرنسي برطانات[1] غريبة ... " [2]، في هذا المقبوس يشيد الإبراهيمي بجمعية العلماء الجزائريّين، ودورها الفاعل في المجتمع الجزائري، فلو لم يكن لها دور غير حفاظها على اللّسان العربي لكفاها فخرا، وأغناها شرفا في الزّمن الذي جنّدت فيه فرنسا أتباعها، وأغرت سفهاءها، من أجل القضاء على العربيّة وإحلال الفرنسية مكانها، ولم تألُ جهدا ولم تبخل بمال ولا نفس في سبيل ذلك، ولذا جاء الشيخ باسم الفاعل (عارفة) حتّى يثبت من خلاله العمل الذي قامت به الجمعية من أجل الحفاظ على العربيّة، وجهودها لا يمكن أبدا أن يختلف عليها اثنان، ولا أن يتناطح عليها كبشان، وكأنّ العالم كلّه معترف بهذا الجهد الكبير الذي يبذله رجال الجمعيّة، فقد حاولت السيطرة على المساجد، وفتحت المدارس والمعاهد، وسخرت المجلاّت والجرائد، وهذه حقائق يقرّ بها العدو قبل الصديق .

وما يؤكد ذلك ما قاله في استجواب لصحيفة باكستانية سنة 1952 : " لذلك لم يبق في الجزائر كبير ولا صغير إلا وهو واقف من الاستعمار موقف العداوة متربص به دوائر السوء، عامل بما استطاع . ولو بالنيّة . على قطع دابره " [3] . وفي هذا إشارة إلى موقف الشعب الجزائري من المستدمر الغاشم، الذي عاث فسادا في الأرض، أهلك الحرث والنّسل، قتل الطفل والمرأة والشّيخ، ولم تشهد ساحة العالم أشنع من غطرسته، ولا أفضع من جرائمه، فكان الطّفل يولد ومعه الحقد على هذا الظّالم المستبد ويكبر وقد رضع حليب العداء لهذا الدّخيل، فجاء الشّيخ بأسماء الأفعال (واقف ومتربّص وعامل) حتّى يعطي وصفا دقيقا لحالة الشّعب، وما يشعر به تجاه الاستخراب الفرنسي، ويمكن أن نسطّر تحت معاني أسماء الأفعال جملة من الحكم ومجموعة من التصوّرات :

- إنّ عداء الشعب للمستدمر الفرنسي فطرة يولد عليها الطفل .

- التفكير في تحرير الأرض هاجس كل مواطن حر .

---

[1]- رطن الأعجمي : تكلم بلغته، رطانة كلمه بها أو كلمه بكلام لا يفهمه ... ينظر كتاب المعجم الوافي، ص 352

[2]- أحمد طال الابراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 76 .

[3]- المصدر نفسه، ج 4، ص 87 .

ـ وضوح نوايا المستدمر الفرنسي لا يمكن أن تخدع الشعب الجزائري .

ـ إنّ هذا الوقوف وهذا التربّص لا يمكن أبدا أن يستمر فلابد من ساعة الصفر ولحظة انطلاق الثورة واندلاعها .

ـ إنّ الثورة إذا اندلعت فالشعب الجزائري سيحتضنها ويتبنّاها .

وحين يتحدّث عن الأعياد بين العادة والعبادة يقول : " فلو وصف العيد نفسه وصف الخائل المزهوّ، وخلع على نفسه كلّ ما انتهى إليه خيال الشعراء، لكان مقصّرا عن الغاية ممّا وصفه الإسلام به، ولكان نازلا عن المنزلة التي وضعه فيها " [1] . ممّا سبق تظهر القيمة التي أعطاها الإسلام للعيد، فلو وقف العيد خطيبا، ووصف نفسه وصف الأديب، واستحضر صفة العجب والخيلاء، ولسان الحكماء والشعراء، لكان كلامه هذرا، ووصفه لغوا، مقابل ما خصّه به الإسلام من فضائل، وما أحاطه به من كرامة وشمائل، وجاء باسم الفاعل (الخائل)[2] متصوّرا العيد إذا قام بنفسه هذا المقام، وجاء باسمي الفاعل (مقصّرا ونازلا) حتّى يعطي المفارقة بين ما خصّ به العيد نفسه لو قام مختالا متفاخرا، وبين ما أعطاه الإسلام وميّزه به، فمهما نسب لنفسه من شرف، ومهما نسب لنفسه من قدر سوف يبقى تقدير الإسلام له أكبر، وتفضيله له أعظم، ومن هنا تتمايز العادة عن العبادة، وتتّضح الحقيقة من وراء السراب .

2 ـ 2 : اسم المفعول :

أ ـ تعريفه :

اسم المفعول : اسم يدلّ على الذي وقع عليه الفعل : " اسم المفعول صفة تؤخذ من الفعل المجهول، للدلالة على حدث وقع على الموصوف بها على وجه الحدوث والتجدّد، لا الثبوت والدّوام : كمكتوب وممرور ومكرم ومنطلق به " [3]، فمكتوب : تدلّ على الذي وقع عليه فعل الكتابة، ومُكْرَمٌ : يدل على الذي وقع عليه فعل الكرم، " اسم المفعول : اسم مصوغ

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 292 .
[2] ـ الخائل الشاب المختال، ينظر المعجم الوسيط، ص 213 .
[3] ـ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج 1، ص 182 .

من مصدر الفعل المبنيّ للمجهول للدلالة على من وقع عليه الفعل " [1]، وفي الحقيقة هذه مسألة خلافية بين النحويّين، فاتّفقوا على أنّ اسم المفعول (مشتقّ) واختلفوا في أصل اشتقاقه فذهب طائفة على أنّه مشتقّ من الفعل، وذهبت طائفة على أنه مشتقّ من المصدر، " اسم مشتق يدلّ على معنى مجرّد غير دائم وعلى الذي وقع عليه هذا المعنى فلابدّ أن يدلّ على الأمرين معا، وهما المعنى المجرّد وصاحبه الذي وقع عليه " [2]، (غير دائم) قيد خرج به عن مشابهته للصفة المشبّهة، فالأصل في اسم المفعول أن يقتصر زمنه على الحال، ولا يمتد إلى المستقبل ولا يرجع إلى الماضي إلاّ بقرينة تثبت ذلك فاسم المفعول (مُهَدَّمٌ) مثلا تعني أنه مُهَدَّمٌ في الحال، لكن هل كان مهدما في الماضي أو سيبقى مهدما في المستقبل فهذا لا يثبت إلا بقرينة كقولنا مُهَدَّمٌ منذ الأزل أو مُهَدَّمٌ أبدا، ويدلّ اسم المفعول على المعنى الذي قُصد، ويدلّ أيضا على من وقع عليه هذا المعنى، فمُهَدّمٌ تدلّ على معنى التّهديم وتدل على الشيء الذي وقع عليه التّهديم، قد يكون منزلا أو قصرا أو حائطا ... وهذا معنى قوله وعلى الأمرين معا .

ويصاغ اسم المفعول من الفعل الثلاثي علي وزن (مَفْعُول) فنقول أُكِل الخبز فهو مَأْكُولٌ وشُرِبَ الماء فهو مَشْرُوبٌ قال تعالى :﴿ **وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ** ﴾ (سورة الصافات، آية 24) هذا في الأصل لكن هناك صيغ أخرى جاءت على أوزان سماعية تنوب عن اسم المفعول : " وقد وردت صيغ سماعية تؤدي ما يؤديه اسم المفعول المصوغ من مصدر الثلاثي وليست على وزنه فهي نائبة عن صيغة مفعول في الدلالة على الذات والمعنى " [3]، ومن تلك الصيغ (فَعِيل وفِعْلٌ وفَعَلٌ وفُعْلَةٌ) وهي صيغ سماعية وليست مقيسة .

ويصاغ من غير الثلاثي على وزن مضارعه المبني للمجهول مع إبدال حرف المضارعة ميما مضمومة وفتح ما قبل آخره، فنقول احترم الطالب شيخه فشيخه مُحْتَرَمٌ، دحرج الشيء فهو مُدَحْرَجٌ قال تعالى : ﴿ **بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ (سورة يس، آية 27)، وفتح الحرف ما قبل الآخر يكون في الغالب ظاهرا، وقد يكون مقدّرا في القليل : " فتح

[1]- محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي، ص 105 .
[2]- عباس حسن، النحو الوافي، ص 271 .
[3]- عباس حسن، النّحو الوافي، ج 3، ص 273 .

الحرف الأخير قد يكون ظاهرا كالأمثلة السابقة، وقد يكون مقدّرا مثل : مستعان ومنقاد أصلهما مُسْتَعْوَنٌ ومُنْقَوَدٌ فقلبت الواو ألفا بعد فتح ما قبلها بنقل حركتها إليه " [1] .

ب ـ اسم المفعول عند البشير الإبراهيمي :

لقد كان الشيخ الإبراهيمي وهو أمير البيان ومالك ناصيته يكثر من الوصف خاصة باستعمال اسم الفاعل واسم المفعول، ومن النّادر جدّا أن تعدم واحدا من الاسمين في أيٍّ من خطبه أو مقالاته، الأمر الذي صعّب إحصاءها جميعها، ولذلك اكتفيت بذكر بعض الأمثلة .

جاء في خطاب موسوم بـ (من عاذري) : " إنّني أجدني في الخطابة مأخوذا بالمغافصة، وهي لا تدع المجال للرويّة والتحكيك وعرض الأساليب واختيار أحسنها، وقد يعين المرتجل على الارتجال شعوره بأنّ الارتجال مصحوب بالعذر " [2]، يبيّن في هذه الفقرة الفرق بين الارتجال والكتابة، فقد كان رحمه الله أفصح أهل زمانه إذا خطب سلب العقول، وسبى الأرواح، وطاوعته العربيّة وألقت إليه زمامها، ولو شاء تكلم دون انقطاع وجاء باسم المفعول (مأخوذا) حتّى يبيّن هذه الحقيقة، ويقر بهذه المزيّة، ويقصد بالمغافصة " المفاجأة والأخذ على غرّة " [3]، وهذا بخلاف كتاباته فقد يحجم عن الكتابة أحيانا لشهور، مع أنّها من أحب الأشياء إليه وأقربها إلى قلبه، واستعمل اسم المفعول (مصحوب) حتّى يوضّح السّبب، ويرفع اللوم والعتب، لمن أراد أن يعقد مقارنة بين خطب الشيخ ومقالاته، ويمكن أن نسطّر تحت اسمي الفاعل اللذين ساقهما جملة من الأسباب ترجع بالأصل إليهما، وتتفرع عن المقصود من خلالهما :

ـ يجد الشيخ راحته في الخطابة دون الكتابة، مع أنّه يفضل الثّانية على الأولى .

ـ تحتاج الكتابة إلى الهدوء والمراجعة والتحكيك، لأنّ سهام النقد تكون أكثر توجيها إليها .

ـ يعذر الخطيب إذا أخطأ لأنّه سلطان الزّمن عليه غالب بخلاف الكاتب .

---

[1] ـ عباس حسن، النحو الوافي، ج 3، ص 273 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 317 .
[3] ـ ينظر كتاب المعجم الوسيط ، ص 657 .

ـ الإحساس بالتماس العذر من النّاس يدفع الخطيب إلى الإكثار والارتجال بخلاف الكاتب .

ويواصل على هذا المنوال الحجاجيّ كما نلحظ ذلك في مقال موسوم بـ (تصحيح الجهاد) : " أتدرون لم يغضب النّاس من وصفهم بالمكروهات ولو كانت موجودة فيهم ولا يغضبون لوصفهم بالمحبوبات إذا كانت مفقودة منهم ؟ " [1]، وهذا سؤال مهمّ جدّا طرحه الشّيخ بطريقة ذكيّة، واستعمل في ذلك أربعة أسماء مفعول حتّى يقع السؤال على موقع الجرح، ويتحسّس مواطن الألم، والمكروه مكروه قبل وجود الإنسان، ولكنّ فعله يتحكم فيه الإنسان، والتصاقه به إنّما هو التصاق إرادة، ولقد عزا الشيخ جواب هذا السؤال إلى أربع نقاط (ضعف التربية الأخلاقيّة، بعد المسافة بين القول والعمل، اختلال الموازين العقليّة، نسيان الواقع) ولكن من خلال هذا السؤال ومن خلال استعماله لأسماء المفعول (مكروهات، موجودة، محبوبات، مفقودة) يمكن أن نضع عدة أسباب ومجموعة من الأحكام :

ـ إنّ المكروه شيء قبيح ولا يحبّ أحد أن يوصف به .

ـ إنّ المحبوب شيء جميل يحب كلّ شخص أن يوصف به .

ـ النّفس تكره القدح وإن كان صاحبه فاعلا له .

ـ النّفس تميل إلى أن تحمد بما لم تفعل .

وفي هذا الصدد قال الشيخ في موضع آخر : " لو أنّ المواعظ كلها سُكبت في أذن الغنيّ المنعم الذي لم يجع في حياته، واصفة له الجوع وآلامه وما يلقاه الجائع المحروم من ذلك، لما بلغت من نّفسه عشر ما تبلغه جوعة يـوم طويل " [2]، يبيّن في هذه الفقرة الفرق بين العمل والتطبيق، وبين القول والفعل، وجاء باسمي المفعول (المنعم، والمحروم) حتّى يعطينا وصفا أدقّ، وبيانا أجمل، فإذا كان الفقير مُعدما فهو محروم على الرّغم منه، ولكن عظم البلاء وقمّة الجهد والعناء، أن يكون الغني هو المحروم مع أنّه يملك ما يغنيه عن ذلك ولكن أمر الله منعه وحال بينه وبين ذلك، هناك فقط يحس الغنيّ بحاجة الفقير، ويعرف حقيقة

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، 305 .
[2] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 308 .

الحرمان، وتكون الموعظة العملية أنفع والتطبيق الفعليّ أنجع، وهذه من أهم الفوائد وأجمل الدّروس التي يحقّقها الصيام .

ولقد وجّه الشيخ رسالة إلى الأستاذ خليل مردم بك ممّا جاء فيها : " حضرة معالي الوزير شيخ أدباء هذا العصر الأستاذ خليل مردم بك المحترم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته : بلغتني رسالتكم البرّة فدلّتني على موطن مأهول من مواطن كرمكم وفضلكم، وما هو بالمجهول عندي ولكنّه كان مغمورا في نفسي بأشياء من جنسه " [1]، وهذه رسالة أخرى من رسائل الاعتراف بالجميل، وتقدير الجهد، ومعرفة قيمة الرّجال كتبها الشيخ ردًّا على مراسلة الأستاذ خليل مردم بك وزير الجمهورية العربيّة السوريّة ورئيس مجمع اللّغة العربية بدمشق، يطالب فيها الشيخ بالانضمام لهذا الصّرح اللّغوي، فجاء بأسماء الأفعال (المحترم ومأهول بالمجهول ومغمورا) من أجل أن ينقل ما في الوجدان، ويخرج ما في الجنان، ويعبّر عن السعادة والامتنان، ويقابل الإحسان بالإحسان، ويمكن أن نسطّر تحت هذه الأسماء مجموعة من القيم وجملة من الأسباب :

ـ منزلة الإبراهيمي عند علماء الأمّة .

ـ احترام الشيخ الكبير لخليل مردم بك .

ـ الحبّ المتبادل والمشاعر الموحّدة بين علماء الأمة .

ـ أصحاب الهمم العالية يرفع الله ذكرهم ويعلي قدرهم على قدر عملهم وإخلاصهم .

ـ اهتمام الشيخ باللّغة العربية وحرصه على خدمتها .

ـ معرفة قدر الرجال من شيم الصالحين وأخلاق العاملين .

وفي حديث لأحد المراسلين طلب من الشيخ التكلّم عن اتحاد المغرب العربي : " من العجز والإضاعة أن نردّ كل لومنا على الاستعمار ومن الخور والضّعف أن نتراد الملامة وأن

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، 304 .

نتعلّل في كل واجب ندعى إلى إقامته وفي كل مكروه ندعى إلى دفعه بالاستعمار " [1]، وهذا حديث صريح عن الخور الذي أصاب أمّة الإسلام، وتعليل العجز والكسل بسبب الاستدمار، وكأنّه قضاء وقدر، ومحنة وبلاء، يجب الصبر عليها، وعدم الجزع منها، بل وصل الأمر إلى ربط كل مكروه بالاستدمار، فإذا ضاق العيش فالاستدمار هو السبب، وإذا انعدم الخلق فالاستدمار هو السبب، وإذا مرض الطفل فالاستدمار هو السبب، وإذا حرنت الدّابة فالاستدمار هو السبب، ولذلك جاء الشيخ باسم المفعول (مكروه) حتّى ينبّه إلى حقيقة أبدية وقضية أزليّة : ﴿ **إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ (سورة الرعد، آية 11) ، والمكروه في الأصل كل ما تكرهه النّفس، ولن يزول هذا المكروه إلا إذا عولجت هذه الأمراض من النّفوس، وأزيلت من العقول والقلوب .

وفي كلمة كتبت في باكستان سنة 1952 جاءت تحت عنوان (أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام) : " أمّا الدهشة فإنّ صاحبها معذور مهما كان، وأمّا الغرابة فكل وارد جديد على السّمع أو على الذهن يستغرب، ولكنّه إذا تكرّر وكثر ترداده أصبح مأنوسا " [2]، وهو يشير هنا إلى غرابة العنوان الذي اختاره لهذه الكلمة، وساق العذر لكل من كان هذا شعوره، وجاء باسم المفعول (معذور) حتّى يظهر سبب الدهشة، ويزيل وجه الغرابة ويلتمس العذر، ويرفع اللبس، فكل جديد منبوذ، وكل حديث مرفوض، ولكنّ عذره في طرح هذا الموضوع هو رجاء تكراره، وإعادته واجتراره، حتّى يألفه النّاس، ويعتاده المجتمع، وجاء باسم المفعول (مأنوسا) حتّى يوصلنا لهذه الحقيقة، ونقر بهذه الوجهة، وهذه سنّة من سنن الكون، فإن كان الشعر الحرّ منذ زمن قريب قد قوبل بالعداء، ورموه بالقصور والشذوذ، فإنّ اليوم قد صار له أنصارا، وفرض نفسه في الساحة الأدبيّة، ويمكن أن نأخذ من اسمي المفعول عدّة حكم ومجموع أسباب وعلل :

- إنّ التّضحية من أهمّ أسباب النجاح .

- الإيمان بالفكرة هي وقود هذا النجاح .

---

[1]- المصدر السابق، ج 4، ص 301 .
[2]- المصدر السابق، ج 4، ص 65 .

ـ كلّ طرح جديد وفكرة حديثة قد تقابل بالرفض والعداء .

ـ الأمر إذا تكرّر دخل في حكم الإلف والعادة .

وعن وظيفة علماء الدّين يقول : " فقد كانوا يقذفون بكلمة الحقّ مجلجلة على الباطل فإذا الحقّ ظاهر وإذا الباطل نافر ويقذفون بعزائمهم في مزدحم الإيمان والكفر فإذا الإيمان منصور وإذا الكفر مكسور "[1]، وفي هذا تنويه إلى دور العلماء الربانيّين في قيادة الأمّة، والنّهوض بها من كبوتها وإيقاضها من سكرتها، وتنبيهها من غفلتها، هذه الربانية التي كانت لهم بفضل الإخلاص الذي لازمهم والعمل الدؤوب الذي رافقهم، والعزيمة والإرادة التي كانت شعارهم، ومن كان هذا حاله كتب الله له القَبول في الأرض : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ ءامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا**﴾ (سورة مريم، آية 96) ، وجاء باسمي المفعول (منصور ومكسور) حتّى يعطي للعلماء هذه المزيّة فلولا الجهاد الذي قاموا به، والعمل الذي داوموا عليه لما كان هذا النّصر المبين، فالأمّة إذا خضعت للظّلم وخنعت للظّالم، واستكانت للواقع فلا ترجو لها فلاحا، ولا تنتظر منها نجاحا، ويمكن أن نسطّر عدّة أحكام تندرج تحت اسمي المفعول منها :

ـ الربّانيّة شرط أساس للقبول والتوفيق والسداد .

ـ لن يقود الصحوة إلا علماء الأمّة .

ـ الصحوة إذا قادها العلماء فإن الفلاح رفيقها والنجاح صديقها .

ـ لابد من العمل والزرع حتّى ننتظر النتائج والحصاد .

ـ القوّة في قول الحقّ والصبر على الأذى من أهمّ شيم العلماء .

ـ لا بد لكلمة الحق من ثمن ولا بد للثمن من جزاء .

ـ من عرف الحق لا يستطيع أبدا أن يسكت على الباطل .

[1]ـ المصدر السابق ، ج 4، ص 113 .

2 ـ 3 ـ الصفة المشبّهة :

أ ـ تعريفها :

هي وصف مشتقّ تدلّ على من قام به الحدث، فيها معنى اسم الفاعل، ولذلك فهي مشبّهة به : " صفة تؤخذ من الفعل اللازم . وقد تصاغ من المتعدي صوغا قياسيّا . للدلالة عل معنى قائم بالموصوف بها على وجه الثبوت لا على وجه الحدوث : كحسن وكريم وصعب وأسود وأكحل " [1]، فالصفة المشبّه لصيقة بالموصوف، دائمة الإلف معه، لا تقترن بزمان ولا يحدّها أوان، فإن قلت فلان كريم : فهو كذلك الأمس واليوم وغدا، وإذا قلت فلان طويل : فهو طويل بالأمس وطويل اليوم وطويل غدا، وكذا الأسود والأكحل .... وغيرها، وقيل : " الصّفة المشبّهة هي التي استحسن فيها أن تضاف لما هو فاعل في المعنى كـ : (طاهر الدخلة) و (حسن الطوية) " [2]، قال تعالى في محكم تنزيله : ﴿ **فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ** ﴾ (سورة هود، آية 11)، فعدل سبحانه وتعالى عن قول (ضيّق) التي تفيد الثبوت والديمومة إلى قوله جل وعلا (ضائق) للدلالة أنّها حالة مؤقتة وظرف آني، قال القرطبي : " قال : ضائق ولم يقل : ضيّق ليشاكل تارك الذي قبله، ولأنّ الضّائق عارض والضيّق ألزم منه " [3] .

ـ الفرق بين اسم الفاعل والصفة المشبّهة :

كنت قد ذكرت أهمّ فرق بين اسم الفاعل والصفة المشبهة عند الحديث عن اسم الفاعل وأيضا عند بيان ما خصّت به الصفة المشبهة وهي أمور خمسة [4] :

ـ أنّها تصاغ من اللاّزم دون المتعدي كـ حسن وجميل واسم الفاعل يصاغ منهما كـ قائم وفاهم

ـ أنّها للزمن الماضي المتصل بالحاضر الدائم دون الماضي المنقطع والمستقبل، واسم الفاعل لأحد الأزمنة الثلاث .

---

[1]ـ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج1، ص 185 .
[2]ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 211 .
[3]ـ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م 5، ج 9، ص 12 .
[4]ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 212 .

ـ أنّها تكون مجارية للمضارع في حركاته وسكناته كـ طاهر القلب ومستقيم الرأي ومعتدل القامة وتكون غير مجارية له وهو الغالب في المبنية من الثلاثي كـ جميل وضخم وملآن ولا يكون اسم الفاعل إلا مجاريا له .

ـ أنّ منصوبها لا يتقدّم عليها بخلاف منصوب اسم الفاعل .

ـ أنّه يلزم أن يكون معمولها سببيّا أي اسما ظاهرا متصلا بضمير موصوفها إمّا ظاهرا نحو ابراهيم كبير عقله وإمّا معنى نحو أحمد حسن العقل أي منه .

ـ صيغها :

جاء في كتاب جامع الدّروس العربية : " تأتي الصفة المشبّهة من الثلاثي المجرّد قياسا على أربعة أوزان : (أفْعَل، وفَعْلانٌ، وفَعِلٌ وفَعِيلٌ) " [1].

ـ على وزن أَفعَل : كـ أحمر وأعور وأنجل .

وهذه صفات ثلاث كل صفة تمثّل نوعا مستقلا ؛ فالأحمر لون من الألوان ومؤنثه حمراء على وزن فعلاء، والأعور عيب ظاهر من العيوب، وأنجل حلية أو صفة جمالية ظاهرة والأنجل هو كبير العين وواسعها، ولذلك يقال إن الصفة المشبهة التي تأتي على وزن أفعل هي التي : " تدلّ على لون أو عيب ظاهر أو حلية ظاهرة " [2] .

ـ على وزن فَعْلان : كـ شبعان وعطشان ولهفان .

ويقصد بها : " كل صفة دلّت على خلو أو امتلاء أو حرارة باطنية ليست بداء " [3] فشبعان مثلا صفة باطنية لكنها ليست داء وإنّما هي حالة نفسية .

ـ الصفة المشبهة على وزن (فَعِل) : كـ وجع ومغص وشرس وقلق .

---

[1] ـ مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، ج 1، ص 186 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 187 .

مثلها مثل التي قبلها : " الدالّة على الأدواء الباطنيّة . الجسمية والخلقية . أو ما يشبهها أو ما يضادها ومؤنثه فَعِلَة " [1]، ويقصد بما يشبهها الصفة التي تدل على الحزن والغم كـ حزِن، وما يضادّها أي ما يضادّ الحزن وهو الفرح والسرور كـ فرِح .

ـ الصفة المشبّهة على وزن (فَعِيل) : كـ كريم وحليم وقد تأتي على فَعِل : كـ خَشِن .

ـ الصفة المشبّهة من غير الثلاثي تأتي على وزن اسم الفاعل .

ب ـ الصفة المشبهة عند البشير الابراهيمي :

قال الشيخ في حقّ مبارك الميلي : " صحيح الإدراك لفقه الكتاب والسنّة واسع الاطّلاع على النّصوص والفهوم، دقيق الفهم لها والتمييز بينها والتطبيق لكلّياتها " [2]، لقد كان الشيخ مبارك الميلي قطبا علميّا، وقامة أدبيّة، ومؤرّخا فذّا، وفحلا من فحول العلماء ومثالا للاجتهاد والمثابرة، وعلما بارزا في جمعية العلماء، له مكانة عند رجالها، وحظوة عند رؤسائها، ولذلك كلّما تحدث عنه الشيخ جرى لسانه بالمديح، وانطلق بنانه بالثناء، فهو الذي خبر علمه، وجرّب حاله، وعرف خصاله، فجاء بهذه الصفات، وعدّد هذه الخلل، بغية أن يصل من خلالها إلى حكم خفية وأخرى جليّة :

فقال : صحيح ـ على وزن فعيل ـ الإدراك لفقه الكتاب والسنة، ويمكن أن نبني عليها ما يأتي :

ـ الشيخ مبارك الميلي من علماء الكتاب والسنّة .

ـ أنّه يوافق الشيخ الإبراهيمي في المنهج والطرح، وإلا لما حكم عليه بصحّة الإدراك .

ـ أنّه من المجتهدين القلائل الذين يميل إليهم الإبراهيمي، فقد كان يكره الجمود والتقليد .

ـ في هذا الوصف دعوة للأمّة للالتفاف بالشيخ مبارك الميلي، والأخذ من علمه فكان هذا الوصف بمثابة إجازة .

---

[1] ـ المرجع السابق، ص 188 .
[2] ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 183 .

ثمّ قال : دقيق . على وزن فعيل . الفهم، وهذه شهادة في حد ذاتها دقيقة ويمكن أن نسطّر تحتها الآتي :

ـ أنّ مبارك الميلي ضليع باللّغة ومتّقد البصيرة .

ـ إجازة ضمنيّة وشهادة لحث النّاس على الأخذ من علمه فالرّجل دقيق في فهمه ونقله .

ـ الدقّة أيضا معناها التروّي والثّقة .

وقال فيه أيضا : " فقدته دواوين الكتابة ففقدت كاتبا فحل الأسلوب جزل العبارة لبقا بتوزيع الألفاظ على المعاني طبقة ممتازة في دقّة التصوير ... " [1]، وانتقل في هذه الفقرة إلى الحديث عن أسلوب الميلي في الكتابة فجاء بالصفات (فحل، وجزل، ولبقا) على وزن فعل حتى ينتج عن ذلك عدة أحكام :

ـ فمبارك الميلي متفرّد في أسلوبه ليس متأثّرا بأحد ولذا قال فحل الأسلوب .

ـ يمتاز أسلوبه بالبساطة فهو بعيد عن التعقيد ويميل إلى السهل الممتنع .

ـ تملكّه لزمام اللّغة ولذا فهو يحسن إلحاق الألفاظ بالمعاني .

ـ كان كاتبا فحلا، وكتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث شاهد على ذلك .

ـ ويمكن أن نّفهم من كل هذا السياق دعوة الأمّة إلى القراءة للشيخ مبارك الميلي .

وقال أيضا في بيان فضل الفضيل الورتلاني : " فنشأ مؤمنا متين العقيدة، حرّا عميق الفكر، صريحا لاذع الصراحة، جريء اللّسان على كلمة الحقّ شجاع الرأي ... " [2]، يتحدث الشيخ عن قامة علمية أخرى، وهامة أدبيّة وخطيب فحل، إنّه الفضيل الورتلاني المجاهد المسافر، وأحد مؤسّسي جمعية العلماء، ورئيس فرعها في فرنسا ثمّ في مصر من خرّيجي الأزهر، وممّن صاحب حسن البنا فكان رفيقا له، ويخلفه في المحافل والمجامع لما أعطاه الله

[1] ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 329 .

من فصاحة اللّسان، وقوّة البيان، فجاء الشيخ بهذه الصّفات حتّى يوضّح قيمة الورتلاني الأدبيّة، وملكته العلميّة ويمكن أن نسطّرها في النقاط الآتية :

. الإيمان الصّادق الناتج عن العقيدة المتينة فقد قضى الشيخ كل حياته خدمة للعلم والعلماء .

. الفكر الرّاقي الذي اكتسبه الورتلاني من كثرة أسفاره ومخالطته للعلماء من مختلف الأقطار .

. الصراحة في الموقف وصفاء القلب الذي لا يعرف النّفاق ولذا قال لاذع الصّراحة .

. الجرأة في قول الحقّ فلا يخاف في الله لومة لائم .

. الشجاعة في المواقف فقد تبنّى فكر الجمعية في معقل العدو (باريس)، وتبنّى الفكر الإخواني في مصر معارضا الحكومة المصرية في عقر دارها .

وكانت هذه الأوصاف تزكية من الشيخ للفضيل الورتلاني، ودعوة للالتفاف به، وتعريفا وتنويها بفضله وعلوّ كعبه، ولقد كانت هذه الأوصاف في حدّ ذاتها حججا دامغة، وبراهين ساطعة، تدل على قيمة الرجل وفضله على العباد والبلاد .

وينتقل في موضع آخر إلى وصف عبد الكريم جرمانوس فقال : " الدكتور عبد الكريم جرمانوس مسلم، مجريّ الأرومة، شرقيّ النزعة، نشأ جبّار الذّهن، سليم الفطرة، نيّر الفكر " [1]، فهو يشير إلى عالم هداه علمه للإسلام، ومستشرق هدته فطرته لاتّباع خير الأنام ذلك هو الدّكتور عبد الكريم جرمانوس كما سمى نفسه بعد إسلامه، قضى سنوات طويلة وهو يقرأ عن الإسلام، وسافر إلى أرض المشرق ليطالع أحوال المسلمين، وأعلن إسلامه في دلهي بعد سنوات من البحث، وأتقن في سبيل ذلك أكثر من عشر لغات، ففاقت همّته الجبال صلابة، وسمت إرادته فوق السحاب علوّا وارتفاعا، عاش حياته خدمة للعلم ودعوة لدين الحقّ، درّس التاريخ الإسلامي في الجامعات الأوربية فكان خير سفير للإسلام، وأفضل نصير للمسلمين، ويمكن أن نستنتج تحت الصفات التي ساقها الشيخ عدّة حكم :

. اعتراف الشيخ بالقيمة العلميّة والدعويّة للدكتور عبد الكريم .

[1]. المصدر السابق،ج2، ص 391 .

ـ أهمية المكانة الدعويّة التي يحتلها عبد الكريم في العالم الإسلامي .

ـ الهمّة العالية التي يملكها الدكتور فقد أتقن أكثر من عشر لغات ولذا وصفه بجبّار الذهن .

ـ طول النّفس وعدم اليأس والموضوعيّة في البحث فقد قضى سنوات طوال إنطلاقا من صورة لمسجد رآها في أحد المجلاّت هدته بعد كل هذه السنوات للإسلام .

ـ محبّة الدكتور لأهل المشرق فقد تأثّر بأخلاقهم ومعاملاتهم ولذا وصفه الشيخ بشرقيّ النزعة .

ـ الفطرة السليمة لرجال العلم المخلصين التي تقودهم دائما إلى الطريق الصحيح .

ـ كانت هذه الصفات دعوة ضمنية للمسلمين للتمسك بدينهم فهو دين الفطرة السليمة .

وحين يتحدّث عن الطّاهر بن عاشور يقول : " الأستاذ الأكبر الشيخ الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدّهم التّاريخ الحاضر من ذخائره، فهو إمام متبحّر في العلوم الإسلاميّة، مستقلّ في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذّرع بتحوّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطّلاع على المنقول منها " [1]، يصف في هذا المقبوس مفسّرا كبيرا، ومحدثا فذّا، وعالما جهبذا، ومفكّرا عبقريا، من أهم علماء المغرب العربي، التونسي الأندلسي، شيخ الزيتونة، وصاحب التحرير والتنوير، الذي يعدّ من أجمل التفاسير، وأكملها في العصر الحديث، ولذا جاء الشيخ بمجمل هذه الصفات (علم، ومتبحر، ومستقل، وفسيح) حتّى يضعنا أمام شخصية قلّ ما يجود الزمان بمثلها، وحتى يقربنا من هذه الهامة، ويعرّفنا بهذه القامة، فمن عادة الشيخ الإقلال من المدح، والابتعاد عن التزلّف والتملّق، ولكنّ الطاهر بن عاشور ممّن عُرف فضله، ورفعه علمه، ويمكن أن نستخلص عدّة أحكام من خلال هذه الصفات :

ـ محبّة الشّيخ للمفسّر الطاهر بن عاشور .

ـ علوّ كعب علماء المغرب حيث فرضوا أنفسهم على الساحة العربيّة والعالميّة .

[1] ـ المصدر السابق، ج 3، ص 549 .

ـ الاطّلاع الواسع للأستاذ بن عاشور ولذلك وصفه الشيخ بمتبحّر .

ـ تمكن الأستاذ من اللّغة العربية وأصول الفقه وذلك واضح من خلال تفسيره .

ـ يعدّ الأستاذ بن عاشور من أهمّ المجتهدين في العصر الحديث، ولذلك وصفه الشيخ بقوله مستقلّ في الاستدلال لها .

ـ تقارب الأفكار بين علماء الأمّة حيث تشاركوا همومها وسعوا جاهدين من أجل النهوض بها .

ـ نفاذ البصيرة هبة إلهيّة وعطيّة ربانيّة يتكرّم الله بها على من يشاء من عباده، والأستاذ الطاهر بن عاشور واحد منهم .

وللشيخ أسلوب أخّاذ في الوصف ودقّة عالية في التشخيص ومن ذلك وصفه لعبد الحي الكتّاني : " وما زال الاستعمار مرزوقا بهذا النوع، فالرجل شريف أولا، وعريق في الشهرة ثانيا، وطرقي ثالثا، وعالم رابعا " [1] . فهو يتحدث هنا ـ في نظره وعلى لسانه ـ عن عالم لم ينفعه علمه، وشريف لم يردعه نسبه، خادم للاستدمار، ومستكين للاستخراب، قد جرّ الوبال للبلاد، وجاب الحسرات للعباد، لطالما رزق الاستعمار بأمثالهم، وعمّر طويلا في البلاد بفضل صمتهم وخذلانهم، شيخ من مشائخ الطرقيّة، وكلمة مسموعة للتخلّف والرجعيّة، ويقصد بكلامه عبد الحي الكتّاني، ولست أعرف من يقصد بالضبط، فالكتّاني الذي أعرفه هو من أبرز علماء المغرب العربي، من عائلة معروفة بالعلم والتصوف، أخوه عبد الكبير الكتّاني مؤسس الطريقة الكتّانية المحمّديّة، وكل الأوصاف التي ذكرها الشيخ تنطبق عليه فالرجل قد مات منفيّا في فرنسا، ويُشْهد له في بداية حياته أنّه كان من أشدّ النّاس عداوة للاستدمار الفرنسي، وأيّا من كان الذي يقصده الشيخ فإنّ الذي يهمّنا ما وصفه به، والذي جعل الإستدمار الفرنسي يتّكل عليه، ويستعين به، فهو (شريف، وعريق، وطرقي) ويمكن أن نستمد من هذه الصفات جملة من الحكم :

ـ بغض الشيخ لمواقف عبد الحيّ وأمثاله ممن يعتبرهم علماء السوء .

[1] ـ المصدر السابق، ج 3، ص 542 .

ـ النّسب الشريف ورقة رابحة يعمل عليها الطرقية لنشر أباطيلهم .

ـ الشهرة سلاح ذو حدين قد تجني على صاحبها .

ـ العلم الذي لا ينفع صاحبه يصبح وبالا عليه يوم القيامة .

ـ جرأة الشيخ البشير الإبراهيمي الذي أعلن موقفه دون خوف من عبد الحي الكتاني وأتباعه .

ـ التحذير من شرّ علماء السوء واجب العلماء الربانيين .

ـ بغض الشّيخ للطرقية وسعيه الحثيث لمحاربتها .

4 ـ تحصيل الحاصل :

قد يكون في الخطبة كلام ربما يعده بعضهم من الحشــو الذي لا فائدة فيه، ولا طائل منه، ومن التطويل الذي لا داعي له ولا خير فيه، ولكنّه في الحقيقة يؤدّي وظيفة جليلة ومهمّة نبيلة، فالخطبة كالبناء توضع فيه اللبنة على اللبنة لتشدّ أزرها، وتقوّي صلبها، وأحيانا يترك فيه بعض الفراغات حتّى يكون للنافذة موضعها، وللباب موضعه، هذا الفراغ يملأه المستمع من خلال الطريق التي رسمها الخطيب ، فيسوقه إلى المعنى الذي يريد استنتاجه، ويقوده إلى الفهم الذي يبغي الوصول إليه، وأحيانا أخرى يزاد في البناء بعض اللبن في أماكن مخصصة حتى يفضي عليه وجها جماليا، ووظيفة ثانوية، وكذا هو حال الخطيب يزيد في الخطبة بعض الكلمات والجمل والفقرات حتّى يعطيها لمسة جمالية، ويحمّلها معاني إضافية، وهنا تكمن مهارة الخطيب في تكرار بعض المعاني أو الاستقلال بتعريف محدّد أو السكوت على بعض الكلام وهذا ما يعرف بتحصيل الحاصل: " هناك من يعد بعض الخطابات مجرّد حشو أو تحصيل حاصل لا تقدم شيئا في الخطاب، والحقّ أنّ كل جزء في الخطاب يضطلع بدلالته الحجاجية "[1]، من أنواعه التمثيل وتكثير الذات بأوصاف مختلفة :

[1] ـ حافظ اسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 91 .

4 ـ 1 ـ التّمثيل :

ويقصد به تمثيل الشيء أو تعريفه، فقد يلجأ الخطيب إلى تعريف بعض ما يتناوله في خطبته، ولا شك أنّ أيّ شيء يتعدد تعريفه من شخص لآخر، ويتنوّع مجال تعريفه من أصحاب تخصّص إلى غيرهم، وهذا ما يحتّم على الخطيب اختيار تعريف محدّد يخدم من خلاله خطبته، ويتناسب مع مقام كلامه، فكلّ تعريف له قوّة حجاجية تلائم طرح الخطيب وتنسجم مع خطّته " فمن التنوعات الحجاجيّة التي تمثل هذا الضرب الخطابي ما يسمّى بالتّمثيل، ويتجسد من خلال تعدّد التّعاريف رغم وحدة المُعرّف " [1] .

وينبغي للخطيب أن يكون حاذقا فطنا في اختيار التّعريف الذي يناسب خطبته، ويخدم طرحه حتّى لا يعد كلامه هذرا، وتوضيحه إشكالا بحد ذاته " يمكن أن يكون الحجاج بأيّ من هذه الحدود، بوصفها تعاريف مختلفة أو طبقات متفاوتة لذات واحدة، ولكنّ اختيار أيّ منها لما يريد المخاطِب أن يقنع به المخاطَب، كما يخضع لنظرته في الأشياء " [2].

. التّمثيل عند الشيخ البشير الإبراهيمي :

جاء في تعريفه لجمعية العلماء : " جمعية العلماء هي جمعيّة دينيّة علميّة عملت للعروبة والإسلام " [3]، كان هذا التعريف على الرغم من بساطته غير أنّه كان دقيقا وجامعا، رسم المنهج الشامل ووضع الخطوط العريضة التي تسير عليها الجمعيّة، حيث جمع بين أمرين اثنين وغايتين واضحتين هما : الحفاظ على اللّسان العربي والحفاظ على الدّين الإسلامي، ويتكرّر هذا كثيرا في خطب الشيخ ويتعدّد في مقالاته، إذ قال في موضع آخر: " الحركة التي قامت بها جمعيّة العلماء في الجزائر منذ ثلاثين سنة تقريبا وعرفت بالحركة الإصلاحيّة الدينيّة هي في حقيقتها دعوة القرآن والسنّة الصحيحة فهما وعملا " [4] فالشّيخ في عقيدته أنّ التمكين في الأرض والسّعادة في الدّنيا قوامها صحّة الحياة الرّوحية التي لا تكون إلاّ من خلال فهم صحيح للواقع، وفهم أصح للدّين، وحسن إنزال للأصحّ على الصّحيح، فالقرآن الكريم هو مفتاح

---

[1] ـ المرجع السابق ، الصفحة نفسها .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الأمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 254 .
[4] ـ المصدر نفسه ص 212 .

الإيمان واللّغة العربيّة سرّ فهم القرآن، وقال أيضا في موضع آخر: " جمعة العلماء الجزائريين لفظ معناه جماعة من العلماء المصلحين جمع بينهم العلم الواسع بحقائق الإسلام المستمدّة من الكتاب والحديث، والإطّلاع الواسع على التاريخ الإسلامي، والحظّ الوافر من الاطّلاع على اللّسان العربي " [1] .

يتّضح من هذه التعاريف الثلاثة أنّ الشيخ كان غيورا على اللّسان العربي، مفتونا بتاريخ أسلافه وأمجادهم، ثائرا على الفهم السّقيم للدّين الحنيف، وماقتا في الوقت نفسه على دعاة الجمود، ومعوّقي التفكير، ولعلّ الشّيخ قدّم كلّ تعريف على ما يناسب مقام الكلام وموضوع الخطبة أو المقال، وهنا تكمن قوّة حجاج الاختيار ودقّة وضع التعريف المناسب، فيتّضح من التّعريف الأوّل أنّه يتحدث عن الجمعية وعن أهدافها ومبادئها، وركزّ في التّعريف الثاني على المنهج الذي تبنّته الجمعية والطريق الذي رسمته لمسارها، ويتضح من الثالث حديثه عن رجالات الجمعيّة، الذين من خلالهم تُجسّد هذه البرامج وتُخْدم هذه الأهداف، فالتّعاريف الثلاثة تؤدي المغزى نفسه ظاهرا، لكن المتفحّص لها يدرك فرقا طفيفا، وتغايرا دقيقا يتحكّم فيه موضوع الخطبة ومدار الحديث، فلا شك أنّ التعريف العام يشمل بعض الجزئيات التي من خلالها يمكن استنتاج تعاريف مختلفة لمعرّف واحد يقتضي وضعه حالة خاصّة من الكلام .

وفي تعريفه للقرآن الكريم قال : " والقرآن هو الدستور السماويّ الذي لا نقص فيه ولا خلل " [2]، وهذا تعريف شائق في حد ذاته ناهيك عن اختيار الشّيخ له في هذا المقام، فلو سئل أهل الاختصاص عن تعريفهم للقرآن الكريم لقالوا : " إنّه كلام الله المنزّل على رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعجاز بأقصر سورة منه، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر المتعبّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختوم بسورة الناس " [3]، لكنّ اختيار الشيخ لهذا التّعريف الدقيق صغير المبنى عظيم المعنى ينمّ على فكر ناضج، وعلم واسع يتجلّى من خلاله حكم كثيرة وفوائد قيميّة متعدّدة يمكن حصر بعضها في الآتي :

---

[1] ـ المصدر السابق ص 316 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 1، ص 95
[3] ـ وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ج 1، ص 421 .

ـ القرآن الكريم ما أنزله الله عز وجل إلاّ من أجل أن يكون دستورا يتّخذه البشر ويستعملونه في حياتهم .

ـ لا يوجد في الكون دستور أعدل من الذي وضعه خالق البشر .

ـ القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي أجاب عن جميع التساؤلات، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا .

ـ لم يترك القرآن الكريم شاردة ولا واردة ولا صغيرة ولا كبيرة تخصّ علاقة الإنسان بطرفيها إلاّ بيّنها ووضّحها .

ـ نسبة القرآن إلى السّماء توحي إلى العدل المطلق والكمال التّام .

فمهمّة الإنسان في هذا الوجود واضحة بيّنة، وغايته البحث عن السعادة في الدّارين، ولن يجد البشر السعادة إلاّ في تطبيق أحكام خالق البشر، العالم بحالهم والمطّلع على أحوالهم .

ويقول في القرآن في موضع آخر : " فالذي صلح به أوّل هذه الأمّة حتّى أصبح سلفا صالحا هو هذا القرآن، الذي وصفه منزّله بأنّه إمام، وأنّه موعظة، وأنّه نور، وأنّه بيّنات وأنّه برهان، وأنّه بيان، وأنّه هدى، وأنّه فرقان، وأنّه رحمة، وأنّه شفاء لما في الصدور وأنّه يهدي للتي هي أقوم، وأنّه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنّه قول فصل وما هو بالهزل "[1]، فقد انتقل الشيخ إلى تعريف آخر للقرآن الكريم اقتبس جل مفرداته من القرآن ذاته، مبتدءا تعريفه بأثر القرآن على الأمّة إذا كان لها دستورا ومنهجا، وكانت له أخلاقا وسلوكا، حيث يقودها إلى السموّ الرّوحي والرّفعة الحضاريّة، فهذه عدّة تعاريف للقرآن الكريم في مواضع مختلفة، ولا شك أنّ أيّ تعريف إنّما يوضع ليخدم شيئا سابقا، أو آخر لاحقا، ولذا كان اختيار أي تعريف يخضع لنواميس الخطبة ومراد الخطيب .

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 94 .

كان الإبراهيمي يختار من التعاريف ما يكون أقرب للنّفوس، وأبين لذات المعرّف، وأدلّ عليه مخالفا أحيانا ما تعارف عليه أهل الاختصاص، وتواتر نقله اللاّحق عن السّابق غايته في ذلك تصحيح مفهوم، أو لفت انتباه، أو توجيه رأي، ومثاله ما عرّف به شهر رمضان: " أمّا شهر رمضان عند الأيقاظ المتذكّرين فهو شهر التجليّات الرحمانيّة على القلوب المؤمنة ينضحها بالرّحمة، وينفح عليها بالرّوح، ويخزها بالمواعظ، فإذا هي كأعواد الربيع جدة ونضرة وطراوة وخضرة " [1]، فرمضان في نظر الشيخ محطة لإحياء القلوب، وموقف تستر فيه العيوب، وتتساقط فيه أوراق الخطايا والذنوب، وهذا في حقيقته إشارة إلى الفهم السقيم الذي يتصوره بعض النّاس لشهر رمضان، وأنّه عبادة بدنية الغاية منها تطبيق أمر الله تعالى والامتثال لمراد الشارع، ولذا جاء الشيخ بهذا التعريف حتّى يرد النّاس إلى الحقيقة الغائبة، وليبيّن مواطن العلل في الفهم، فما فرض الله صيام شهر رمضان إلاّ من أجل إيقاظ القلوب الغافلة، وتنبيه النفوس اللاهيّة، لأنّ القلوب إذا طالت عليها الغفلة غطّاها الرّان، وكستها الأدران فلا تنفع فيها موعظة، ولا تحرّكها زاجرة، فيأتي رمضان حتّى يجلي القلوب، ويرقى بها إلى الملائكيّة ويسمو بها إلى الكمال المنشود .

لما ربط الشيخ رمضان بالقلوب كانت حجّته بيّنة، ودلالته لهذا المعنى واضحة، وهنا تكمن قوة الحجاج في اختيار المناسب من الأقوال بما يوافق المقام، ويناسب الحال، ومن خلال هذا التعريف يمكن أن نستنتج عدة معاني ونستخلص مجموعة من الفوائد :

ـ شهر رمضان فرضه الله تعالى لإحياء القلوب .

ـ من خلص صومه لله تعالى قابله الله بنعمة القبول .

ـ شهر رمضان محطّة إيمانية تذكّر النّاسي وتنبّه الغافل .

ـ من خرج من رمضان كيوم دخوله فيه لم يستفد من رمضان ولم يكن له إلا حظّ الجوع والعطش .

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 196 .

وحين يتحدث عن الرحلة يعرفها بقوله : " ولكنّ الرحلة كان لها غرض صحيح وهو استكمال العلم لا بدايته "[1]، فقد حاول من خلال هذا التعريف تصحيح بعض المفاهيم الخاطئة، وتوجيه بعض الأفكار السائدة، بعد أن اطلع على الحالة المزرية التي كان عليها طلبة العلم الجزائريّين في الأزهر وفي غيره من البلاد العربيّة، معتقدين أنّ هذا النّوع من طلب العلم هو الرّحلة المحمودة التي ذكرها العلماء ودعا إليها أصحاب الرأي والفهم، ولكنّهم في حقيقة الأمر واهمون، وعن فهم بعض الحقائق غافلون، فلا يمكن أن ترحل لطلب العلم إلا بعد أن تستكمل المراحل الأولى في بلدك فتكون رحلتك استكمالا وليست ابتداء، ويمكن أن يفهم من هذا التعريف عدّة معاني :

ـ الرّحلة من أجل طلب العلم محمودة عند العلماء إذا توافرت شروطها وتحقّقت أسبابها .

ـ لا يرحل لطلب العلم إلا بعد استكمال المراحل الأوّليّة دفعا للمشقّة وتيسيرا على الطّالب .

ـ تصحيح النيّة في طلب العلم يعلم صاحبه الصّبر .

ـ ليس من مقاصد الطّلب الهوان وتكفّف النّاس .

ـ في مدارس الجمعيّة ومعاهدها ما يغني المبتدئين عن هذه الرّحلات الشّاقة .

ـ إقبال الطّلبة على الأزهر ابتداء فيه تجاهل لجهود علماء الجزائر واحتقار لمكانتهم .

ب ـ تكثير الذّات بأوصاف مختلفة :

وهو أسلوب شائق وباب رائق، تتجلّى فيه ملكة اللّغة ومعالم الثّقافة، فعندما تتعدّد الأوصاف لموصوف واحد، وتتابع النّعوت لذات واحدة، يتّسع مجال الإقناع وتتجلّى قوّة الحجاج، وهذا ممّا يدفع المستمع إلى التّسليم، ويسوقه إلى الاعتقاد، وهو مناط الخطابة وغاية الخطاب، وقد يعدّ بعضهم أنّ هذا من الزيادة التي لا يرجى منها فائدة، ولا ينتظر منها طائل، ولكنّه في الحقيقة يؤدي رسالة بلاغيّة ودلالة حجاجية تستقرّ في الوجدان، وترسم معالمها في الأرواح، وقد كان الشيخ البشير الإبراهيمي يكثر من استعمال هذا الأسلوب خاصّة إذا تعلق

[1] ـ المصدر السابق، م 4، ص 250 .

الأمر بذكر مناقب الرجال وصفات الصالحين، وعندما يتحدّث أيضا عن علماء الأمّة ورجال الدّين .

ويظهر هذا من قوله في حقّ محمّد بن شنب : " مات محمد فأيقن زملاؤه وشركاؤه في الصنعة أنّهم فقدوا بفقده ركنا من أركان العلم الصحيح، وعلما من أعلام التاريخ الصحيح، ومثالا مجسّما من الأخلاق العالية والخلال الرفيعة، لا بل فقدوا معيارا من أصدق المعايير لقيم الروايات وعينا لا تغرّ صاحبها بالسّراب، لا بل فقدوا عقلا هذّبه العلم وعلما هذّبه العقل فأنتجا خير النتائج لا بل فقدوا مثالا كاملا من حياة العمل والنّشاط والعبادة للعلم والفناء في العلم " [1]، فساعة تسمع هذا الوصف المتتابع لشخص محمّد بن شنب تحس بقيمة الرجل وتدرك مكانته العلميّة (ركنا من أركان العلم، علما من أعلام التّاريخ، مثالا مجسّما للأخلاق، معيارا من أصدق المعايير ...، عقلا هذّبه العلم، علما هذّبه العقل، مثالا كاملا من حياة العمل ...)، بل ربّما تحبّه لكثرة ما نعت به، ويستقرّ في قلبك احترامه من غير أن تعرفه أو تعرف ما قدّمه للسّاحة الأدبيّة من مؤلّفات وكتب، فقد ذكر الشيخ مجامع خصاله بأسلوب أدبي راق، وكأنّه أراد من كلمات اللّغة العربيّة أن تخدمه كما عاش هو خادما لها، فمحمّد بن شنب قلّ ما يجود الزمان بأمثاله، رجل أفنى حياته في العلم وفي خدمة اللّغة العربية .

ويواصل على هذا المنوال في مدح الرجال كما يظهر من قوله : " مات شاعر الإسلام الذي كان يعتزّ بمفاخره، ويشدو بمآثره وينطق بلسانه، ويجول في ميدانه، ويدعو إلى جامعته، ويمشي في ركاب خلافته " [2]، يتحدّث هنا عن أمير الشّعراء أحمد شوقي، ولكن بأسلوب خالف فيه العادة، وخرج به عن الإلف، فلم يعدّد خصال الشّاعر التي عرف بها، وإنّما عدّدها على حسب خدمتها للإسلام، وهذا يوحي إلى مدى تعلّق شاعرنا بدينه، واعتزازه به، وخدمته الدائمة له، وكأنّ ذكر الشّاعر، ورفعة مقامه، وعلوّ كعبه، لم تكن إلاّ لأنّه عاش بالإسلام وللإسلام، ولا شك أنّ الذي يعيش للإسلام سيرفع الإسلام مقامه، ويعلي شأنه، ويخلّد ذكره، وهنا تكمن قوّة حجاج تتابع الصفات، فالذي يعتزّ بمفاخر الإسلام ويشدو بمآثره وينطق

[1] ـ المصدر السابق، ج 1، ص 45 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 106 .

بلسانه ويجول في ميدانه ... لا بدّ أن يكون متشبّعا بالثقافة الإسلاميّة، وخادما للّغة العربية، وهذه هي النتيجة التي يريد أن يصل إليها الشيخ، ويرسمها في أذهان السامعين .

وكذالك جاء قوله في المودودي : " بل لم أر مثله في خصائص امتاز بها عن علماء الإسلام في هذا العصر، منها الصلابة في الحقّ، والصّبر على البلاء في سبيله، والعزوف عن مجاراة الحاكمين فضلا عن تملّقهم، وهو أفقه من رأيته أو سمعت به في باكستان والهند في حقائق الإسلام تشريعا وتاريخا، واسع الاطّلاع، دقيق الفهم، بارع الذّهن، نيّر الفكر، كبير العقل ... "[1]، لقد عدّد الإبراهيمي خصال المودودي، حتّى قادنا إلى التّسليم بعلوّ كعبه، ورفعة شأنه، فقد نسب إليه من الصّفات ما لا تتوفّر إلاّ في عالم ربّاني فاق أقرانه، وسبق أمثاله، وجمع بين رجاحة العقل وسداد الرأي، وبين علوم الدنيا وعلوم الآخرة، وبين فقه الدّين وفقه الواقع، فإذا ترسّخت هذه الخصال في ذهن السّامع ساقه إلى الاعتقاد بأسبقيّة المودودي، وإلى التّسليم بكلّ ما جاء به، وهذا الذي أفاده تتابع الخصال وتلاحق النّعوت وتوالي الصّفات .

ذكر الشّيخ الإبراهيمي عبد الحيّ الكتّاني فقال فيه : " وإذا أنصفنا الرّجل قلنا : إنّه مجموعة من العناصر منها العلم ومنها الظّلم، ومنها الحقّ ومنها البّاطل وأكثرها الشرّ والفساد في الأرض " [2]، ينتقل الشيخ هنا إلى أسلوب آخر في نقل الصفات فيذكر الصّفة وضدّها، وهذا يرشدنا إلى التّناقض الذي يشكّل شخصية الكتّاني، الذي يعتبره الشّيخ رجلا جمع بين سعة العلم وخبث السريرة، وهذا الصّنف هو من أكثر النّاس إفسادا في الأرض، فهو لا يكتفي بفساد نفسه وإنّما يسعى لإفساد غيره، وتضليل أتباعه من الجهلة، ولقد نجح الشّيخ من خلال هذا الأسلوب في تقديم صورة قاتمة للشّيخ الكتّاني، وربّما كان ذكر الصّفة وضدّها أكبر تحذير من آرائه، وخير دليل على بيان خطورته، ومن هنا تظهر قوّة الحجاج وبراعة الإقناع .

وقال أيضا في الطّاهر بن عاشور : " ... فعرفت منهم ومن القليل الذي قرأته للشّيخ من الآثار أنّه على جانب من استقلال الفكر، وحيويّة التفكير، وأنّه واسع الاطّلاع، ممتع

[1] ـ المصدر السابق ج 4، ص 186 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 3، ص 540 .

المذاكرة، يقظ البديهة، ملمّ بأحوال زمانه ... " [1]، وممّا شدّني في ذكر هذه الصّفات إنصاف الإبراهيمي للطّاهر بن عاشور، فالمقال كان في مقام الاعتراض عن فتوى صدرت من الأخير تخصّ قراءة القرآن على الأموات، فكان موقف الإبراهيمي مبنيّ على النّقد، ولكن هذا لم يمنعه من إنصاف الرّجل وإعطاءه مكانته العلميّة الصحيحة دون إجلال أو تحقير، فهو لم يرض له لقب شيخ الإسلام، ولم يمتنع عن تسميته بشيخ المسلمين، علما أنّ الشّيخ الإبراهيمي أنصف مرّة أخرى الطاهر بن عاشور في مقال آخر صدر بعد هذا بحوالي عشر سنوات قال فيه : " الأستاذ الأكبر الطاهر بن عاشور علم من الأعلام الذين يعدهم التّاريخ الحاضر من ذخائره فهو إمام متبحّر في العلوم الإسلاميّة، مستقلّ في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذّرع بتحمّلها نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطلاع على المنقول منها ... " [2]، فلا شكّ أنّ تتابع النعوت بهذا الشكل تشعرك بقيمة معنويّة تتجلى تبعاتها في التسليم لهذا العالم، والانقياد له، فتتابع الصفات إنّما يراد به إقامة الحجّة، وتعضيد الدّليل، وهذا أسلوب قد عرفه العرب من قبل، وكانوا يستعملونه في خطبهم وأشعارهم، فهذا امرؤ القيس لمّا أراد ذكر فرسه قال فيه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودْ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ [3] .

[1] ـ المصدر السابق، ج 1، ص 224 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج3، ص 549 .
[3] ـ امرؤ القيس، ديوان امرؤ القيس، تح محمد الاسكندراني، نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، لبنان، س 2002، ص 247 .

الفصل الثالث : الآليات الشبه منطقية للحجاج في خطب البشير الإبراهيمي (السلالم الحجاجية)

- صيغ التفضيل
- أضرب الخبر
- فحوى الخطاب
- حجة الدليل

أقصد بالآليات الشبه منطقية السلّم الحجاجي، ومختلف الأدوات والآليات التي يعتمدها من أجل تنظيم مستوياته، فما من حجّة إلا وتقابلها أخرى، أقل أو أكثر منها في القوة وفق ترتيب يخضع للثقافة والعرف والمستوى الإدراكي للمرسل أو المرسل إليه، ويعتمد في ترتيب هذه الحجج على روابط تعطي للجملة والنص معاني إضافية ودلالات زائدة عن المعنى الوضعي تعرف هذه الأدوات بالروابط الحجاجية كـ (بل، حتى لكن ...) :

1 . الروابط الحجاجيّة :

1 ـ 1 ـ الرابط بل :

" بل : حرف إضـراب وله حالان، الأوّل : أن يقع بعده جملة، الثّاني : أن يقع بعده مفردا " [1] .

ومعنى الإضراب أن تضرب عن معنى الجملة الأولى، وتنتقل إلى معنى الجملة الثانية، وهذا ترتيب جديد في السلم الحجاجيّ وهو تقديم معنى الجملة الثّانية في الرتبة، ويكون الإضراب في الحالة الأولى على صورتين :

أ ـ الإبطال : أي تبطل معنى الجملة الأولى وتقيم مكانه معنى جديدا ومثاله قوله جلّ وعلا : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ ۚ بَلْ جَآءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ** ﴾ (سورة المؤمنون، آية 70) .

فأبطل سبحانه وتعالى ادّعاء المشركين بأنّ الذي أصاب النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ مسّ من الجن، وأثبت أنّ الذي جاءهم به هو الحقّ، ولكنّ أكثرهم للحقّ كارهون .

ب ـ الانتقال : وهو أن تنتقل لمعنى الجملة الثّانية، وتعطيها قوّة حجاجية دون أن تبطل معنى الجملة الأولى، ومثاله قوله تعالى : ﴿ **أَتَاتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنَ اَزْوَاجِكُمْ بَلَ اَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ (سورة الشعراء، آية 165 ـ 166) .

[1] ـ الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعاني، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 1، س 1992، ص 235 .

فهنا لم يبطل معنى الجملة الأولى، أي أنّهم مازالوا قائمين على أعمالهم من إتيانهم الذكران وإعراضهم عن نسائهم، وهم إضافة إلى ذلك قوم عادون، والعدوان معنى عام يدخل تحته كلّ شيء، فكان معنى الجملة الثّانية أعمق وأعم دون أن يسقط معنى الجملة الأولى " والإضراب إمّا أن يكون معناه الإبطال نحو: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ** ﴾ (سورة الأنبياء، آية 26)، أي بل هم عباد، وإمّا معناه الانتقال من غرض لآخر نحو: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّىٰ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا** ﴾ (سورة الأعلى الأعلى، 14 - 15 - 16) " [1] .

أمّا في الحالة الثانية (يأتي بعد بل مفرد) : فتكون " بل " حرف عطف وذلك بشرط أن تسبق بإيجاب أو أمر أو نفي أو نهي، " ومعناها بعد الإيجاب والأمر سلب الحكم عمّا قبلها وجعله لما بعدها " [2]، ومثاله : (دخل زيد بل عمرو)، فهنا جاء نفي الدخول عن زيد وإثباته لعمرو، ومثاله في حالة الأمر (ليدخل زيد بل عمرو)، فالأمر سلب من زيد وجعل لعمرو، " ومعناها بعد النّفي أو النّهي، تقرير حكم ما قبلها من نفي أو نهي على حاله، وجعل ضدّه لما بعدها " [3]، ومثاله في حالة النفي : (أنا ما شربت الماء بل اللبن)، فنفي شرب الماء بقي ثابتا وشرب اللبن ثابت ببل، ومثالـــه في حالة النّهي : (لا تشرب الماء بل اللبن) فالنّهي يبقى ثابتا من عدم شرب الماء، وضدّه الذي هو شرب اللّبن ثابت بالأمر بعد بل .

ـ استعمال (بل) عند البشير الإبراهيمي :

ويظر ذلك في قوله : " القرآن إصلاح شامل لنقائص البشريّة الموروثة، بل اجتثاث لتلك النقائص من أصولها " [4]، وهذا من قبيل إضراب الانتقال حيث نقلنا الشيخ من حكم أثبته في الجملة الأولى إلى حكم آخر أثبته في الجملة الثّانية دون أن يلغي الحكم الأوّل، فتأتي الجملة الأولى (القرآن إصلاح شامل لنقائص البشرية المورورثة) حيث تترتّب في الأدنى من السلّم الحجاجي، ثمّ تأتي الجملة الثّانية التي هي أكثر حجاجا وأقوى دلالة من الجملة الأولى فلا يعدّ القرآن إصلاحا لتلك النقائص فحسب، بل هو اجتثاث لتلك النقائص، وهذا

[1] ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 88 - 89 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[4] ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص، 95 .

يقودنا لنتيجة تفهم من السياق (القرآن صلاح الفرد والمجتمعات) ويمكن إدراج هذه العملية في الرسم الآتي :

أ : القضية الأولى ـــــــ ب : القضية الثانية ـــــــــ ن : النتيجة

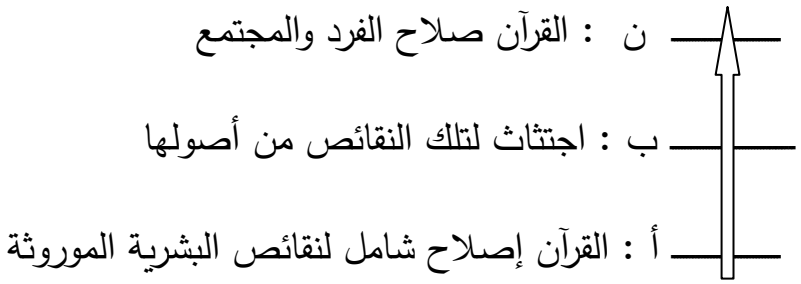

وقال أيضا: " ولم يظهر لهؤلاء العلماء أثر في دفع البلاء، بل كانوا أعوانا له وكانوا بعض أسبابه " [1]، لقد أثبت الشّيخ في الجملة الأولى سكوت العلماء، وتخاذلهم في دفع البلاء، واستعمل في ذلك نفي ظهور الأثر لهم في دفعه، ثمّ انتقل في الجملة الثانية إلى حجّة أظهر، وحكم أبين، حيث عدّ هؤلاء العلماء جزءا من البلاء الذي تعاني منه الأمّة، وكانوا بعض أسبابه كلّ ذلك وصولا إلى نتيجة (تفريط العلماء وتخلّيهم عن واجبهم)، فالشّيخ هنا لم يثبت الأثر، بل نفاه، ولذلك وضعه في السلم الحجاجي في المرتبة الأدنى، ووضع القضيّة المثبتة في درجة أعلى، ويمكن توضيح ذلك من خلال الرسم البياني الآتي :

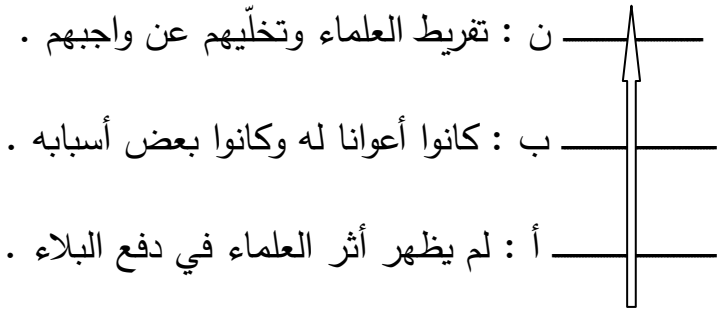

وتأكيدا على ذلك جاء قوله : " إنّهم لا ينتظرون عرض الولاية عليهم بل يخطبونها ويبذلون فيها الغالي من المهور " [2]، في هذه الفقرة يتحدّث عن هذا نوع من العلماء الذين باعوا دينهم من أجل دنيا فانية، وباعوا ضمائرهم من أجل مناصب زائلة، فأثبت الشّيخ مبالغتهم في تشوّفهم للمناصب والولاية، وجاء بـ (بل) حتّى يرسم هذا المشهد لتقوى بذلك حجّته،

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 95 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 116 .

ويتّضح دليله (بل يخطبونها ويبذلون فيها الغالي من المهور)، ووضع هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي، دون أن يغفل انتظارهم عرض الولاية عليهم، وهذا كله يخدم نتيجة تفهم من السياق (الابتذال في الوصول إلى الولاية والمناصب) ويمكن وضع هذه العملية في الرسم التوضيحي الآتي :

أ ـ انتظار الولاية ـــ ب ـ خطبتها وبذل الغالي ـــــ ن ـ الابتذال في الوصول إلى المناصب .

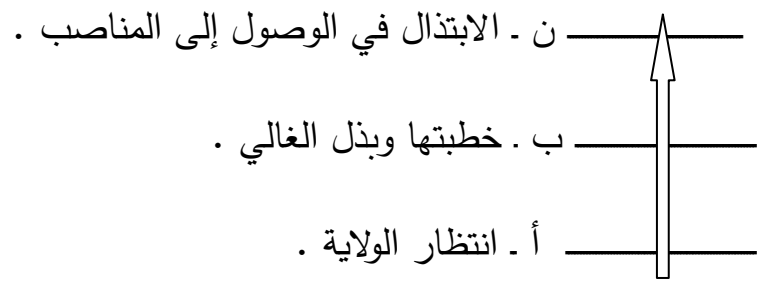

وقال في موضع آخر : " وأنّه صنع للسلفيّة وإحياء آثارها ما تعجز عنه الجمعيّات، بل الحكومات " [1]، ويقصد بحديثه هنا محمد نصيف، وكيف سعى بجهده وماله في خدمة الدين، فأثبت بداية أنّ ما قام لإحياء السنّة تعجز عنه الجمعيّات، ورتب هذا الحكم في أدنى السلم الحجاجي، ثمّ وضع حكما جديدا ليرقى بقوّة الحجاج ودرجة الإقناع إلى أعلى مستوياته ورتّبه في أعلى السلم (بل الحكومات) وهذا حتّى يرسم النتيجة المتوقّعة (الاعتراف بفضل محمد نصيف)، ويمكن إدراج ذلك في الرسم الآتي :

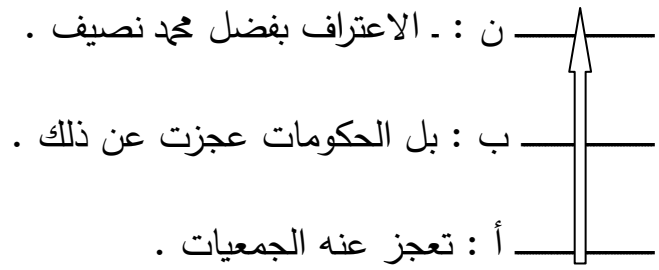

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 125 .

1 . 2 . الرابط لكن :

أ : **تعريفها** : " تكون مخفّفة ومثقّلة، فالمخفّفة غير عاملة، والمثقّلة عاملة، ومعناها في كلتا الحالتين الاستدراك والتوكيد " [1]، ومعنى الاستدراك تعقيب على الكلام الذي يتوهّم ثبوته، أو إثبات ما يتوهّم نفيه، فهي لا تكون إلا بين كلامين متغايرين، " أن تنسب حكما لاسمها، يخالف المحكوم عليه قبلها كأنّك لما أخبرت عن الأوّل بخبر، خفت أن يتوهّم من الثّاني مثل ذلك فتداركت بخبره إن سلبا أو إيجابا " [2]، ومثاله :

ـ دخل الأستاذ إلى القسم لكن الطلبة لم يدخلوا، فقد يفهم من الكلام الأول أنّ الطلبة دخلوا إلى القسم تبعا لدخول الأستاذ فجاء الاستدراك بـ (لكن) حتّى يثبت حكما مغايرا للمفهوم، " فإذا كان ما قبلها موجبا كان ما بعدها منفي " [3] .

كما أن (لكن) إذا تلتها جملة كانت حرف ابتداء يفيد الاستدراك وكذا إن سبقتها واو ومثاله كما هو مشهور في الشواهد قول زهير بن أبي سلمى :

ـ إنّ ابنَ وَرْقاءَ لا تُخشَى بَوادِرُهُ لكنْ وَقائِعُهُ في الحرب تُنْتَظَرُ [4]

ـ وقوله جل في علاه : ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ (سورة الاحزاب، آية 40) .

" وتكون حرف عطف بثلاثة شروط، إفراد معطوفها، وأن تسبق بنفي، وأن لا تقترن بالواو " [5] .

ب : استعمال لكن عند البشير الإبراهيمي :

حيث قال واصفا الاستدمار الفرنسي : " فهو قد عمل في مئة سنة على محو آثار الإسلام من النّفوس بقتل أخلاقه المتينة وعقائده الصحيحة ... وقد كاد ينجح ... ولكن جمعية

---

[1] ـ أبو الحسن الرماني، معاني الحروف، تح عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار الشروق، جدة، ط 2، س 1981، ص 133 .
[2] ـ حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 102 .
[3] ـ الرماني، معاني الحروف، ص 133 .
[4] ـ زهير بن أبي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، 1988، ص 53 .
[5] ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 301 .

العلماء هي التي وقفت له في هذا السبيل " [1]، إنّه يتحدث هنا عن الاستدمار وما فعله في أرض الجزائر، وكيف كان يحارب الإسلام بشتّى الطرق، ويُفهم من الخطاب أنّ الاستدمار نجح إلى حد بعيد في مساعيه، لولا أنّه استدرك الكلام بـ (لكن)، وبين جهود جمعية العلماء الجزائريين التي حالت دون ذلك .

فالجملة الأولى تتضمن حجّة تخدم نتيجة مفهومة من السياق (نجح الاستدمار في مساعيه) والجملة بعد (لكن) تتضّمن حجّة يفهم منها أيضا معنى مضادا (الاستدمار لم ينجح في مساعيه) ويمكن توضيح هذه العلاقة الحجاجية بالرسم البياني الآتي :

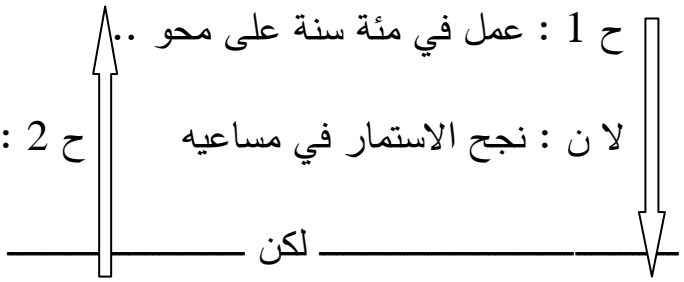

ح 1 : الحجة الأولى ـــــ لا ن : النتيجة المضادة ـــــ ح 2 : الحجة الثانية ـــــــــ ن : النتيجة التي أفادتها أداة الاستدراك (لكن) .

وقال في موضع آخر : " هل أنتم شاعرون مثلي بأنّ آمال المسلمين تحقّقت ولكن بالخيبة وأنّ أعمالهم نجحت ولكن بالفشل " [2]، الحديث هنا موجّه إلى أصدقائه محمود شويل وحسونة البسطي ومحمد نصيف، الذين فارقهم واجتمع معهم بعد أربعين سنة، يحدثهم عن الذكريات الجميلة، وعن الآمال التي رسمت، والأهداف التي عقدت، والتي لم يتحقّق منها شيء .

ففي الجملة الأولى وضع الشيخ حجة (أن آمال المسلمين تحقّقت)، وهذا يقودنا إلى نتيجة مضمونة (أن المسلمين أدوا ما عليهم من واجب) ثمّ استدرك كلامه بـ (لكن) لينقلنا إلى حجة مضادّة (ولكن بالخيبة) وهذا يستلزم نتيجة مضادة (أنّ المسلمين قصروا في واجبهم)، ويمكن توضيح ذلك في الرسم الآتي :

[1] ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 88 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 124 .

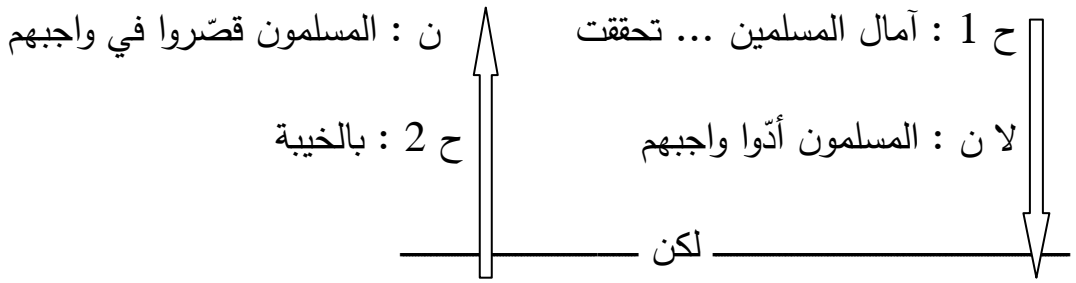

ـ الكلام نفسه يقال في الشطر الثاني من الجملة ويمكن توضيحه في الرسم البياني الآتي :

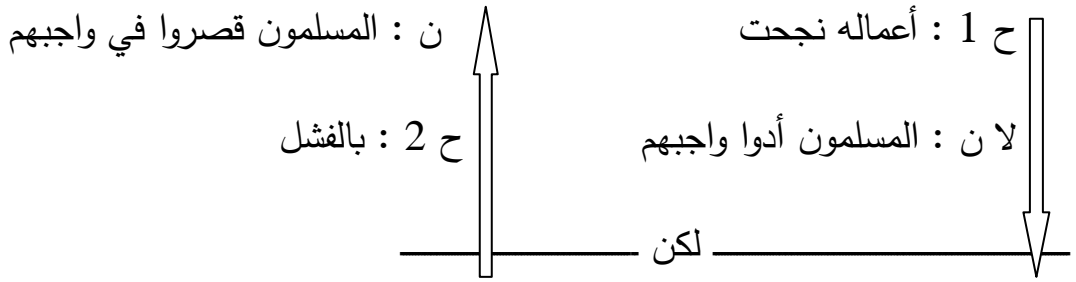

ويواصل قائلا : " وقد حلّ به من كوارث في تاريخه الطويل ما ينسي المرء دينه ونسبه وموطنه ولكن عقيدته في هذه الثلاثة لم تتزلزل " [1] . وهذه وقفة حمدها للشّعب الجزائري، وكيف صمد عبر التّاريخ على ضغوطات فرنسا وحافظ على عقيدته وهويته، وقد أثبت في الجملة الأولى الكوارث التي حلّت بالشّعب الجزائري عبر تاريخه الطّويل، هذه الكوارث التي كان من شأنها أن تغيّر عقيدته، وتمسخ حاضره ومستقبله، وهذه نتيجة ضمنيّة لما بذلته فرنسا في هذا الشأن لولا أنّه استدرك بـ (لكن) ليضع هذا الحكم في درجة أدنى من السلّم الحجاجي، وينقلنا في الجملة الثّانية إلى حكم جديد (ولكن عقيدته في هذه الثلاث لم تتزلزل) فعلى الرّغم من كل الجهود وجميع المحاولات بقي الشعب الجزائري محافظا على عقيدته ودينه وتاريخه، وهذا يقودنا إلى نتيجة حتميّة : أنّ فرنسا فشلت في مسعاها وردّها الله خائبة صفر اليدين، ويمكن توضيح ذلك من خلال الرسم التوضيحي الآتي :

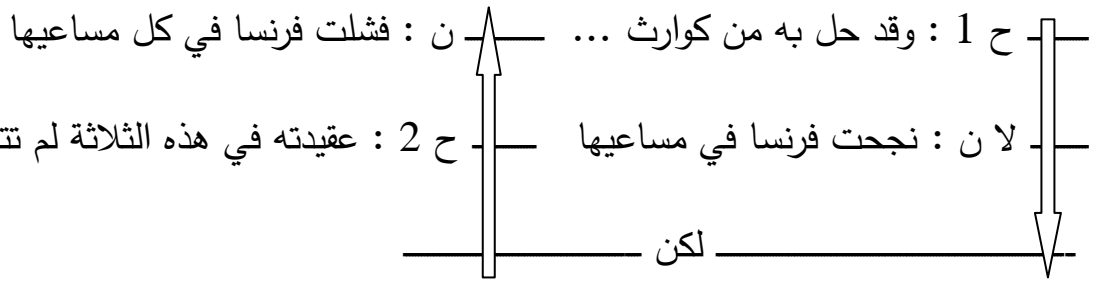

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 163 .

ح 1 : الحجة الأولى ـــــــ لا ن : النتيجة الأولى ـــــــــــ ح 2 : الحجة الثانية ـــــــــ ن : النتيجة المستدركة .

1 . 3 . الرابط حتّى :

أ : **تعريفها** : اشتهر عند علماء اللّغة قول سيبويه : أموت وفي نفسي شيء من حتّى، وهناك من نسب القول إلى تلميذه الأخفش، نظرا للتغييرات الإعرابيّة التي تحدثها في سياق الكلام " حتّى تتصرّف على أربعة أوجه : جارّة وعاطفة وناصبة الفعل وحرف من حروف الابتداء " [1]، فالجارّة تأتي بمعنى (إلى) نحو : (**سَلاَمٌ هِيَ حَتّى مَطْلَعِ الفَجْرِ**) (سورة القدر، آية 5) ، ومعناها : سلام هي إلى مطلع الفجر .

والعاطفة : نحو أعجبني المسجد حتّى محرابه، " وتكون عاطفة بثلاثة شروط : أن يكون المعطوف بها ظاهرا لا مضمرا، أن يكون بعضا من جمع قبلها ...، أن يكون غاية لما قبلها إمّا في زيادة أو نقص " [2] .

وأما النّاصبة : فنحو : سهرت الليل حتّى أذّن الصّبح ومعناه سهرت الليل إلى أن أذّن الصبح، أو نقول : ذاكرت دروسي حتى أنجح في الامتحان، ومعناه ذاكرت دروسي كي أنجح في الامتحان، ومنه يظهر شرط حتّى الناصبة أن تكون بمعنى(إلى أن، أو كي)، " وعلامة كونها للغاية أن يحسن في موضعها (إلى أن)، وعلامة كونها للتعليل أن يحسن في موضعها (كي) " [3] .

وأمّا التي للابتداء : " هي حرف تبتدأ بعده الجمل فيدخل على الجمل الاسميّة كقول جرير :

فَمَا زَالَت القتلى تَمُورُ دِمَاءَها بدِجْلَة حتّى مَاءُ دِجْلَة أَشْكَلُ [4]

---

[1] ـ الرماني، معاني الحروف، ص 164 .
[2] ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 173 .
[3] ـ المرادي، الجنى الداني، ص 553 .
[4] ـ جرير ، ديوان جرير ، ص 367 .

وتدخل على الجملة الفعلية كقول حسان :

يُغْشَوْنَ حَتّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُم لا يَسْأَلُون عَنِ السَّوَادِ المُقْبِلِ " [1] .

ب . استعمال حتّى عند البشير الإبراهيمي :

ومن ذلك قوله : " وبعضهم يحطّها عن منزلتها الإنسانية فيعدّها إما بهيمة وإما شيطانا حتّى جاء الإسلام فأقرّها في وضعها الطبيعي وأنصفها من الفريقين " [2]، يتحدّث هنا عن المرأة كيف كانت قبل الإسلام وكيف أصبحت بعده، واستعمل (حتّى) من أجل أن يعقد المقارنة بين وضعين عاشتهما المرأة، فوَضَعَ الأوّل في أدنى السلّم الحجاجي (حال المرأة قبل الإسلام) ووضع الثّاني (حالها بعد الإسلام) في مرتبة أعلى دلالة على فضل الإسلام في تحرير المرأة، وجعلها شقيقة للرجل، ويمكن توضيح هذه العلاقة في الرسم البياني الآتي :

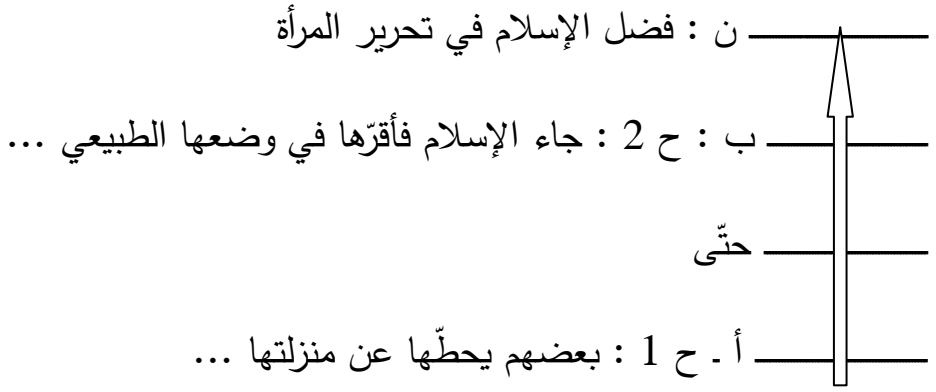

فتكون النتيجة (ن) هي القصد المفهوم من العمليّة الحجاجيّة .

ومن ذلك أيضا قوله وهو يتحدث عن العالم الإسلامي : " ومالي لا أصدقكم ثانية بأنّني وجدت العلّة واحدة والأحوال متشابهة حتّى كأنّا سلالة أبوّة قريبة العهد " [3]، كان هذا الكلام بعد أن قام بجولة علمية قادته إلى عدّة أقطار من العالم الإسلامي، وكيف تبيّن له أنّ الحال متشابه، والوضع متماثل، فوضع حجّته الأولى (وجدت العلّة واحدة والأحوال متشابهة) ثمّ ارتقى بالسلّم الحجاجي إلى طبقة أعلى، وحجّة أظهر، بعد (حتّى) تقوية لرأيه، وتأييدا لوصفه

[1] ـ عبد الغني الدقر، معجم النحو، ص 172 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، ج 4، ص 66 .
[3] ـ المصدر نفسه، ص 100 .

فقال : (حتّى كأنّا سلالة أبوة قريبة العهد) وهذا من أجل أن يصل إلى نتيجة تفهم من السياق (تشابه أوضاع الأمة الإسلامية)، ويمكن تمثيل العملية الحجاجية بالرسم الآتي :

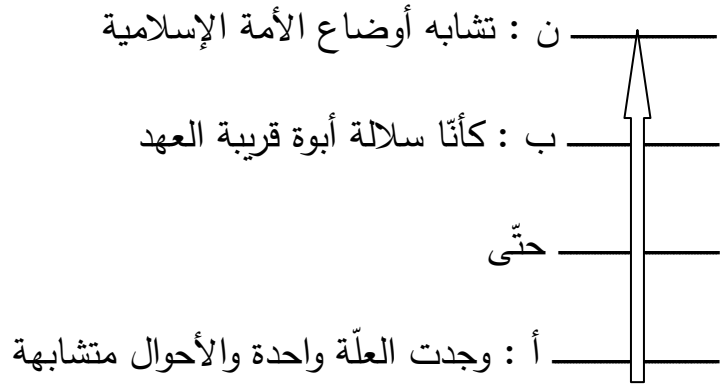

وعطفا على ماسبق يواصل كلامه قائلا: " ثمّ ارتكست في السّقوط حتّى أصبح نصف ملوكها صبيانا وأكثر أدلائها عميانا " [1]، واصفا أمّة الإسلام وكيف صار حالها، وتغيّرت أحوالها، وتأزّمت أوضاعها، فأثبت ذلك في الجملة الأولى (ارتكست في السقوط) ثمّ رفع الحجاج إلى مستوى أعلى بعد (حتّى) وكأنّ الكلام بعدها تدليل على ما قبلها، كل ذلك من أجل خدمة نتيجة مفهوم فحواها وواضح دلالتها (الحال المحزن للأمّة الإسلاميّة)، ويمكن توضيح ذلك من خلال الرسم البياني الآتي :

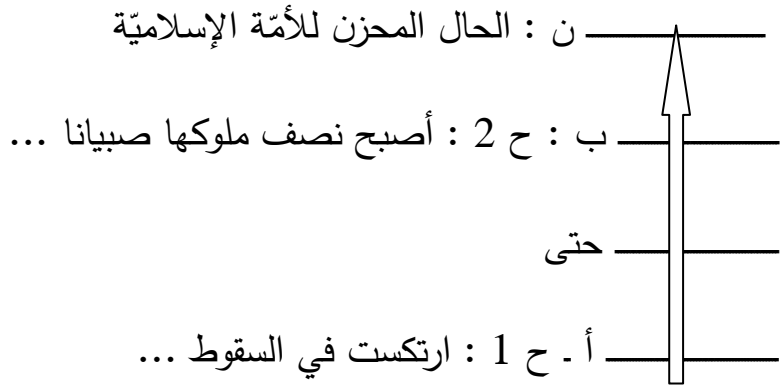

ويقول في موضع آخر يتحدّث عن حال المسلمين : " عجبا لاجتماع الإخوة بعد أن جعل الاستعمار بينهم ردما، وأوسع معالم الاتّصال بين الشرقي والغربي تحطيما وهدما، وضرب بينهم بسور ليس له بـاب، حتّى نسي الواحد منهما أخاه أو كاد، وحتّى تنكر له كأن لم تكن بينهما أشياء من نسب وتاريخ " [2]، رتّب الشيخ الأحكام في سلّم حجاجي رسم معالمه

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 139 .
[2] ـ المصدر نفسه ج 4، ص، 155 .

بمنتهى الدقة، جمع فيه بين المنطق والموضوعيّة، حتّى يقدم الصورة الأمثل، والمشهد الأنسب، لحال المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فقد سعى الاستدمار بكل ما يملك من أجل تشتيت شملهم، وتفريق وحدتهم، وكسر شوكتهم، وقد نجح في كثير من ذلك، لكن بقايا الخيرية ستضلّ قائمة في أمّة الإسلام فذكر الشيخ بدايةً ماقام به الاستدمار (جعل الاستعمار بينهم ردما ...) ليدلّل على الفرقة التي كانت بين المسلمين، ثمّ ارتقى في السلم الحجاجي بعد (حتى) ليدلّل على أمر آخر، ويدعم قالته في البداية حيث بلغت هذه الفرقة حدّا (نسي الواحد منهما أخاه) ثمّ يرتقي في السلم الحجاجي مرة أخرى بعد (حتّى) الثّانية (تنكّر له ...) وهذه كانت أقوى الحجج، لأنّ التنكر للأخ أكبر من نسيانه، فالنّسيان قد يعالج بالتّذكير أما التنكّر فلا يعالج إلاّ بالتطهير، والتّطهير أصعب من التّذكير، ويمكن توضيح ذلك في الرسم الآتي :

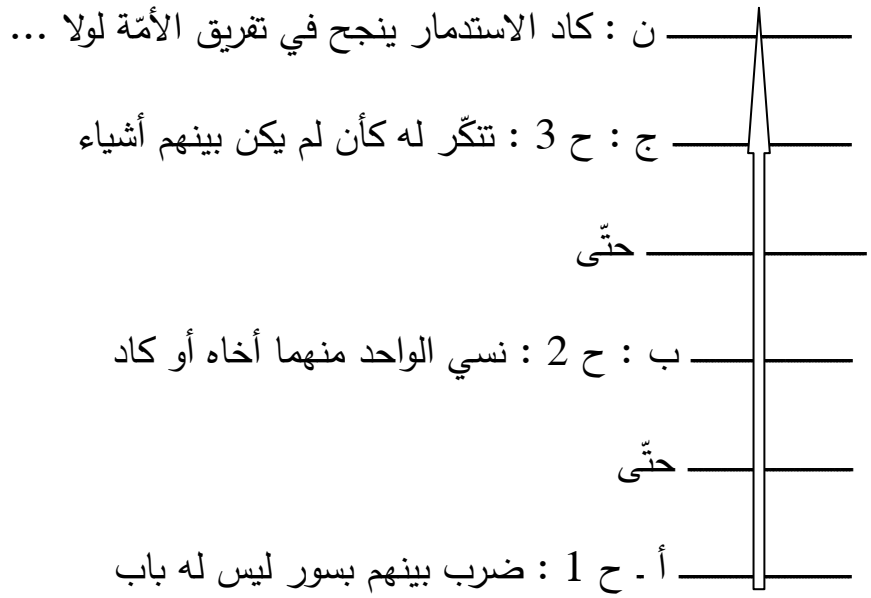

2 ـ أضرب الخبر :

قبل أن أتطرّق إلى أضرب الخبر لا بأس من إعطاء لمحة خفيفة عن الأسلوب الخبري فقد عرّفه قدامة بن جعفر الخبر بقوله : " والخبر كل قول أفدت به مستمعه ما لم يكن عنده كقولك قام زيد، فقد أفدته العلم بقيامه " [1]، علما أنّ معنى الصدق والكذب مسألة خلافية منذ القدم فقد يكون الكلام صادقا بالنسبة للمُخبَر كاذبا بالنسبة للمُخبِر ومثاله قوله تعالى في شأن

[1] ـ قدامة بن جعفر، نقد النثر، ص 44 .

المنافقين : ﴿ **إِذَا جَآءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ** ﴾ (سورة المنافقون، الآية 1) ، فالمنافقون قالوا كلمة صدق، وشهادة حقّ ولكن الله عز وجل وصفهم بالكذب، لأنّهم إنّما قالوا ذلك بألسنتهم خلافا لما تعتقده قلوبهم، ولذلك شرط بعض العلماء الصدق في الخبر بأن يكون مطابقا لاعتقاد المُخبِر، وممّن ذهب هذا المذهب النظّام وتلميذه الجاحظ، وجاء في معجم المصطلحات العربية : " الخبر في علم المعاني العربي هو الذي يحتمل الصدق إن كان مطابقا للواقع ـ أو لاعتقاد المُخبِر عند البعض ـ والكذب إن كان غير مطابق للواقع ـ أو لاعتقاد المخبر في رأي ـ " [1] .

والأسلوب الخبري هو كل كلام يمكن أن يحكم عليه سواء بالصدق أو الكذب، بغض الطرف إن كان مطابقا للواقع أو مخالفا له، وقد عرف أحمد الهاشمي الخبر بقوله : " الخبر ما يتحقّق مدلوله في الخارج بدون النطق به " [2]، ولو قال ما يمكن تحقّق مدلوله لكان التعريف أقرب للفهم وأنسب لوصف الخبر فعندما أقول قام زيد، أفدت المُخبَر بقيام زيد لكن هل قام زيد فعلا أم لا، فإن طابق الكلام الحال كان صادقا وإن خالفه كان كاذبا، ومنه الكلام الذي يصحّ أن يوصف بالصدق أو الكذب هو ما يعرف بالخبر .

والغرض الرئيس من الخبر هو إفادة المُخْبَر بما يجهله، فعندما يقال لشخص معين جاء محمد أو جهز الغداء أو حضر الأستاذ فالغرض من ذلك إفادته من هذه المعلومة أو الخبر، ولذلك يسمّى هذا النوع من الخبر فائدة الخبر، وقد يقصد بالخبر إعلام المُخْبَر عن علم المُخْبِر بالخبر كقول أحدهم لصديقه وقد رآه صلى الصّبح في المسجد : لقد صلّيتَ الصبح في المسجد، فليس الغرض من ذلك إفادة المُخْبَر بهذا الخبر، فهو يعلم ذلك وإنّما الغرض من ذلك إفادته بعلم المُخبِر بما قام به المُخْبَر، وهذا النّوع يسمى لازم الفائدة " الأصل في الخبر أن يلقى لأحد غرضين : إمّا إفادة المخاطب الحكم الذي تضمّنته الجملة إذا كان جاهلا له ويسمّى ذلك الحكم فائدة الخبر ... وإمّا إفادة المخاطب أنّ المتكلم عالم أيضا بالحكم الذي يعلمه المخاطب ... ويسمّى ذلك الحكم لازم الفائدة " [3]، وقد يخرج الخبر عن هذين الغرضين

---

[1] ـ مجدي وهبة ـ كامل مهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط 2، س 1984، ص 174 .
[2] ـ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 55 .
[3] ـ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة، ص 55 ـ 56 .

الرئيسين إلى أغراض أخرى تفهم من سياق الكلام كالتحسّر والتأسّف والتنشيط وإظهار الضّعف والاستعطاف والشماتة والوعظ ... وغيرها.

2 ـ 1 ـ تعريف : أضرب الخبر :

وهو الذي نقصده عند الحديث عن الحجاج بأضرب الخبر، فأضرب الخبر تختلف على حسب الحالة النفسية للمُخْبَر ومدى تقبله للخبر، فإن كان خالي الذهن مستعدا لتقبّل الخبر قدم له الخبر خاليا من وسائل التوكيد، وهو ما يعرف بالخبر الابتدائي، ومثاله قول القائل : الجوّ جميل، فإن كان المُخْبَر شاكّا في قول المُخْبِر احتاج الأخير إلى وسيلة توكيد، حتّى يقوّي كلامه، ويعضد خطابه، ويسمّى الخبر ساعتها خبرا طلبيّا ومثاله : إنّ الجوّ جميل، وكأن المُخْبَر طلب من المُخْبِر شيئا يؤكد به كلامه، فإن كان المُخْبَر منكرا تماما صحّة المقول احتاج المُخْبِر إلى أكثر من وسيلة توكيد، وهو ما يطلق عليه الخبر الإنكاري ومثاله إنّ الجو لجميل أو والله إن الجو لجميل، وهذا يدل على جمال اللّغة العربية، ودقّة مفرداتها وألفاظها والكلام كلّما كان موافقا لمقتضى حال المتلقي كان أجمل في الوقع وأقرب إلى الفهم وأبعد عن التكلّف، وقد نقل الجرجاني حوارا طريفا بين الكندي (يعقوب بن اسحاق) وأبي العباس (المبرد) جاء فيه : " ركب الكندي المتفلسف إلى أبي العبّاس وقال له : إنّي لأجد في كلام العرب حشوا! فقال أبو العباس : في أي موضع وجدت ذلك ؟ فقال : أجد العرب يقولون : عبد الله قائم، ثمّ يقولون : إنّ عبد الله قائم، ثمّ يقولون : إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكرّرة والمعنى واحد، فقال أبو العباس : بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ فقولهم : عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم إنّ عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل وقولهم إنّ عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكرّرت الألفاظ لتكرّر المعاني، قال فما أحار المتفلسف جوابا " [1]، وبتفاوت درجات التوكيد يتفاوت السلّم الحجاجي فيوضع الخبر الابتدائي في أدنى السلّم، وكلما زاد التوكيد زيد في درجات السلّم على النحو الآتي :

[1] ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 315 .

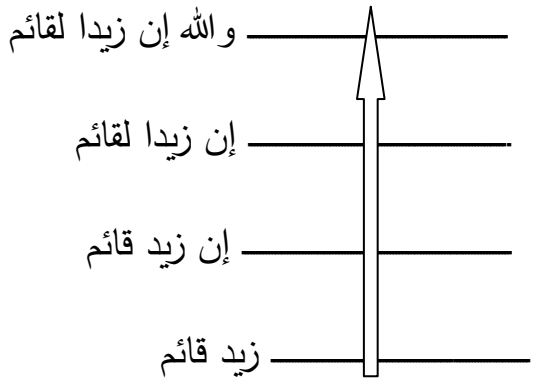

وللتوكيد أدوات كثيرة مبثوثة في كتب النّحو والبلاغة، وقد أحصى فضل حسن عبّاس منها الآتي : " إنّ، ولام الابتداء، وضمير الفصل، والقسم، وإمّا الشرطية، وحرفا التنبيه؛ ألا وأما، والحروف الزائدة ؛ إنّ وأنّ وما ومن والباء، وقد التي هي للتحقيق، وسين وسوف الداخلتان على فعل دال على وعد أو وعيد، وتكرير النفي، وإنما، ونونا التوكيد " [1]، وقد يكون التأكيد بغير الحروف كالتكرار واستعمال الجمل الاسمية .

2 ـ 2 ـ نماذج من أضرب الخبر عند البشير الإبراهيمي :

ـ 2 ـ 2 ـ 1 ـ الخبر الابتدائي :

وذلك كما جاء في قوله : " قاد الإسلام أهله بقانونه السماوي الشامل لأنواع التدابير المحيطة بمصالح البشر " [2]، لقد ساق الشيخ هذه الجملة دون أن يستعمل أي أداة توكيد، وربما مردّ ذلك أنّ هذه حقيقة أزليّة وسنّة كونيّة ضمّنها المولى عزّ وجل هذا الدّين، وقلوب المخاطبين وعقولهم كلها تقرّ بذلك وتعتقده، وهذا ما جعل خطابه مستغنيا عن أدوات الحكم .

ومثاله أيضا : " لكلّ عبادة في الإسلام حكمة أو حكم يظهر بعضها بالنّص عليه، أو بأدنى عمل عقلي ويخفى بعضها إلاّ على المتأمّلين المتعمّقين " [3]، فالخطاب موجه إلى الطبقة المثقّفة، وقد بيّن فيه الشّيخ مقاصد الشّرع من العبادات التي قد تتجلّى واضحة بيّنة، وقد تخفى فلا يدرك كنهها إلا المتبحّرون من أولي الألباب، وهذا حكم لا يحتاج إلى تأكيد فهو بالنّسبة لهؤلاء ممّا يعرف من الدّين بالضّرورة، ولذلك استغنى الشّيخ عن استعمال أدوات التوكيد .

---

[1] ـ فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها، ص 114 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 67
[3] ـ المصدر نفسه، ص 196 .

وقال في موضع آخر : " جمعية العلماء تعمل لإرجاع المسلمين إلى الحقّ في دينهم " [1] وهذه أيضا حقيقة بيّنة، وأمر جليّ واضح، لا يختلف عليه رأيان، فجمعيّة العلماء ظهر إصلاحها وعمّ نفعها الأمّة العربيّة والإسلاميّة، ولذلك ساق الشّيخ الخبر دون الاستعانة بأدوات التوكيد، وإجمالا الزيادة في المباني تقتضي الزيادة في المعاني واستعمال التوكيد في غير موضعه ممّا يشتّت المعنى ويقطع الصلة بين المرسل والمرسل إليه، وكلّما كان المعنى خاليا من الشوائب، كانت قوّته الحجاجية أبلغ في درجة الإقناع، ووضوح دلالته أقرب للفهم .

2 ـ 2 ـ 2 ـ الخبر الطلبي :

ومثاله قوله: " أيّها الإخوان : إن القلم الذي نسبتم ناديكم إليه ذو نسب عريق في دينكم وفي آدابكم " [2] . استعمل الشيخ أداة توكيد واحدة (إنّ) لينزع أي شك قد يكون في كلامه، وليرقى بذهن المخاطب إلى درجة أعلى في الإقناع حتّى يدفعه إلى التسليم بالمقول، ويمكن من خلال هذا الخطاب تصوّر سلّم حجاجي، وحكمه الأول (ح 1) تقديم الخبر خاليا من أيّ أداة توكيد (القلم الذي نسبتم ناديكم إليه ...) ويرتّب هذا الحكم في أدنى السلّم الحجاجي، ثمّ يأتي الحكم الثاني (ح 2) بعد إدخال أداة التوكيد (إنّ) ويرتب هذا الحكم في أعلى السلّم، كل ذلك يخدم نتيجة (ن) تفهم من فحوى الكلام (مطابقة الاسم للمسمّى)، ويمكن توضيح هذه العملية من خلال الرسم البياني الآتي :

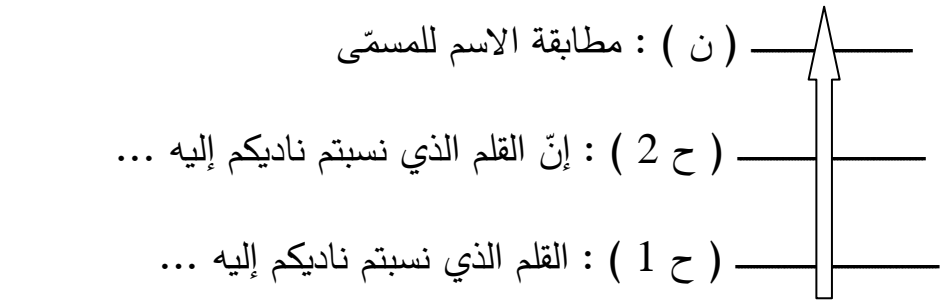

ومن ذلك أيضا : " أيّها الأبناء : إنّ أمتكم تعوّل عليكم، شرط أن تعدّوا أنفسكم إعدادا روحيّا لا بدنيّا " [3]، استعمل الشيخ أداة توكيد واحدة (إنّ) من أجل أن يثبت حقيقة في أذهان شباب المسلمين، وحتّى يزيل أيّ شكّ قد يساور أفكارهم، أو يخالط أفهامهم، فأنظار الأمّة إليهم

[1] ـ المصدر السابق، ج 2، ص 407 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 208 .
[3] ـ المصدر نفسه، ج 4، ص 210 .

متشوّفة، وعيونها عليهم عالقة، وأمالها عليهم منعقدة، وقد أورد هذا الخطاب بغية خدمة نتيجة قد تكون حاضرة من خلال سياق الكلام : (تنبيه الشباب من غفلته)، ويمكن توضيح هذه العملية من خلال الرسم البياني الآتي :

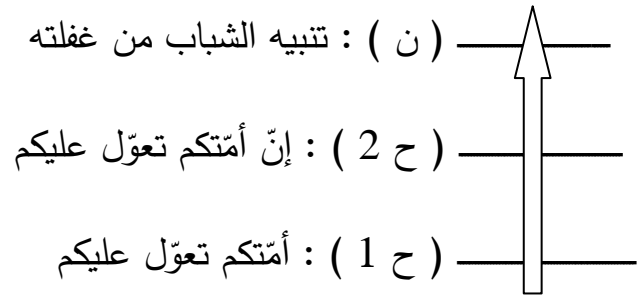

(ح 1) : الحجّة الأولى بدون إن ـــ (ح 2) : الحجة الثانية بعد استعمال إن ـــــــــ (ن) : النتيجة .

وكذلك قوله : " إنّ شبابنا اليوم يتخبّط في ظلمات من الأفكار المتضاربة والسبل المضلّة، تتنازعه الدعايات المختلفة التّي يقرأها في الجريدة والكتاب ... " [1]، يتحدّث الشّيخ عن حال الشباب في ظلّ الصّراع الحضاري، والانفتاح الإعلامي، منبّها إلى خطورة التفتّح الغير مشروط على العالم الغربي، سواء كان ذلك من خلال الجريدة والكتاب أو من خلال الشّارع والمدرسة، ومن أجل أن يؤكد هذه الحقيقة لجأ إلى استعمال أداة التوكيد (إنّ) لأنّ هذه الحقيقة واضحة جليّة، وإنّما أضاف الأداة ليوضح المعنى وينزع الشك، ويبعد الوهم، ويزيد في قوّة الحجاج، كل ذلك من أجل الوصول إلى نتيجة تفهم من سياق الكلام (خطر الانفتاح الكلي على شباب الأمة)، ويمكن توضيح هذه العملية من خلال الرسم البياني الآتي :

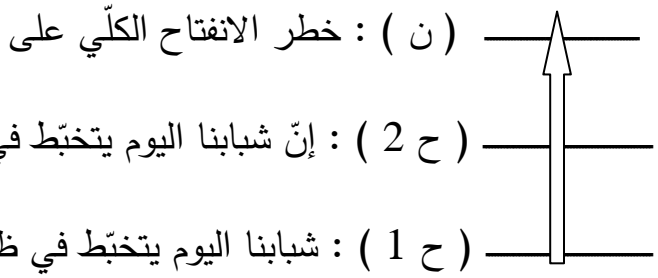

[1] ـ المصدر السابق، ص 221 .

(ح 1) : الحجة الأولى قبل استعمال إن ـــــ (ح 2) : الحجة الثانية بعد استعمال إن ـــــ (ن) النتيجة .

2 ـ 2 ـ 3 ـ الخبر الإنكاري :

وفي هذه الحالة يضطرّ المخاطِب إلى استعمال كافّة الأدلّة لإقناع المخاطَب، ويستعمل من أجل ذلك أكثر من أداة توكيد ولذلك سمي هذا الضرب من الخبر إنكاري، لأنّ صاحبه منكر للخبر ومكذّب له يجب تعاضد الأدلّة من أجل إقناعه .

ومثاله قوله: " وإنّ الحكومات الرشيدة لتلتمس المعونة على تثقيف شعوبها من يستطيعه من جمعيات وأفراد " [1]، حيث استعمل الشيخ أداتي توكيد (إنّ) و (لام التوكيد) الداخلة على الفعل (تلتمس) وذلك من أجل إثبات مسألة مرّت على حكومات الجزائر المتعاقبة، ولم ينتبه لها أصحاب السياسة، وكأنّهم منكرون لها، أو عازفون عنها، تتمثّل في ضرورة استعانة الحكومة بكل الطّاقات التي من شأنها رسم خارطة الطّريق، وهذا وَضَعَ الخطاب في سلّم حجاجي يمكن وضع حجّته الأولى في أدنى السلم وهي الجملة الخالية من أي أداة توكيد، ثمّ وضعه جملته الثانية في درجة أعلى منها وهي الجملة التي فيها أداة توكيد واحدة، ثم نضع في أعلى السلّم الحجاجي الجملة التي تحتوي على أداتي توكيد، كل ذلك يخدم نتيجة واحدة تفهم من سياق الكلام (ضرورة استعانة الحكومة بكلّ الطاقات الفرديّة والجماعيّة) ويمكن توضيح هذه العلاقة في الرسم البياني الآتي :

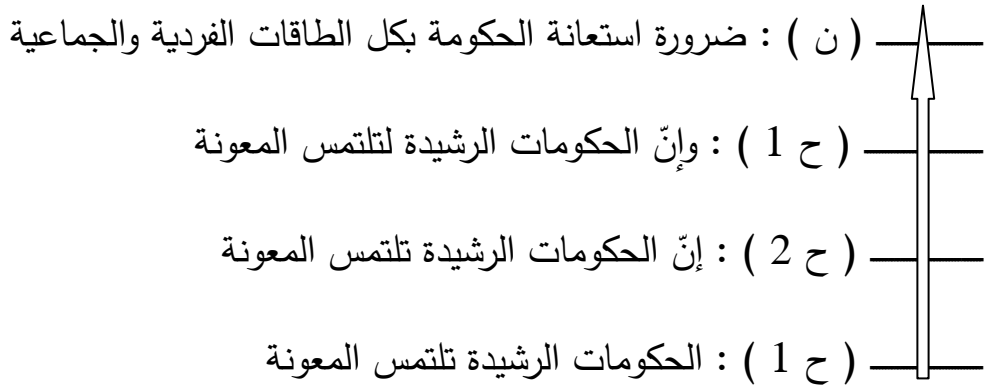

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 49 .

ويظهر ذلك أيضا من قوله : " ... وفيكم من يأنف من خؤولتها لأبنائه فيختار لهم أخوالا غرباء، وإنّ ذلك لقدح محسوس وإنّ بعضها لسمّ مدسوس ... "[1]، يتحدّث الشيخ عن اللّغة العربية، وكيف أهانها أهلها، واستكفوا على تعلّمها، واستبدلوها بلغة الغرب منهجا لأبنائهم، ولا شكّ أنّ هذه انتكاسة عظيمة، ومصيبة كبيرة ولذلك استعمل الشيخ أداتي توكيد (إنّ) و (لام الابتداء) حتّى يثبت هذه الردّة، ويقرّ بهذه الحقيقة فتكون توبيخا مصحوبا بإقرار، وتوجيها مصحوبا باستنكار، ويمكن إعادة هذا الخطاب في سلّم حجاجي حجّته الأولى خالية من أي أداة توكيد، ووضع الجملة الثانية في درجة أعلى تستعمل أداة توكيد واحدة، ثمّ الجملة الثّالثة في أعلى السلّم وهي التي نستعمل فيها أداتي توكيد، كلّ ذلك يخدم نتيجة واحدة (ضرورة الاعتناء باللغة العربيّة) ويمكن تطبيق العملية نفسها مع الشطر الثّاني من الخطاب (وإن بعضها لسمّ مدسوس) :

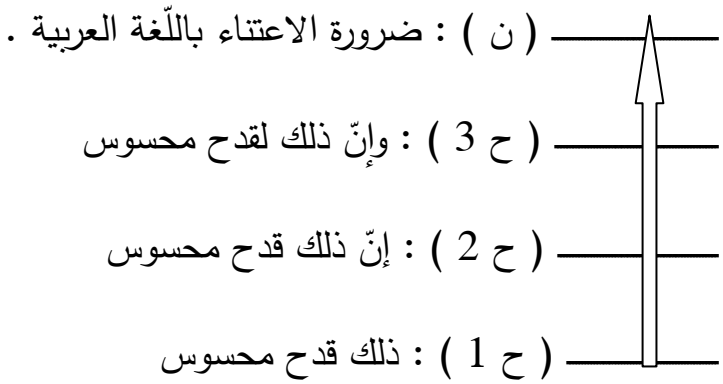

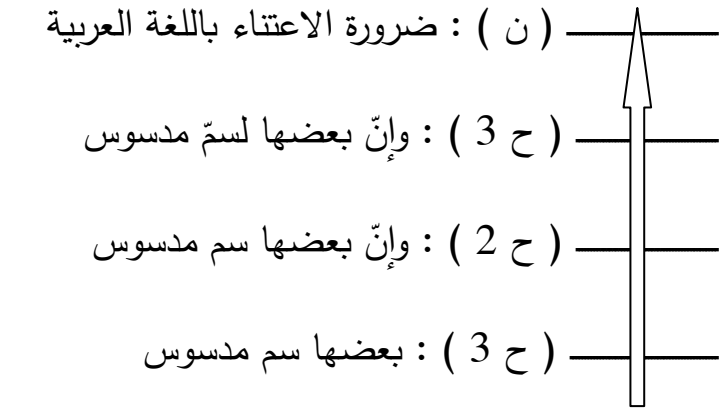

ومثاله أيضا قوله : " إنّها والله لجريمة، يقيم بها مرتكبوها الدليل على أنّهم أعداء للعلم وقطاع لطريقه "[2]، يشير بهذا الكلام إلى المتعالمين الذين يفتون في الدّين بغير علم ولا بيّنة،

[1] ـ المصدر السابق، ص 67 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 68 .

ولا يمنعهم جهلهم من الإفتاء في مسائل لو سئل عنها عمر لجمع لها أهل بدر، فكان عملهم هذا دليل على عداوتهم للعلم، وقطعهم لطريقه، وحتّى يلصق الشيخ هذه التّهمة بأصحابها استعمل ثلاث أدوات توكيد (إنّ) والقسم ولام الابتداء، فرسم بذلك سلّما حجاجيّا تعدّدت فيه الحجج وترتّبت على حسب استعمال أدوات التوكيد حيث كان في أدنى السلّم الحجاجي الجملة الخالية من أي أداة وكانت الجملة التي فيها ثلاث أدوات توكيد في أعلى السلّم، كل ذلك يخدم نتيجة تفهم من سياق الكلام (ضرورة الإجازة من أجل الإفتاء) ويمكن توضيح هذه العملية من خلال الرسم البياني الآتي :

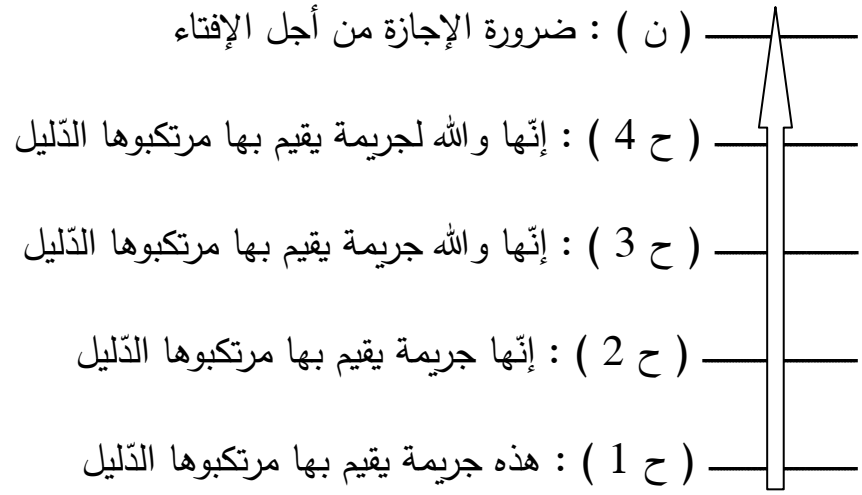

3 ـ الصيغ الصرفية (اسم التفضيل وصيغ المبالغة) :

3 ـ 1 ـ اسم التفضيل : من أدوات السلّم الحجاجي صيغة التفضيل، لأنّها تنقل المتلقي من حالة إلى أخرى وفق سلّم تصاعدي أو تنازلي ويقصد بصيغة التفضيل : " الصفة الدّالة على المشاركة والزيادة " [1] .

فهي مقارنة أفضلية بين مشتركين في صفة معينة، تظهر في أحدهما بشكل أفضل ونحو أنسب، فنقول سعيد كريم ومحمد أكرم منه، ويمكن أن نقيم من هذا الخطاب سلما حجاجيا قضيّته الأولى الحكم على سعيد بالكرم، وتترب في أدنى السلم الحجاجي والقضيّة الثّانية زيد أكرم منه، وتوضع في أعلى السلّم كل ذلك من أجل أن نثبت شدّة كرم محمّد .

[1] ـ بن هشام الأنصاري، شرح قطر الندى وبل الصدى، ص 240 .

. صيغة التفضيل عند البشير الإبراهيمي :

لقد استخدم الإبراهيمي صيغة التفضيل في كثير من خطبه، من ذلك قوله :" وفصل الدّين عن الحكومة مبدأ جمهوريّ فرنسيّ، ولكنّه من أكذب المبادئ بالنّسبة إلى دين الإسلام في الجزائر " [1]، في هذا المقبوس يشير إلى وعود فرنسا الكاذبة، ومبدأ فصل الدّين عن الدّولة الذي طبّقته على الكنيسة، وحرمت منه المسجد، فجاء بهذا الأسلوب ووظّف اسم التفضيل (أكذب) ليدلّل على صحّة مقاله، وصواب رأيه، ووضع هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي بينما وضع باقي أكاذيب فرنسا في أدناه، كل هذا يخدم نتيجة تفهم من سياق الكلام (خلف فرنسا لوعودها) يمكن توضيح هذه المعادلة من خلال الرّسم البياني الآتي :

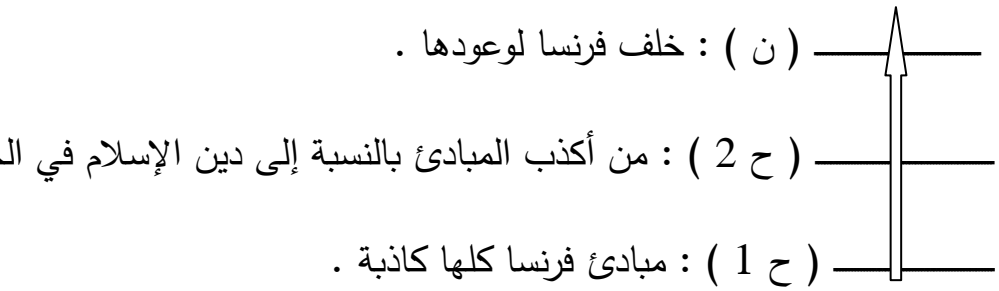

(ح1) : الحجّة والقضية الأولى ـــــ (ح 2) : القضيّة الثانيّة بعد استعمال اسم التفضيل ـــــ (ن) : النتيجة .

ومثاله أيضا قوله : " وما أروع قوله : من رأى منكم اعوجاجا فليقوّمه وأروع منه قول مجيب من الرعيّة : لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا، وأبلغ منهما في الرّوعة أن يحمد عمر ربه على أن يكون في أمّة محمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ من يقوّم عمر بسيفه " [2]، حيث يتحدّث هنا عن الرعيل الأول من الصّحابة، وكيف قدّموا المثال الأروع لدين الإسلام، فكانوا دعاة وهداة جسّدوا هذا الدين في معاملاتهم، وقد أشار في هذه الأسطر إلى ذلك الحوار الذي دار بين عمر بن الخطاب وأحد أفراد رعيّته، هذا الحوار بيّنه الشيخ في سلّم حجاجي ليعلّل موقفه ويوضّح رأيه، قضيّته الأولى النماذج الرائعة التي مثّلها السّلف الصّالح فوضع ذلك في أدنى السلّم الحجاجي، ثمّ تحدّث عن قول عمر ـ رضي الله عنه ـ فوضعه في درجة أعلى

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي ، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 51 .
[2] ـ المصدرنفسه، ج 4، ص 359 .

(من رأى منكم اعوجاجا فليقوّمه)، ثمّ تحدّث عن جواب رجل من رعيل الصحابة (لو رأينا فيك اعوجاجا لقوّمناه بسيوفنا) فوضعه في درجة أعلى من الثّانية، ثمّ تحدّث عن موقف عمر (حمد الله أن يكون في أمّة النبيّ من يقوّم عمر بسيفه) فوضعه في أعلى السلّم الحجاجي، كلّ ذلك من أجل نتيجة تفهم من سياق الكلام (السموّ الرّوحي للرعيل الأوّل من السلف الصّالح)، ويمكن توضيح هذا المثال عن طريق الرسم البياني الآتي :

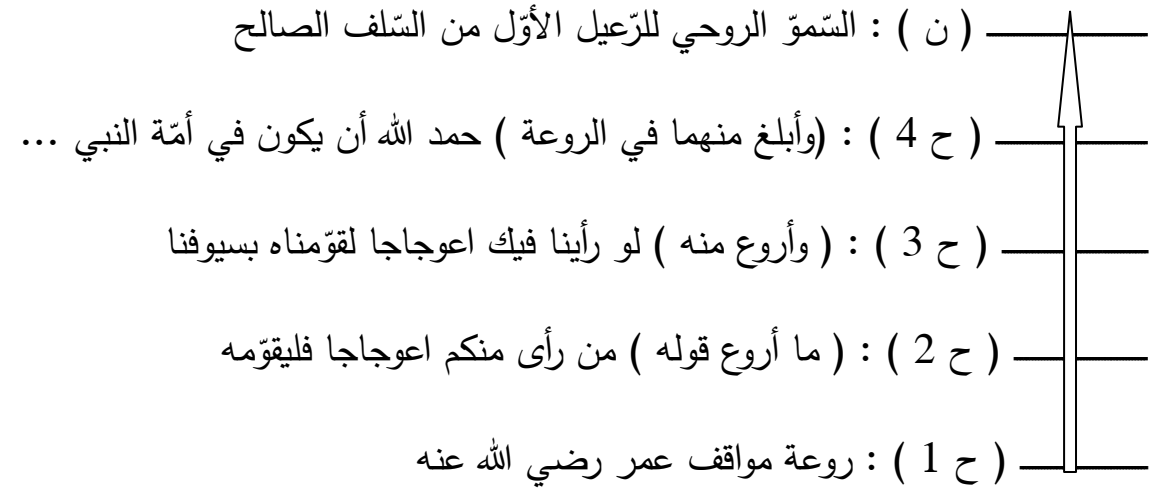

ويقول في موضع آخر: " ومن أسفه السّفه دعوى مجانين السّياسة من الفرنسيّين أنّها قطعة من فرنسا " [1]، يتحدّث الشّيخ عن المعتقد الذي تريد فرنسا أن تشيعه في الأوساط الجزائريّة، وعدّه من أسفه الآراء، وأسخف الادّعاء، ووضع هذه الدعوة في أعلى السلم الحجاجي، ويمكن وضع باقي الدعاوي في أدنى السلّم فقد قالوا: إنّ الجزائر مستعمرة فرنسيّة، وقالوا: إن الجزائر ولاية فرنسيّة، وقالوا: إن الجزائر تابعة لفرنسا، وقالوا ... ويمكن وضع هذه الحجج لخدمة نتيجة واحدة (فشل فرنسا في مساعيها) .

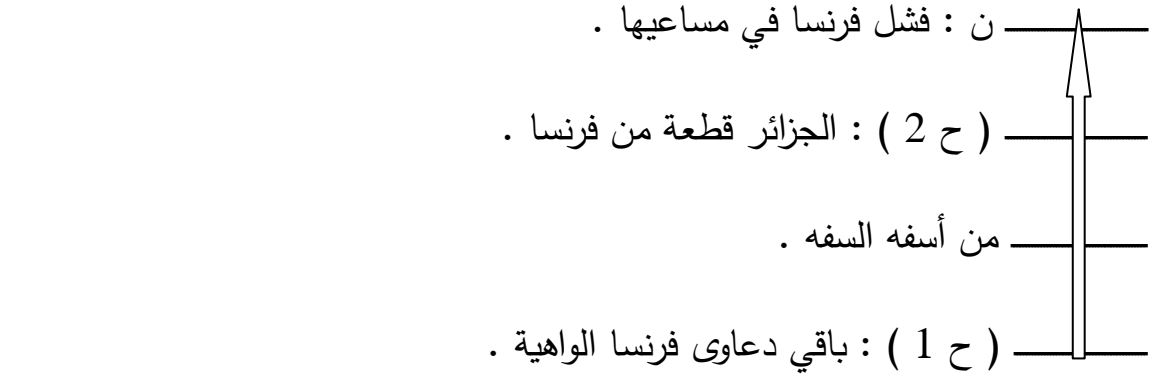

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 378 .

وممّا قاله أيضا : " فنحن الجزائريّين بلونا من تلك المكائد ما جعلنا أفقه النّاس في تلك المخزيات التي يأتيها اليهود في العالم " [1]، لا شكّ أنّ خطر اليهود يعلمه القاصي والدّاني، فقد خبر العالم مكرهم، وعرف غدرهم وأيقن شرّهم، فهم سبب الفتن، ووقود الحروب التي عاشها العالم، وعلّة كل بلاء حل على البشريّة، وقد عرف الجزائريون من خلال معاملتهم لليهود واختلاطهم بهم كلّ هذه الحقائق فكانوا بذلك أفقه النّاس بحال اليهود، ووضع الشّيخ هذه المعرفة في أعلى السلّم الحجاجي واستعمل في ذلك صيغة التفضيل (أفقه) للتّدليل على قالته، كل ذلك يخدم نتيجة واضحة (اليهود قوم بهت غدر) ويمكن توضيع هذه العمليّة الحجاجيّة في الرّسم البياني الآتي :

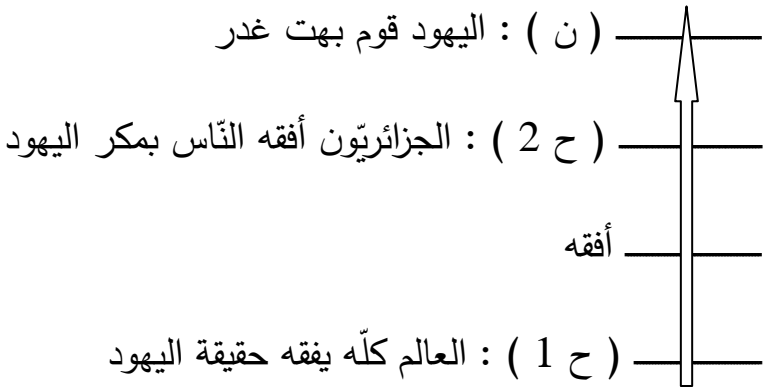

وفي المقال نفسه يواصل قائلا : " كارثة فلسطين من أعمق الكوارث أثرا في نفوس المسلمين الصّادقين " [2]، لقد كان جلّ العالم العربي يعيش وطأة الاستدمار ويكابد ويلاته، يعاني التخلّف والأمّية والفقر، فكانت هذه كلّها كوارث متفرّقة ومصائب متنوّعة، ولكن بالنّسبة للمسلمين الصّادقين فإنّ كارثة فلسطين أكبرها على الإطلاق، لأنّ عاصمتها تمثّل أولى القبلتين، وثالث الحرمين الشرفين، ومسرى خاتم الأنبياء والمرسلين، واستعمل الشيخ في بيان هذه الحقيقة صيغة التفضيل (أعمق) ليضعها في أعلى السلّم الحجاجي، ويمكن تصور هذا السلم على النحو الآتي :

[1] ـ المصدر السابق، ص 393 .
[2] ـ المصدر نفسه، الصفحة نفسها .

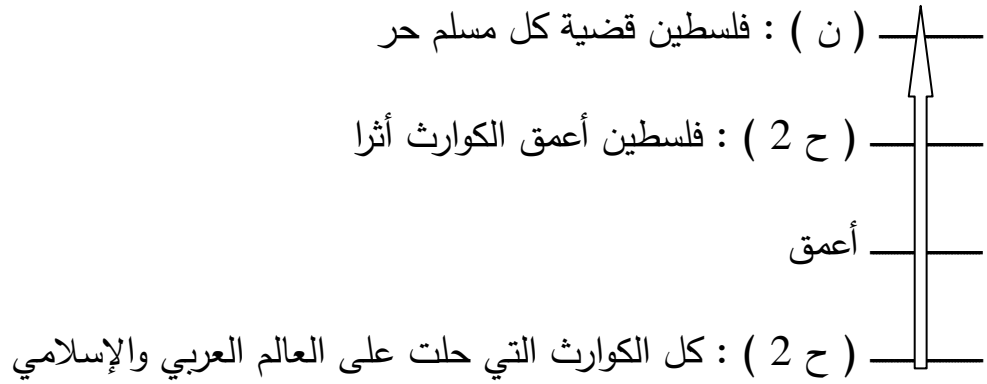

3 ـ 2 ـ صيغ المبالغة :

صيغ المبالغة تشبه اسم الفاعل من حيث الدلالة على الفعل وفاعله، " صيغ المبالغة تدلّ على الحدث وفاعله " [1]، غير أنّها تفضله في بالمبالغة في الدلالة فنقول مثلا : سعيد نائم الضحى ونقول سعيد نوّام الضّحى، فاسم الفاعل (نائم) يدل على أن سعيد ينام في الضّحى بينما (نَوَّام) تدل على كثرة النّوم في الضحى وملازمته له حتّى وكأنّه عرف به ويقول صاحب الصرف الكافي : " صيغ المبالغة عبارة عن كلمات محوّلة من صيغة (فاعل) للدلالة على الكثرة والمبالغة في الحدث إلى أوزان خمسة مشهورة تسمى صيغ المبالغة " [2] وهو تقريبا نفس ما ذهب إليه محمد فاضل السامرائي : " هي أسماء تشتقّ من الأفعال للدلالة على معنى اسم الفاعل مع تأكيد المعنى وتقويته والمبالغة فيه " [3] .

لصيغ المبالغة أوزان متعددة أشهرها خمسة : (فَعَّالٌ، فَعُولٌ، مِفْعَالٌ، فَعِيلٌ، فَعِلٌ) .

أ ـ **فَعَّالٌ** : نحو : قوّال، قوّام، صوّام، مشّاء، قال تعالى : ﴿ **وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ (10) هَمَّازٍ مَشَّآءٍ بِنَمِيمٍ (11) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ اَثِيمٍ (12)** ﴾ (سورة القلم، آية 10-11-12)، قال صلى الله عليه وسلم : (ليس بالمؤمن بالطعّان ولا اللعّان ...) [4]، قال البارودي :

وَلَسْتُ بِعَلَّامِ الغُيُوبِ وإنَّمَا أرَى بِلِحَاظِ الرَّأْيِ مَا هُو وَاقِعُ [5]

---

[1] ـ أيمن أمين عبد الغني، الصرف الكافي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، س 2010، بد ط، ص 179 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان، دار بن كثير، لبنان، س 2013، ط 1، ص 99 .
[4] ـ أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، دار التأصيل، مصر، ط 1، س 2014، م 1، ص 231 .
[5] ـ محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، دار العودة، لبنان، بد ط، س 1998، ص 316 .

ومن النصوص سابقة الذكر يظهر : " إنّ الشيء إذا كرّر فعله بني على (فَعَّال)، وقيل إنّ فعّالاً في المبالغة منقول عن فعّال في الصناعة " [1] .

وهذا المعنى يقتضي الملازمة والمداومة، فكثير من مهن الصناعة تأتي على صيغة (فَعّال) لأنّ أصحابها ملازمون لها مداومون عليها، حتّى عرفت بهم وعرفوا بها، وكذا يقال في (كذّاب) للذي يلازم الكذب ويعرف به، وكأنّه أصبح مهنة له .

ومن أمثلة ذلك قول الإبراهيمي : " وأضيع شيء قولك للأسد أشجع، وللنجم أطلع، وإنّما نحن قوّامون على العلم، مؤتمنون على حركاته القائمة " [2] ويقصد بحديثه أحد الأغنياء الذين أسهموا بحظ وافر في نشاط جمعيّة العلماء، والذي يعتبر العطاء سجيّة فيه، والكرم طبيعة لازمة له، فلا يحتاج إلى مدح مادح، ولا إلى لوم عاذل، ولكن من واجب الجمعية التنويه بمثل هذه الأعمال، حتّى يكون أصحابها مثالا للتّأسي ونموذجا للاقتداء، ولذلك استعمل الشيخ صيغة المبالغة (قوّام) حتّى يؤكد هذا الواجب الذي تدين به الجمعيّة لهؤلاء الرجال، وليضع هذا العمل في أعلى السلّم الحجاجي، ويمكن تصور هذه العملية من خلال الرسم البياني الآتي :

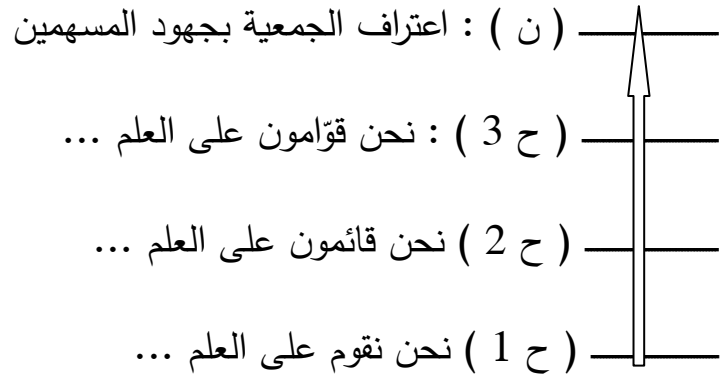

فتكون القضايا الأولى متصوّرة للسلّم الحجاجي، حيث يتبيّن الارتقاء بالمعنى من درجة إلى أخرى أعلى منها، ووضع الشيخ صيغة المبالغة (قوّامون) لتكون في أعلى السلّم الحجاجي، وكأن مهمة القوامة على الدّين وعلى العلم هي مهمّة الجمعيّة، وصنعتها التي تعرف بها .

[1] ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان، ص 99 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 314 .

وفي حديثه عن الشباب جاء قوله : " إنّ بين أيدينا ودائع شباب متطلع إلى الكمال، توّاق إلى السبق حريص على دقائق عمره أن تنفق إلّا فيما ينفق " [1] . وهو يقصد بذلك الشباب الجامح، وشغفه إلى طلب العلم، وتشوّفه إلى المنارات التي بسطت أيديها لاحتضانه كالأزهر والزّيتونة، وأنّ هذا الشباب لن يحقّق مراده ويروي عطشه ويدرك بغيته إلا إذا كانت هذه المنارات أهلا لاحتضانه وملاذا آمنا لطموحاته، فعبّر الشيخ عن هذه الهمم العاليّة بصيغة المبالغة (توّاق) من الفعل تاق جاء في لسان العرب : " تَاقَت نَفْسِي إلى الشّيء تَتُوق تَوْقا وتُؤُوقا : نَزَعَت واشْتَاقَت ... والتَّوْقُ : الشَّوْقُ إلى الشيء والنزوع إليه " [2]، فجعل الشيخ هذا التوقان في أعلى السلّم الحجاجي ليبرهن على الحرص الذي كان يملأ قلوب طلبة العلم، والرغبة الطامحة التي كانت تدفعهم إلى الهجرة في سبيل تحصيله، ويمكن تجسيد هذه العملية الحجاجيّة من خلال الرسم البياني الآتي :

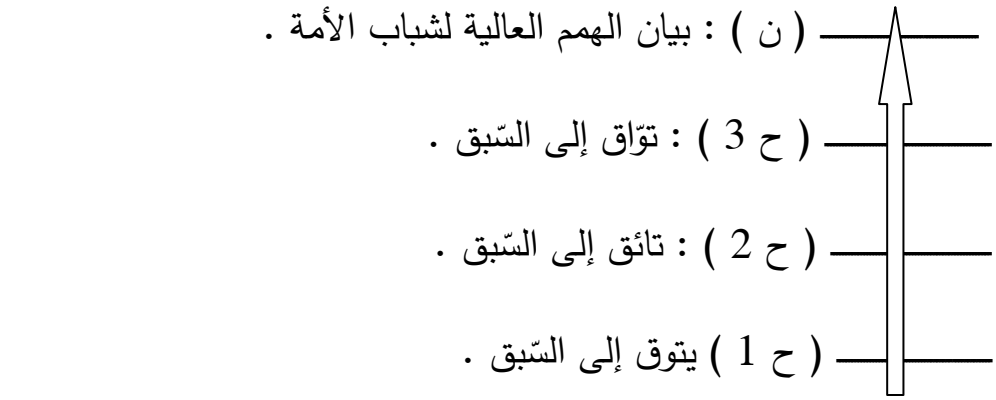

ويقول في مقام آخر : " وفقدته جمعيّة العلماء ففقدت ركنا باذخا من أركانها لا كلا ولا وكلا، بل نهّاضا بالعبء مضطلعا بما حمل من واجب " [3]، يتحدّث هنا عن فقد هامة علميّة، وقامة تاريخيّة، قلّ ما يجود الزمان بمثلها، شهد على سعة علمه القاصي والدّاني، والعدوّ والصّديق، صاحب كتاب : (تاريخ الجزائر القديم والحديث)، إنّه مبارك الميلي الذي كان مباركا على الجزائر، ومباركا على جمعيّة العلماء ولذلك يتحدّث عنه الشيخ بهذه النبرة لأنّه أعرف الناس به، وأعلمهم بقيمته وقدره، فجاء بصيغة المبالغة (نَهَّاض) من الفعل (نَهَضَ) جاء في لسان العرب : " نَهَضَ : النُّهُوضُ : البَرَاحُ مِن المَوْضِع والقِيَامُ عَنْه، نَهَضَ يَنْهَضُ

[1] ـ المصدر السابق ج 3، ص 550 .
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 33 .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 183 .

نَهْضًا ونُهُوضًا وانْتَهَضَ أيْ : قَامَ " [1]، ليدلّل على مدى اجتهاد الشيخ مبارك الميلي، وإحساسه بواجبه نحو الجزائر، وعمله الدؤوب من أجل نشر العلم ومحاربة آفات الاستدمار، فلم يكن ينهض تارة ويخبت أخرى، ولم يكن نَاهِضًا بعض الوقت نائما في آخر، بل كان (نَهَّاضًا) في كل الوقت، وكأنّ النهوض مهنة عرف بها وعرفت به، كلّ ذلك يخدم نتيجة تفهم من سياق الكلام (القيمة العلمية لرجال الجمعية) :

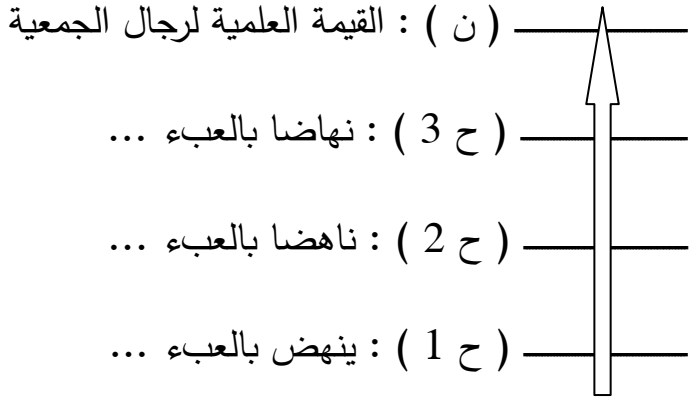

ويقول الشيخ أيضا : " أنّ مِثلَ فَاضِل الجَمّالِ في عِلْمِه وعَقْلِه الصَــوّال

ورُوحِه وفِكْرِه الجَــوّال يَأْسَى على طَاغُوتِهَا المُزَالِ " [2]

ربّما أضفت هذا المثال حتّى أبيّن جانبا آخر من بلاغة الشّيخ، فإضافة إلى قدرته المتفرّدة في الخطابة والكتابة ونثره الرائع كان شاعرا فحلا وأديبا بليغا، وقد كتب هذه القصيدة مداعبا صديقه فاضل الجمالي صاحب أوّل دكتوراه في علوم التربية في العراق، الذي شغل منصب رئيس الوزراء سنتي (1953 . 1954)، وقد عاتبه فيها على الدّعوة التي قدّمها له لزيارة بغداد وإغفاله لرفيق دربه فضيل الورتلاني، وكانت هذه القصيدة عامرة بالحبّ مليئة بمشاعر الودّ والاحترام .

وصف الشيخ عقل صاحبه بـ (الصوّال) وفكره بـ (الجوّال) ليدلّل على قيمة صاحبه العقليّة والفكريّة، وصوّال من الفعل (صَالَ) جاء في قاموس اللّغة العربيّة المعاصر : " ص و ل : صَالَ على : يَصُولُ، صِلْ،صَوْلاً، صَوَلاَنًا، فهو صَائِلٌ، والمَفْعُولُ مَصُولٌ عليه

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 7، ص 245 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 4، ص، 405 .

صال فلان على خصمه : سطا عليه وقهره " [1]، وصوّال تضع الحجّة في أعلى السلّم وجاء هذا الرسم موضّحا هذه العمليّة :

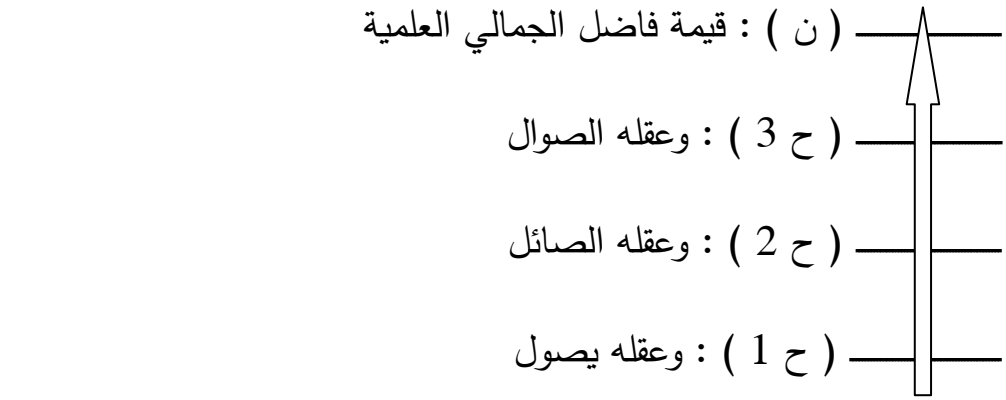

ب : فَعُـولٌ : ومثاله : أكول وشروب وغفور وصبور ...قال تعالى : ﴿ **إِعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ (سورة سبأ، آية 13)، سئل رسول الله ﷺ: أيُّ النّاس أفضل ؟ فقال: (كلُّ مخمومِ القلب صدوقِ اللسان) [2]، وقالت العرب :

ضَحُوكُ السِنِّ إن نَطَقُوا بخَيْرٍ وعِنْدَ الشَّرِّ مِطْـــرَاقٌ عَبُوسُ

وهذا من دقّة اللّغة العربيّة وجمال بنائها : " هذا البناء في المبالغة منقول من أسماء الذوات فإنّ اسم الشيء الذي يفعل به يكون على (فَعُول) غالبا كالوَضُوء، والوَقود، والسَّحور، والغَسول، والبَخور " [3] .

كما إنّه كلام رائق وجميل، فالوَضوء بفتح الواو اسم للماء الذي يُتوضأ به، والسَّحور اسم للأكل الذي يتسحر به، وهكذا يقال في صيغ المبالغة التي تكون على صيغة (فَعُول) فعندما نقول (أَكُول) وكأن من اتصف بهذه الصفة أصبح من كثرة أكله مادة معدة للأكل وعندما نقول صَبُور وكأنّ صاحب الوصف هو المادة المعدة للصبر بحد ذاتها .

[1] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، م 1، ص 1337 .
[2] ـ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ص 1409 - 1410 .
[3] ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعاني، ص 101 .

وفي هذا الصدد يقول الإبراهيمي في معرض حديثه عن محمد بن شنب في حفل تأبينه: " الرجل صبور والصبر مطيّة النّجاح وقوام الحياة كلها " [1]، وقد أشار إلى خصلة من خصاله، وصفة من صفاته، طالما تميز بها، وعرفت به وعرف بها، في ظلّ الظّروف التي كانت تعيشها البلاد بل العالم كلّه من حروب ودمار وفقر وتخلّف وأمية، ولكنّ كدر الدّنيا لم يذهب بصفاء الدّين، والظّروف لا تقهر الرجال بل تزيدهم ثباتا وعزما وكذا كان محمّد بن شنب، فلم تمنعه هذه الظروف من طلب العلم حتّى صار صاحب أوّل دكتوراه في الجزائر وجاء الشّيخ بهذه الصفة على شكل صيغة المبالغة (فَعُول) ليبرهن على كلامه، ويجعلها صفة لصيقة به، ووضع هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي، كل ذلك يخدم نتيجة تفهم من السّياق (علو همّة محمّد بن شنب)، ويمكن توضيح هذه العمليّة وفق الرّسم البياني الآتي :

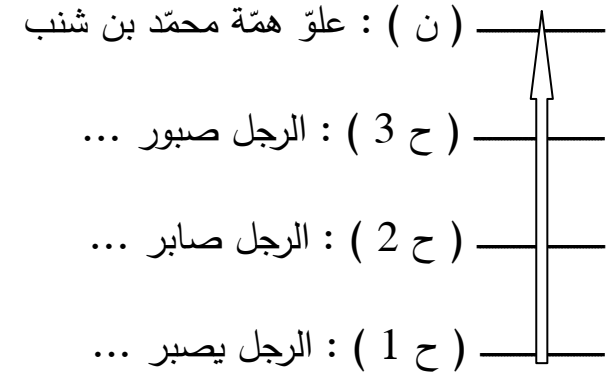

ويصف آخر قائلا : " غيورا على وطنه غيرته على دينه " [2]، يتحدث الشيخ عن علم آخر من أعلام الجزائر، وعن قامة علمية أخرى من أبناء جمعيّة العلماء، إنّه فضيل الورتلاني وقد نسب إليه الغيرة بصيغة المبالغة، ليربط بين أمرين جليلين ومسألتين عظيمتين تختلجان قلب كل جزائري (حبّ الدّين وحبّ الوطن) فأثبت الثّانية بالأولى فأصبحت دليلا إضافيا لمدى تعلّق الفضيل بوطنه واعتزازه به وغيرته عليه، ليضع الشّيخ هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي وجاء الرسم البياني الآتي ليوضّح هذه العمليّة :

[1] ـ أحمد طالب الابراهيمي، آثار الإمام البشير الابراهيمي، ج1، ص 46 .
[2] ـ المصدر نفسه، ج 2، ص 329 .

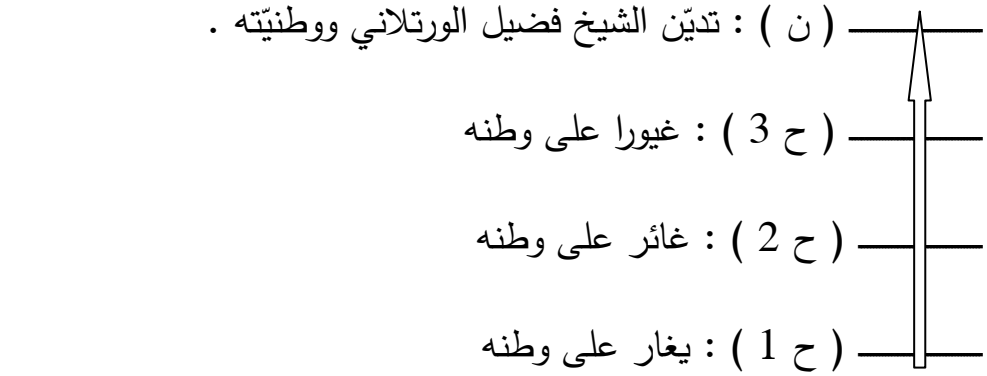

ويواصل وصفه لأعضاء جمعية العلماء المسلمين : " وأنّه يرجع منه إلى عقل متين، ورأي رصين، ودليل لا يضلّ، ومنطق لا يختلّ، وقريحة خصبة، وذهن صيود " [1]، فحديثه في هذه الفقرة عن مبارك الميلي، ومصيبة فقده بعد ثلاث سنوات، فرزية الجزائر في رجالها لا تكاد تنتهي، والشّيخ عندما يتحدث عن رجال الجمعية فإنّما يصوّرهم بعين البصير، الذي خبر أحوالهم، وعرف أخبارهم، وعلم مدخلهم ومخرجهم، فوصف ذهن مبارك في هذه الفقرة بالصّيود، فلا شك أنّ الذي يخالط العلماء تصيبه نفحة من نفحاتهم وتتنزّل عليه همّة من نشاطهم، فلا يجد ملحظ علم إلاّ تمسك به، ولا لفتة من لفتاتهم إلا وأمسكها كما يمسك الصيّاد فريسته، بل إنّ الفكرة بحد ذاتها إذا صادفت عقلا متفتّحا وذهنا شغوفا، وهمّة عالية التصقت به، فلم يملك مبارك ذهنا يصيد أو ذهنا صائدا فحسب، بل ذهنا صيودا جاء في معجم اللغة العربية المعاصر : " صَاد يَصِيد، صِدْ صَيْدا، فهو صَائِدٌ والمفعول مَصِيدٌ، صَاد الطير ونحوه قَنَّصَه، أو أمْسَكَه بالمَصْيَدة، أو أصابه بالبارود " [2]، فوضع الشيخ هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي خادما لنتيجة يمكن أن تفهم من السياق (مكانة مبارك الميلي العلمية) :

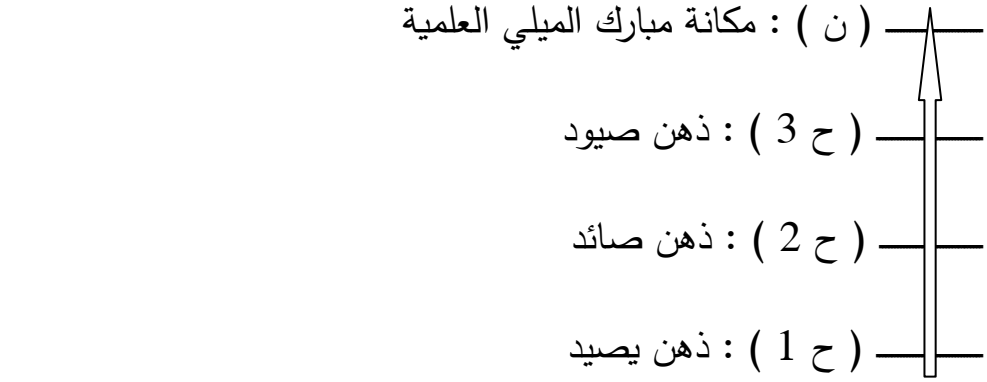

[1] ـ المصدر السابق، ص 185 .
[2] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، م 1، ص 1285 .

ـ **مِفْعَالٌ** : ومثاله : مقوال ومقراض ومفتاح ومقدام ومحجام ... قال تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ** ﴾ (سورة الأنعام، آية 6) ، وقال ﷺ : " إنّ هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشرّ، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشرّ مغلاقا للخير " [1]، وقال الشاعر :

عَامِدَاتٍ للبَدْرِ والبَحَر والضِّرْ غَامَــةِ ابن المُبَارَكِ المِفْضَالِ [2]

وكثيرا ما يكون اسم الآلة على وزن مِفْعَال " قيل : إنّ مِفْعَالاً لمن اعتاد الفعل حتّى صار له كالآلة، فالأصل في (مفعال) أن يكون للآلة كالمفتاح وهو آلة الفتح، والمنشار وهو آلة النشر، والمحراث وهو آلة الحرث فاستعير للمبالغة " [3]، وكذا يقال في (مِفْراح) الرجل كثير الفرح حتّى كأنّه أصبح آلة للفرح، ويقال (مِحْذار) للرجل شديد الحذر حتّى كأنه أصبح آلة للحذر .

ومن أمثلة ذلك عند البشير الإبراهيمي حديثه عن عبادة الصّيام : " تجويع جبري يذوق به النّاعم طعم الخشونة، والواجد طعم العدم، والمِبْطَان ألم الجوع " [4]، فالصّيام عبادة نسبها الله عز وجل إلى ذاته، ورتّب لفاعلها حسن الثواب وجميل العطاء، لأنّها العبادة الوحيدة التي لم يعبد بها إلّا الله عزّل وجلّ، تتجلّى فيها مظاهر الإخلاص ومعاني العبودية، قال الله تعالى: ﴿ **يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ (سورة البقرة، الآية 183) ، ويعدّ الصّيام تجسيدا للعدالة الاجتماعيّة، وتربية لأطياف المجتمع، حتّى يشعر بعضهم ببعض، ويحس بعضهم بآلام بعض، فالغنيّ لا يشعر بآلام الفقير إلا إذا قرصه الجـوع والمِبْطَان لا يشعر بقرصة الجـوع إلا إذا ذاق لَأْوَاءه، وصيغة المبالغــة (مِبْطَان) مأخوذة من الفعل (بَطِن) جاء في مختار الصحاح : " وبَطِنَ من باب طَــرِبَ عَظُمَ بَطْنُــه

[1] ـ ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ح (238)، ص 87 .
[2] ـ المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، لبنان، 1983، بد ط، ص 122 .
[3] ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعاني، ص 100 .
[4] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 308 .

من الشّبع " [1]، فوضع الشّيخ هذا الحكم في أعلى السلم الحجاجي، وكأنّ المبطان عبارة عن آلة للأكل وبطنه مصنع له، كلّ ذلك يخدم نتيجة تفهم من السّياق (الصّيام مدرسة عمليّة للتربيّة) ويمكن توضيح هذه العمليّة الحجاجيّة من خلال الرسم البياني الآتي :

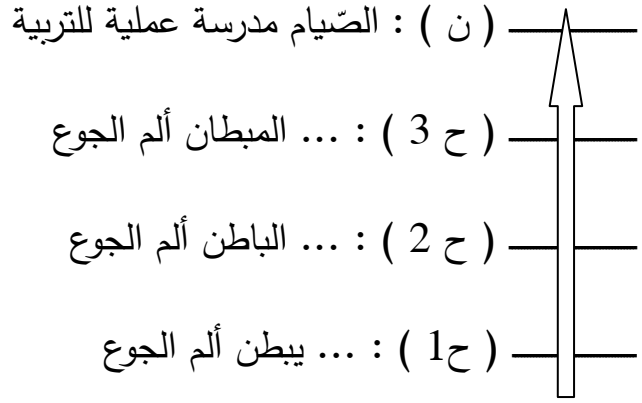

وقال أيضا في طلبة العلم : " وفرضت عليهم الحياة أن يأخذوا الكثير من العلم في القليل من الوقت وأرتهم مصداق ذلك حتّى لا يرتاب مرتاب " [2]، وهو يشير إلى طلبة العلم الذين تعاهدتهم الجمعيّة، وقذفت في قلوبهم حبّ العلم والشّغف به، والحرص عليه، والنّصب في طلبه، والذين يتشوفون إلى المزيد من العلم في الزيتونة، هؤلاء الطلبة الذين خبرتهم الحياة وخبروها، فلم تر منهم إلا الحرص والتّحدي ولم يروا منها إلا الفتن والرّيبة، وجاء بصيغة المبالغة (مِصْدَاقَ) حتّى لا يترك شكّا في قلب ظان، ولا ريبة في نفس متردّد، ومصداق مأخوذة من الفعل (صَدَقَ)، جاء في لسان العرب : " الصِدْقُ نَقِيضُ الكَذِبِ، صَدَقَ يَصْدُقُ صَدْقًا وصِدْقًا، وتَصْدَاقًا وصَدَّقَهُ : قبل قوله وصَدَقَهُ الحديث : أَنْبَأَه بِالصِدْق " [3]، بمعنى أنّ الحياة علّمتهم، وأرتهم من العبر ما حملهم على صدق ما قالت، وكأنّ كلّ ما في الحياة يخبرهم أنّ الوقت قصير فليتزوّدا قدر الإمكان وقدر المستطاع، فوضع الشّيخ هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي ليصل إلى نتيجة معينة (الحرص الشّديد لطلبة علم جمعيّة العلماء) :

[1] ـ محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ص 23 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 550 .
[3] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 193 .

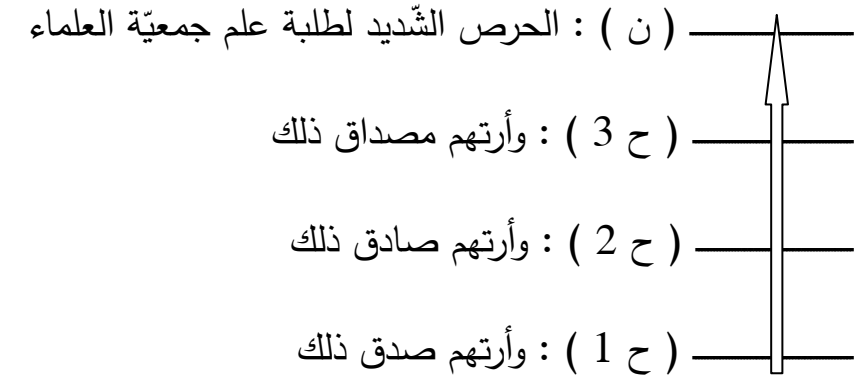

وكذا يقال في كلمة (مرتاب)، " رَابَ يُرِيبُ ... فَهُوَ رَائِبٌ والمفعول : مَرِيبٌ، رابه الأمر: أوقعه في الشكّ والحيرة " [1] .

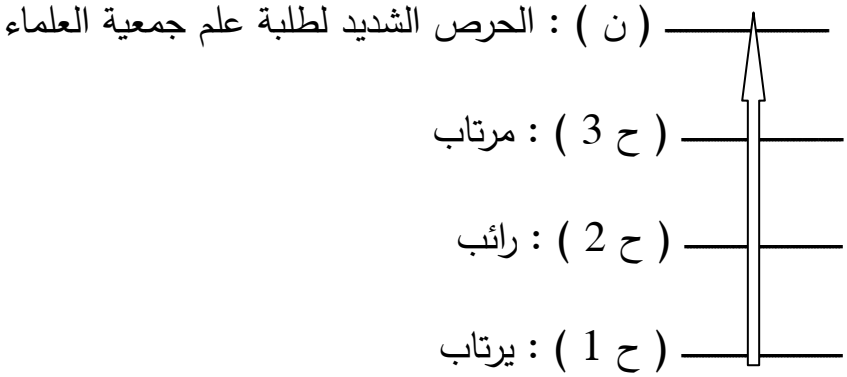

ـ **فَعِيل** : ومثاله سميع، وبصير، وعليم، وكبير ... عرّفه السامرّائي بقوله : " وهو في البَالغة يدلّ على معاناة الأمر وتكراره حتّى أصبح كأنّه خلقة في صاحبه وطبيعة فيه " [2]، ولذاك تجد معظم الأخلاق تكون على وزن (فعيل) كـ : كريم، وبخيل، وحليم، وعفيف، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ إبراهيمَ لَحَلِيمٌ أَوّاهٌ مُنِيبٌ** ﴾ (سورة هود، آية 75)، قال صلّى الله عليه وسلّم : " من قال حين يصبح ثلاث مرات : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من سورة الحشر وكل به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي ... " [3]، قال الشاعر :

وَجَلا الوَداعُ من الحَبِيبِ مَحَاسِنًا حُسْنُ العَزَاءِ وقد جُلِيــن قَبِيحُ [4]

---

[1] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، م 1، ص 965 .
[2] ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعاني، ص 100 - 102 .
[3] ـ شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار المعرفة للطباعة والنشر، لبنان، ط 1، س 1963، ج 1، ص 632 .
[4] ـ المتنبي، ديوان المتنبي، ص 66 .

ومثاله عند الإبراهيمي قوله : " الرجل كان محافظا حقّا ولكنّه محافظ بالمعنى المعقول، محافظة البصير النّاقد ..." [1]، يتحدث الشّيخ عن هامة علميّة، وقامة أدبيّة، عرف قدره العلماء فقدّموه، وأدرك فضله طلبة العلم فأعلوه ورفعوه، وعلم الجميع عظم المصيبة عند موته فبكوه وشيّعوه، قال الشيخ هذه الكلمة في تأبينيّة فقيد الجزائر والسّاحة الأدبيّة والفكريّة محمد بن شنب، الذي كان يتمتع بفكر ثاقب ورأي صائب، مع حفاظه على التزامه وتديّنه، فلم يمنعه الثّاني من التفكير المتزن والتحرر العقلاني المستنير، فوصف الشّيخ هذا المحافظ بـ (محافظة البصير النّاقد) وجاء بصيغة المبالغة (البصير) ليضع هذا الحكم في أعلى السلّم الحجاجي، من أجل الوصول إلى نتيجة تفهم من المقال وهي : (الفكر التحرريّ الذي يحمله محمّد بن شنب) ويمكن توضيح هذه العمليّة من الرسم البياني الآتي :

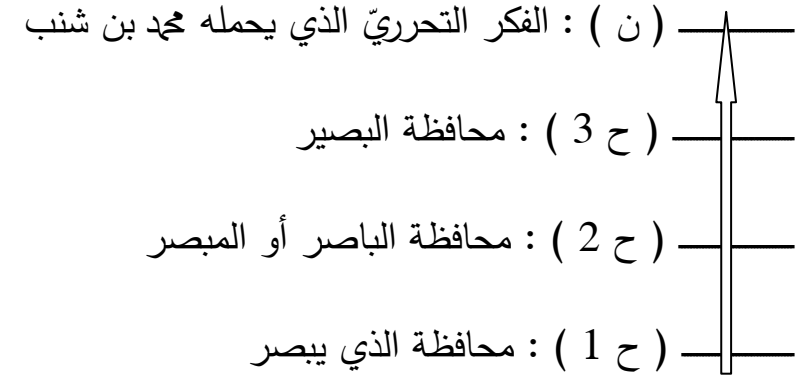

وقال في موضع آخر: " ... يعرض على كلّ واحد منهم الرأي صريحا غير مجمجم، واضحا غير مبهم ... " [2]، وهو في هذا يتحدث عن جانب من جوانب الفكر التي يمتاز بها الشّيخ الفضيل الورتلاني، الذي جمع بين سعة الاطّلاع، وغزارة العلم، ورجاحة الفهم، إضافة إلى أسلوب رائق، وعرض شائق، وثقة جامحة، وجراءة واضحة، فكان إذا عرض رأيه جاء بأحسن مقالة، وأوضح دلالة، فوضع الشيخ صيغة المبالغة (صريحا) ليبيّن مدى القوّة التي كانت في كلام الشيخ الفضيل الورتلاني وليضع هذا الحكم في أعلى السلم الحجاجي، كل ذلك يخدم نتيجة تفهم من سياق الكلام : (الجرأة في الحقّ لدي الشيخ الفضيل الورتلاني) .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 46 .
[2] ـ المصدر نفسه ج 4، ص 318 .

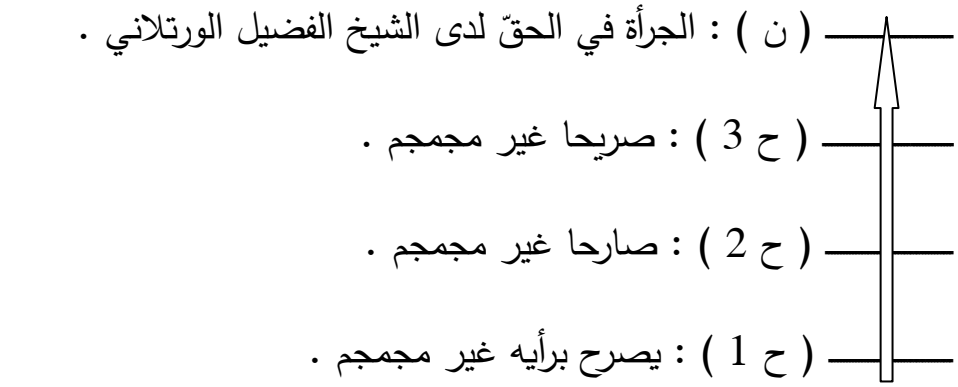

ومرّة أخرى يتحدث عن عبد الكريم جرمانوس : " الدكتور عبد الكريم جرمانوس مسلم مجريّ الأرومة، شرقيّ النزعة، نشأ جبّار الذهن، سليـم الفطرة " [1]، إنّه حكم وضعه الشيخ في أعلى السلم الحجاجي (سليم الفطرة)، وكأنّ السلامة خلق لصيق بالفطرة ـ مع أنّ الأصل في الفطرة السلامة ـ جاء في لسان العرب : " الفِطْرَةُ : الابْتِدَاءُ والاخْتِرَاعُ ... الفِطْرَةُ : ما فَطَرَ الله عليه الخلق من المعرفة به " [2]، فحكم الشّيخ على هذه الفطرة بالسّلامة، واستعمل في ذلك صيغة المبالغة (سليم)، والسّليم في اللغة معناها اللَّدِيغُ : " وإنّما سمي اللَّدِيغُ سليما لأنّهم تطيّروا من اللَّدِيغِ فقلبوا المعنى " [3]، وهذا رجاء للعافية والسّلامة، وقد أراد الشيخ من خلال هذه الأوصاف (بيان قيمة الدكتور عبد الكريم جرمانوس ومكانته العلميّة) ويمكن تسطير هذه العمليّة الحجاجيّة وفق الرسم البياني الآتي :

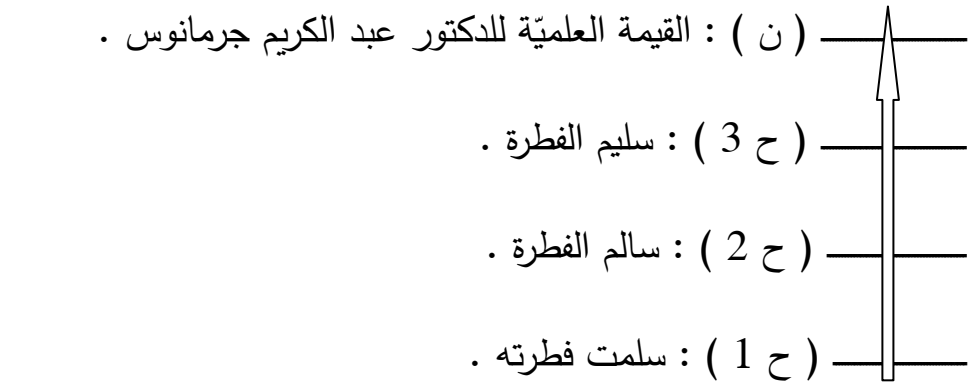

وفي موضع آخر يقول : " وما كل تاجر رابح، وما كل متجر ربيح " [4]، ويقصد كما هو ظاهر من كلامه اغتنام الأيّام الفاضلة، وتزيين العمل بالإخلاص، فإنّ لله عزّ وجل في أيّام

[1] ـ المصدر السابق ، ج 2، ص 391 .
[2] ـ أبن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 56 .
[3] ـ المصدر نفسه، ج 12، ص 277 .
[4] ـ أحمد طالب الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ،ج 3، ص 350 .

دهره نفحات، من تعرض لها أصاب فضلها، ونال بركتها، والعمل إذا كان خواء من الإخلاص قد يكون مردودا على صاحبه، ولم ينله منه إلا حظّ الجهد والتّعب ولذا قال الشيخ : (وما كل تاجر رابح، وما كل متجر ربيح)، فالأصل في التجارة أن تكون مربحة، وجاء الشيخ بصيغة المبالغة (ربيح) حتّى يضع هذا الحكم في أعلى السلم الحجاجي، وجاء بأداة النفي (ما) من أجل أن يقلب موازين المعادلة، فيكون معناها بذلك أعظم دلالة وأوسع فهما وأرحب أفقا، بغية الوصول إلى معنى يفهم من السياق (لا يقبل الله من العمل إلا ما كان له خالصا) .

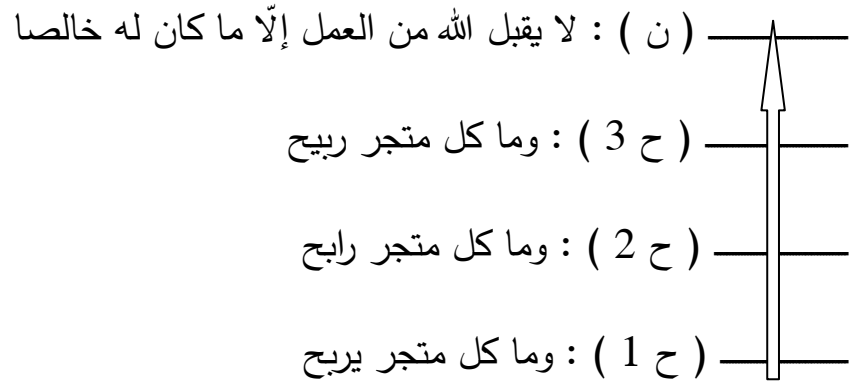

4 ـ فحوى الخطاب :

4 ـ 1 ـ تعريفه :

ونقصد بفحوى الخطاب ما يتضمّنه الكلام من دلالات تفهم من السياق، فكل خطاب يحتمل وجهين من الدلالة، أحدهما منطوق والآخر مفهوم، والأوّل أصل للثّاني، " فالمنطوق ما فُهم من دلالة اللّفظ قطعا في محلّ النّطق " [1]، أي ما دلّ لفظه على معناه كقولنا هذا جبل، ونقصد الجبل فعلا، وكقولنا هذا فرس ونقصد الفرس فعلا، قال الله تعالى : ﴿ **فَلَا تَقُلْ لَهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا** ﴾ (سورة الإسراء، الآية 23) ، فالتّأفّف منهيّ عنه عملا بنصّ الآية فدلّ المنطوق على لفظه .

أمّا المفهوم : " فهو ما فُهم من اللّفظ في غير محل النّطق " [2]، كقولنا هذا جبل ولا نقصد به الجبل، وإنما نقصد به رجلا بعينه (هذا جبل في العلم)، وهذا شيء لم يأت به

[1] ـ علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، مؤسسة النور، بيروت، لبنان، ط 2، س 1402 هـ، ج 3، ص 66 .
[2] ـ الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج 3، ص، 66 .

المنطوق وإنّما فهم منه، ومثاله أيضا ما فهم من الآية الأخيرة، فإذا كان النّهي ورد في التأفّف فمن باب الأولى أن يشمل ما هو أكبر من التأفّف كالسبّ والضّرب، إنّما القصد من النّهي هنا هو الإيذاء بكلّ صوره وأشكاله، وهذا لم يذكره منطوق الآية بل فُهم منها، ومثاله أيضا قوله جلّ وعلا : ﴿ **فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (7) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (8)** ﴾ (سورة الزلزلة، الآية 7 - 8)، فالذي يرى مثقال الذرّة لا يعجزه أن يرى ما هو أكبر منها، وهذا ما يعرف بفحوى الخطاب، هذا الأخير الذي يتجلّى فيه السلّم الحجاجي، ويظهر فيه التفاوت في الفهم " وهذا يتضمن التلفظ بالدرجة العليا في السلّم ونفي ما عداها ضمنا، كما قد يكون ترتيب الحجة ضمنيّا، وذلك بتوظيف المعرفة المخزونة والسابقة " [1] .

ويمكن توضيح المثال الأول في الرسم البياني الآتي :

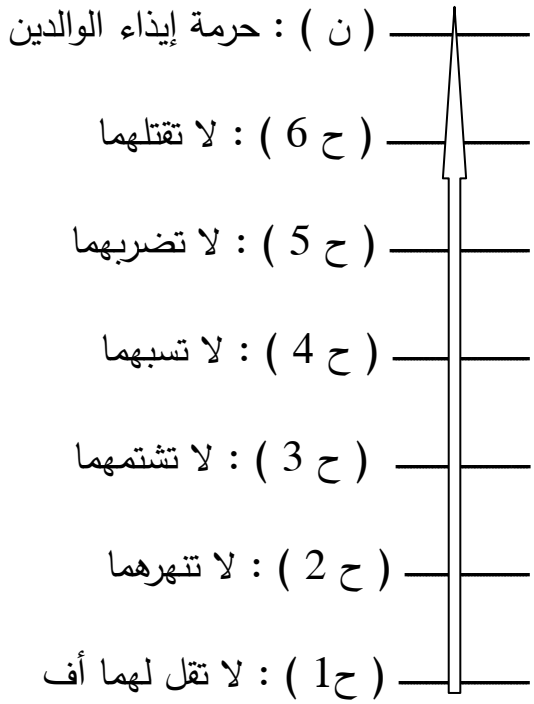

طبعا في هذه الأمثلة يكون الحكم في حال السكوت أولى منه في حال النطق، ويتجسّد ذلك بطريقتين، إمّا التنبيه بالأدنى على الأعلى أو بالعكس قال تعالى : ﴿ **وَمِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ مَنِ اِن تَامَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُوَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِن تَامَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُوَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 75) ، ففي الشطر الأوّل من الآية نبّه بالأعلى إلى الأدنى، الذي

[1] ـ حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 119 .

يؤدي القنطار يكون تأدية ما هو أقل منه أهون، وفي الشطر الثّاني من الآية نبّه بالأدنى إلى الأعلى فالذي لا يؤدّي الدينار من باب أولى أن لا يؤدّي ما فوقه .

والمفهوم نوعان : الموافقة والمخالفة

فإذا وافق المسكوت عنه حكم المنطوق لاشتراكهما في العلّة سمّي هذا بمفهوم الموافقة " أمّا مفهوم الموافقة فما يكون مدلول اللّفظ في محلّ السّكوت موافقا لمدلوله في حال النّطق ويسمّى أيضا فحوى الخطاب ولحن الخطاب " [1] ومثاله آية التّأفّف، فالتّأفّف وما عداه من أنواع الإيذاء مشتركان في علّة الإيذاء ولهما نفس الحكم، وهذا النّوع هو الذي المقصود في دراسة السلّم الحجاجي .

وإذا خالف المسكوت المنطوق سمّي هذا النّوع بمفهوم المخالفة " وهو دلالة الكلام على نفي الحكم الثابت للمذكور عن المسكوت، لانتفاء قيد من قيود المنطوق " [2]، ومثاله قوله صلّى الله عليه وسلّم : " في صدقة الغنم في سائمتها إذا كانت أربعين إلى عشرين ومئة شاة " [3]، من مفهوم هذا الحديث اشترط المالكية السّوم ـ الرّعي ـ في زكاة الماشية خلافا للجمهور الذين أخذوا بمنطوق الحديث، وبالتّالي لا زكاة في الغنم المعلوفة وهذا ما يعرف بمفهوم المخالفة فالحكم الثّاني ـ عدم وجوب الزكاة في الغنم المعلوفة ـ لم يبطل الحكم الأوّل وهو وجوبها في السّائمة .

3 ـ 2 ـ فحوى الخطاب عند البشير الإبراهيمي :

لقد استخدم الإبراهيمي هذا الأسلوب في كثير من المواطن كما يبدو من قوله : " في هذا الوطن الجزائري شعب عربي مسلم " [4]، وهذا حكم وضعه الشيخ في أعلى السلّم الحجاجي، لما فيه من جوامع الكلم، ومجامع الدلالة فقد رمى الاستدمار الفرنسي بكل ثقله من أجل أن يفسد وحدة الشّعب، وأن يصيبهم في مقاتل تشتّت صفّهم، وتفرّق جمعهم، وتكسر شوكتهم، ويمكن أن

[1] ـ الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، ج 3، ص 66
[2] ـ وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ج 1، ص 362 .
[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، رقم الحديث 1456، ص 356 .
[4] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 46 .

نضع تحت هذا الحكم مجموعة من الأحكام تقع تحت سلطانه، ولا تخرج عن فلك دورانه منها مثلا لا حصرا :

ـ الشّعب الجزائري متوحّد المشارب .

ـ تاريخ الجزائر العميق يجمع ولا يفرق .

ـ لن يرضى الشعب الجزائري عن الإسلام بديلا ولا عن العربية عوضا .

ـ جهود فرنسا من أجل كسر وحدة الشعب تبوء كلها بالفشل .

ـ فرنسا تركز على الدّين واللّغة من أجل تفتيت الشّعب .

ـ جهود الجمعية تنصبّ كلّها من أجل خدمة الدّين واللّغة .

كلّ هذه الأحكام وغيرها تنتظم في سلّم حجاجي تتفاوت درجاته من شخص لآخر، كُلٌ على حسب تأثّره ومخزونه الثّقافي والعلمي، ممّا يعطي الكلمة بعدا آخر، وأفقا مفتوحا تتعدّد وسائله وتختلف أدواته، وقد وضع الشّيخ هذا الحكم من أجل الوصول إلى نتيجة تفهم من السّياق (وحدة الشعب الجزائري تنطلق من وحدة الدّين واللّغة) .

وفي معرض حديثه عن الحكومة يقول : " إنّ الحكومة لا يعجزها أن توجد للحقّ ضرائر من الباطل، ولا يعجزها أن تثير الغبار في وجوه العاملين للخير، ولا يعجزها أن تمنع المسلم من الحج ـ لانتسابه لجمعية العلماء أو لمشربه السياسي ـ لا يعجزها أن تجعل طلب الرخصة وسيلة للمنع " [1]، لقد ذكر الشيخ مجموعة من الأحكام التي يمكن أن توضع في أعلى السلّم الحجاجي من أن يخلص إلى حكم وضعه في الأخير لأنّه بيت القصيد ومربط الفرس وهو منع الترخيص لمنتسبي جمعية العلماء، فإذا كان الإستدمار الفرنسي قد فعل ما هو أشد وأنكى فإنّ الشيء الذي دونه لا يعجزه .

[1] ـ المصدر السابق، ص 50 .

وقد قدّم الشّيخ هذه الأحكام بطريقة سهلة سلسة، انتقل فيها من الحكم العام الأكبر (فرنسا لا يعجزها أن تجعل للحق ضرائر من الباطل) إلى حكم عام آخر أقلّ شأنا منه (تثير الغبار في وجوه العاملين للخير) إلى حكم خاص (تمنع من أرادت من الحج) إلى حكم أخص منه وهو (منع الترخيص لمنتسبي الجمعيّة)، وانتقال الشيخ من حكم إلى حكم يقتضي سلّما حجاجيا تترتب فيه هذه الحجج على حسب القوّة والضّعف كما يمكن إضافة حجج في طيات هذه الحجج منها مثلا :

ـ ترخيص السلطات الفرنسيّة للموالين لها (مفهوم المخالفة) .

ـ منع أئمة الجمعيّة من النشاط في المساجد .

ـ التضييق على أبناء الجمعيّة في مختلف المجالات .

ـ فصل الدّين عن الحكومة من تزّهات فرنسا .

كما يمكن إضافة الكثير من الحجج والأحكام، تتفاوت درجات قوّتها على السّلّم الحجاجي بما يمنحه لها المستمع من قوّة إضافية، تترجّح عنده على حسب مكتسباته القبليّة وأحاسيسه القلبيّة .

وعن التقدّم الحضاري يقول : " النّهضات أوّلها ثورة وآخرها ثورة، فكان الأشبه أن نقول أثر الأزهر في الثورات المصرية، لأنّ الأزهر حقيقة عليه أن يعلّم النّاس الثورات على الأباطيـل في الدّين والدّنيا " [1]، لقد وضع الشّيخ سبب النهضات في أعلى السّلّم الحجاجي، وهو الثورات في الأوّل وفي الآخر، من أجل أن يربط هذه الثورات بالأزهر الشريف، مبيّنا لدوره، ومعترفا بقدره، وشاهدا على سبقه وفضله، ويمكن وضع تحت هذه الحكم العديد من الحكم والحجج :

ـ الظّلم الذي كان يعانيه الشعب المصري .

ـ اهتمام العائلة المالكة بالمصالح الشخصيّة وإغفالها للمصلحة العامة .

[1] ـ المصدر السابق، ص 499 .

ـ انتشار الوعي الثوري لدي الطبقة المثقّفة .

. الصحافة ودورها في كشف أباطيل الاستدمار .

. الثورات العربية التي أثبتت نجاحها أمام الاستدمار الغاشم .

ـ أصل الثورات الوعي والعلم الذي يقوده أهل التخصص والإخلاص .

كلّ هذه الأسباب وغيرها كانت المشعل الذي أضاء سماء الثورات في مصر، ولكنّ السبب الرئيس الذي ذكره الشيخ هو الأزهر، لأنّه كان المغذي لجميع هذه الأسباب التي تتناسق حبيباتها في السلّم الحجاجي على حسب كل شخص .

ولقد أشاد بعلماء الدين أيّما إشادة : " لا توجد في الإسلام وظيفة أشرف قدرا، وأسمى منزلة، وأرحب أفقا، وأثقل تبعة، وأوثق عهدا، وأعظم أجرا عند الله من وظيفة العالم الدّيني "[1]، وضع الشّيخ هنا وظيفة العالم الدّيني في أعلى السلّم الحجاجي، لما يقوم به من وظيفة سامية ومهمة راقية، ولميزة الرسالة التي يحملها، والأمانة التي يؤدّيها، والتي يشارك فيها الأنبياء والمرسلين، وهو التوقيع عن ربّ العالمين، هذه المكانة جعلت ما دونه من العلماء ـ مع حفظ قدرهم ـ في مرتبة أقل، وكل مُيسّر لما خلق له قال الله تعالى : ﴿ **أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ** ﴾ (سورة الزخرف، الآية 32) ، فلا شكّ أنّ أشرف العلوم كتاب الله عزّ وجل، ثمّ سنة نبيه ﷺ، ثم ما تفرع عنهما من علم التفسير والفقه واللغة، والتي لا يمكن أن يفهما إلا بهم، ولا تؤخذ الأحكام منهما إلا بهم، وهكذا تترتّب العلوم في سلّم حجاجي (عالم الدّين، وعالم الطبّ، وعالم الزّراعة، وعالم الصّناعة وعالم الاقتصاد وعالم السّياسة، وعالم الذرّة، وعالم الاجتماع ...) وضع الشيخ أعلاه وترك العقول إلى الوصول إلى أدناه ومنتهاه، مع أنّ كلمة عالم الدين تجمع كل هذه الأصول، وإنّما كان بزوغ أحد العلماء في أحد المجالات إنّما هو من باب الغلبة والتخصّص، ويمكن أيضا تكوين سلّم حجاجي آخر يتفاضل فيه العلماء على حسب التخصّص، وما يقدّمونه من خدمات في المجال الواحد كعلماء

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 109 .

الدّين مثلا منهم : (عالم التفسير، وعالم القرآن، وعالم الحديث، وعالم اللّغة، وعالم المنطق ... وغيرهم) .

ترتيب هذه العلوم في سلّم حجاجي لا يمكن ضبطه بدقّة، فحاجة النّاس إلى العلماء تختلف ممّا يجعل السلّم فضفاضا يخضع للثقافة ومدى الحاجة، وأحيانا إلى الهوى والميل .

وعلى هذا المنوال يواصل الإشادة بأحد العلماء المسلمين : " هو الأستاذ العلامة أبو الأعلى المودودي أمير الجماعة الإسلامية بباكستان أصفه وصف العارف الذي قرأ وشاهد، فهو رجل لم تر عيناي كثيرا من مثله، بل لم أر مثله في خصائص امتاز بها عن علماء الإسلام في هذا العصر " [1]، هي كلمات قالها في حقّ عالم من علماء الإسلام، وصفه بها ليعلي مقامه، ويرفع شأنه، فهو رجل حسن العلم جيّد الفهم، جمع بين العلم الواسع والعقل البارع، وما قال الشّيخ فيه هذه الكلمات إلا عن تمحيص ومخالطة، وقراءة ومشاهدة، فخبر عالما فاق أهل زمانه وجاوز كلّ أقرانه، يحسن فهم الواقع وفقه الشارع، فوضعه في منزلة في أعلى السلّم الحجاجي، ليرفع بذلك كل خلاف ويبيّن أنّ علماء الإسلام في كل أنحاء العالم كالجسد الواحد همّهم واحد وهدفهم واحد، لأنّ مشربهم واحد ودينهم واحد، ويعبدون إلها واحدا وربا واحدا، ولذا يمكن أن نضع سلّما حجاجيا لا يخرج عن معاني هذا الوصف ويفهم من مسكوت الكلام :

ـ قيمة البشير الإبراهيمي لدى علماء الإسلامي .

ـ قيمة المودودي لدى البشير الإبراهيمي .

ـ وحدة علماء الأمّة .

ـ رفعة العلماء تكون بقدر خدمتهم لأمّتهم .

ـ لغة القوم تسهم في تبليغ الرسالة المحمّدية .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 196 .

كما يمكن استنتاج سلّم حجاجي آخر يتضمّن ترتيب المودودي بين علماء بلده أوّلا، وترتيبه بين العلماء الأجانب غير العرب ثانيا، وترتيبه بين علماء الأمّة أخيرا .

ويرى الإبراهيمي أنّ القول وحده لا يكفي في معالجة القضايا الكبرى حيث يقول: " فقد كان الشّعراء ينظمون القصائد الطويلة العريضة في مديح العرب وتسفيل اليهود، والكتّاب يكتبون، والسّاسة يصرّحون، فبين النّظم والتصريح والكتابة والخطابة ضاعت فلسطين " [1]، فهو يتحدّث بمرارة عن قضيّة فلسطين، التي كانت تعدّ من أكبر هواجسه، وأعظم أسباب آلامه وأحزانه، فلا يجد سانحة إلاّ تحدّث عنها، أو أشار إليها، وقد أبدى في هذه الأسطر رأيا مريرا، وأصدر حكما خطيرا، لخّصه في قوله (ضاعت فلسطين)، هذه الجملة التي يمكن أن يوضع تحتها كمّ هائل من الحجج، وعدد لا يحصى من الأحكام تترتّب في سلّم حجاجيّ ترتيبا غير منتظم، لأنّ إحساس كلّ واحد يختلف، وتقديره للأمور يضيق ويتسع، منها مثلا :

ـ تقصير المسلمين في واجبهم نحو فلسطين .

ـ تقصير حكّام المسلمين في القضيّة الفلسطينيّة .

ـ تخاذل علماء الأمّة في الذبّ عن فلسطين .

ـ انشغال الشعوب بويلات الاستدمار عن أهمّ قضايا الأمّة .

ـ كثرة الخطابات وقلّة العمل .

ـ تحكّم اليهود وتخطيطهم أعجز العالم الإسلامي .

ـ تشوّف الفلسطينيّين إلى إخوانهم في العالم العربي والإسلامي .

ـ مساعدة فلسطين واجب ديني وقوميّ .

[1] ـ المصدر السابق، ص 283 .

5 ـ حجّة الدّليل :

حجّة الدّليل : تختلف الخطابة الإسلاميّة عن باقي الخطابة بأنّها غنيّة بالحجج الجاهزة والشواهد القائمة، سواء كانت من الكتاب أو السنّة أو الشّعر أو النّثر، هذه الشواهد التي تحظى بالتّسليم والقَبول لدى عامة المستمعين، لما لها من قدسيّة ومكانة " الحجج الجاهزة أو الشواهد هي من دعامات الحجاج القويّة، إذ يضعها المخاطب في الموضع المناسب " [1] .

5 ـ 1 : شواهد القرآن عند البشير الإبراهيمي :

يعد كتاب الله عزّ وجلّ المقصد الأوّل، والمورد الأعظم، والمنهل الأكبر، الذي يستمدّ منه الإبراهيمي شواهده، ويقيم عليه خطبه ودروسه، لما فيه من جوامع الكلم، وسلطة التسليم، ولذا كان متوسّعا جدّا في النّقل منه والأخذ من مواعظه وحكمه .

بدأ الإبراهيمي أحد خطبه بقوله : " قال الله تعالى : ﴿ **هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ** ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 52) ، السورة التي ختمت بهذه الآية الجامعة الفذّة هي سورة إبراهيم عليه السلام ... " [2]، لقد استهل الشيخ كلامه بهذه الآية التي هي آخر آية من سورة إبراهيم مع أنّه كان يتحدث عن معاني هذه السورة، والمنطق يقتضي أن يبدأ هذه الخطبة بالحديث عن الآية الأولى من سورة إبراهيم وهي قوله جلّ وعلا : ﴿ **الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 1) ، وما فعل الشيخ هذا إلاّ بغية الوصول إلى هذا الربط بين أوّل السورة وآخرها، السورة تتحدّث عن قصّة إبراهيم بدأها المولى تبارك وتعالى بذكر القرآن وختمها بذكر القرآن، وكأنّ إبراهيم ما بعث إلاّ كمالا لهذه الرسالة التي جاء بها محمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، ولأنّ مكانته كبيرة عند الله عز وجل بدأ قصته بذكر كتابه سبحانه وتعالى وختمها بذكر كتابه، كمّا أنّ لهذه الآية مكانة خاصّة عند البشير الإبراهيمي فقد ذَكَرَ جوابًا لأحد العلماء حين سُئل عن الآية التي تصلح أن تكون عنوانا على كتاب الله كلّه فذكر الآية (هذا بلاغ ...) ثمّ

---

[1] ـ حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته، ج 1، ص 126 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 391 .

علّق الإبراهيمي على ذلك بقوله : " ولعمري لقد وفّق هذا العالم القرآني إلى الصواب فيما أجاب به " [1]، وهنا تكمن براعة الاستدلال وقوّة اختيار الشّاهد بما يناسب المقام، فلا يشعر المستمع إلاّ وقد نقل من حالة إلى أخرى من حالة الشكّ إلى اليقين، ومن حالة التردّد إلى التسليم، وهذا هو غاية السلّم الحجاجي النقل من حالة إلى حالة .

وفي هذا المضمار جاء قوله: " إلاّ أنّ المتدبّرين للقرآن لا يخرجون عن هذا الاستعراض البديع إلاّ المؤمنين بأنّه الاتّباع الذي يدعو إليه القرآن هو عين الاستقلال التّام للفكر والإرادة والعقل والوجدان، لأنّه يحميها من شرور الأهواء، ويؤويها إلى حمى الحقّ وحده، والاحتماء بالحقّ الذي قامت به السماوات والأرض، واستقر عليه تدبير الكون ونظامه، استقلال ما وراءه استقلال ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلَ اتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ** ﴾ (سورة المؤمنون، الآية 71) " [2]، لقد ذكرت المقطع بكامله حتّى يُدرك قيمة الاستدلال، ودوره في ترسيخ الحكم وتثبيته، ففي ظلّ ما يعرف بالحداثة التي فُهمت بشكل مريب، واسْتُغلّت من أجل الطّعن في ثوابت الأمة، بحجّة القطيعة بين الموروث القديم، والانطلاق قدما لتحرير العقل من أي ضغط ومن كل تبعيّة، حتّى اختلط الحابل بالنابل، وضلّ السّعي، وأفلت الأمر، وقلّت الحيلة، أراد الشيخ أن يرجع الشباب إلى المورد الذي لا غناء عنه، والسّبيل الذي لا حياة بدونه والدّواء الذي فيه الشّفاء لكلّ داء، أراد أن يرجعهم إلى كتاب الله عز وجل قراءة وتدبّرا وفهما ومنهجا وسلوكا، فالله عزّ وجل الذي خلق الإنسان، وعلّمه البيان، وفضّله على كثير ممّن خلق، أعلم بحال خلقه، وأدرى بما يصلح حالهم، وصاحب الصنعة أفقه النّاس بصنعته وبما صنع، ولذلك لما ساق الشّيخ هذه الآية بعدما قدّم لها تحسّ بقوة الحجّة التي أكسبت كلامه، والبرهان الذي عضّد مقاله، فلا يشعر المرء إلا وقد نقل من حال إلى حال من حال كان يشك فيها بمظاهر الحضارة الزائفة يسيطر على العقول، وكاد يلقي اللّوم على الإسلام والقرآن، إلى حالة أيقن فيها أنّ سبب الخذلان ليس الإسلام، وإنّما هو الفهم الخاطئ للمسلمين، وليس هو القرآن وإنّما الجهل العارم بمعاني القرآن، فالإسلام جاء ليحرّر العقل،

[1] ـ احمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، 320 .
[2] ـ احمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، 322 .

ويزرع الأمل، ويوزّع السعادة بين البشر، ونقل الإنسان من حالة إلى حالة تجسّد ما يعرف بالسلّم الحجاجي .

وفي مقام آخر يتحدّث فيه عن قيمة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر قال : " وإنّ العالم كلّه في ذلك الوقت كان متعطّشا ومتشوّقا إلى رحمة الله، لما أعوزته الرحمة من أفراده، ولقد أصاب مطلوبه، ونال مرغوبه، في آية واحدة من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَآءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (سورة النحل، الآية 90) ، وهي آية جامعة للجناحين اللّذين يطير بهما الإنسان وهما الأمر والنهي " [1]، حيث ذكر هذا الكلام ضمن حديثه عن النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، الذي كان فارقا بين زمنين، وفاصلا بين عصرين، أرسله ربه رحمة للعالمين، فقد كان العالم يعيش في جهالة، القويّ يأكل الضعيف، وحياة تقوم على النّهب والسّلب، بلغ الإنسان من سخافته أن عبد إلها من تمر كان إذا جاع أكله، لا قيمة للمرأة، ولا حتّى للمستضعفين من الرجال انعدمت الرحمة فيه بين البشر، فأرسل الله عز وجل نبيّه، وبعث رسوله، ليخرج النّاس من ضيق الدنيا وضنك العيش، إلى أفق الرحمة وبساط العدل، وجاء بالشريعة السّمحة التي ارتقت بالإنسان، ورفعت شأنه وأعلت مقامه، وأشاع الرحمة بين عباده فشملت الإنسان والحيوان والنبات والجماد، وإذا كانت الرحمة بالحيوان تكفر ذنوب البغايا فكيف يكون جزاء الرحمة بالبشر، هذه المعاني كلها كانت متضمّنة في خطبة الشيخ، ولا شك أنّها معاني راقية، وأخلاق عالية، لكن الذي زادها جمالا، وأفضى عليها جلالا، ذلك الشّاهد القرآني الذي ذكره الشّيخ ليقوّي حجّته ويعضّد مقالته : (**إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالْعَدْلِ** ...) وكأنّها لخّصت الرسالة التي جاء بها النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، وممّا يُغبط عليه الشّيخ اختيار الشّاهد المناسب وكيفيّة توظيفه في المكان المناسب، وكأنّه جزء من الخطبة لا تقوم إلاّ به، ولا تبنى إلاّ عليه، وكلّما كان توظيف الشاهد مناسبا كانت قوّة الإقناع ظاهرة، والتأثير في المتلقي واضحا، كما أنّ هذه الآية يمكن أن تضع تحتها ما شئت من الأحكام والحجج تترتب هي الأخرى في سلّم حجاجي من نوع آخر :

ـ الظلم محرّم بكل صوره وأشكاله .

[1] ـ احمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 1، 316 .

ـ العدل من أكبر دعائم الدّولة .

ـ من العدل الانقياد لأوامر الشّرع .

ـ من العدل تفقّد القرابة وأصحاب الحاجة .

ـ المؤمن وقّاف عند أوامر الله عزّ وجلّ .

ـ من أهم ضوابط النّفس والسموّ الأخلاقي افعل ولا تفعل (الأمر والنهي) .

ربما يجد المرء أنّه من الغريب أن تكون الرحمة والعدالة من أهمّ مقومات الأمّة، ومن أهم أسباب بناء الحضارة، ولكن عندما يسمع كلام الشّيخ وحسن استعماله لهذه الآية تُدْفَع عنه هذه الشّبهة، وتُزَاح عنه هذه الغمّة، فيرتقي الإنسان بنفسه من حالة إلى حالة، ومن درجة إلى أعلى منها في السلّم الحجاجي .

ومن جميل ما قاله في العيد : " أما والله لو ملكتَ النّطق يا عيد، لأقسمت بما عظّم الله من حرماتك، وبما كانت تقسم به العرب من الدّماء المراقة في أيامك ومناسكك، ولقلت لهذه الجموع المهيضة الهضيمة من أتباع محمّد يا قوم : ما أخلف العيد، وما أخلفت من ربّكم المواعيد، ولكنّكم أخلفتم، وأسلفتم الشرّ فجزيتم بما أسلفتم، ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا** ...﴾ (سورة النور، الآية 55) " [1]، يتحدّث في هذه الفقرة عن العيد الذي من المفروض أن يكون موسما للفرح، وزمنا للّعب والمرح، ولكنّ الشّيخ نظر إليه من زاوية أخرى، نظر إليه من خلال المآسي التي تعاني منها أمّة الإسلام، نظر إليه من خلال الفرقة التي سادت العلاقات بين أبناء الأمة، نظر إليه من خلال الاستدمار الذي خرّب ودمّر وزمّر، نظر إليه من خلال الفقر الذي تعاني منه الشعوب العربيّة والإسلاميّة، نظر إليه من خلال فلسطين الجريحة، فما كان منه إلاّ أن جعل منه شبحا يسأله فيجيب، فجاء بالردّ الكافي والجواب الشّافي : (**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ...) وكأنّما نحتت

[1] ـ احمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج 3، 470 .

هذه الآية وسط هذا النّثر، فكانت لسانه النّاطق وداعيه الواعي الصّادق، ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوٓاْ أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ** ﴾ (سورة النحل، الآية 118) ، فالأمّة إذا تخلّت عن دينها، وابتعدت عن نهج ربّها، سقطت همّتها، وانكسرت شوكتها، وحلّت عليها اللّعنات، ورفعت منها البركات، وسلّط الله على أبنائها عدوّا من غيرهم يأخذ بعض ما في أيديهم، فالشّاهد إذا كان في موضعه زاد الكلام ثقة، وأورثه قوّة، وأعطاه هيبة، وألبسه قدسيّة، فيكون بذلك أشدّ وقعا، وأعظم تأثيرا، وأجلب نفعا .

4 ـ 2 ـ الحديث النبويّ الشّريف :

فالسنّة النبويّة هي المصدر الثّاني من مصادر التشريع لها قدسيّة الوحي : ﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى** ﴾ (سورة النجم، الآية 3 ـ 4)، والمسلم إذا خوطب بقول النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فكله آذان صاغية، وقلوب مفتوحة واعية قال تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنَ اَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** ﴾ (سورة الأحزاب، الآية 35) ، وممّا يلاحظ أنّ الإبراهيمي قليل الاستشهاد بالحديث مقارنة بالقرآن وأغلب شواهده كانت تأتي بصيغة العموم مثاله : (كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يفعل كذا، كان النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يدعو إلى كذا ...)، وربّما مردّ ذلك إلى انشغال الشّيخ بالنّقل عن المصدر الأوّل، في الوقت الذي ظهر فيه طائفة من المتعالمين الذين انشغلوا بالحديث وأهملوا كتاب الله عزّ وجلّ .

ومن أمثلة ذلك قوله : " وأوصاهم بالرّفق والإحسان إلى إخوانهم، حتّى كان آخر ما أوصى في مرض الموت قوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: (استوصوا بالضّعيفين خيرا المرأة والرّقيق)[1] وأنّه رغّب في العتق ووعد عليه الثواب الجزيل " [2]، وهي كلمة جميلة ومداخلة لطيفة تحدث فيها عن الرّقّ، وكيف حاربه الإسلام حتّى قضى عليه، وأراح الأمّة من غوائله، فلا تكاد تجد كفّارة من الكفّارات إلاّ وجدت على رأسها خياراتها العتق، وإنّما احتاج في تشريعه إلى تروّ وتبصّر في العاقبة، فلا الأغنياء في البداية كانوا يستطيعون خدمة أنفسهم وأراضيهم،

[1] ـ ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1، س 1979، ج 6، ص76 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 371 .

ولا العبيد يستطيعون الاستقلال عن أسيادهم والاستغناء عنهم، ولكنّه في الوقت نفسه شرع مناهج تقلّل من هذه الظاهرة، وتسير بثبات حتّى تقضي عليها نهائيّا وبلا رجعة، فلا فضل في الإسلام لأبيض على أسود، ولا لغنيّ على فقير، ولا لعربي على أعجميّ، إلا بتقوى الله عزّ وجلّ .

وجاء الشّيخ بهذا الحديث ليقوّي موقفه ويدعّم رأيه، واستند في ذلك إلى حديث يقال إنّ النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قاله وهو في اللّحظات الأخيرة التي يعالج فيها سكرات الموت، وكأنّ هذا الأمر هو آخر عهد النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بهذه الدنيا الوصاية بالنساء وبالرقيق، ساعتها يحسّ الإنسان بقدر الموصى عليه، ويشعر بقيمته، ويقدّر فضل الإحسان إليه فلا نقول نقل المرء من حالة إلى حالة، وإنّما نقل الأمّة من حالة إلى حالة .

وقال في موضع آخر: " ورأيته عند دافّة من أعراب الحجاز دفّت على المدينة في عام ممحل فما أثارت رؤيته في نفسي إلا ذكرى (أنّه عُرض على مائدة رسول الله ـ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، فرفع يده فقيل له أحرام هو يا رسول الله فقال : لا أحرّم ما أحلّ الله، ولكنّه ليس بأرض قومي وإنّ نفسي لتعافه) [1] " [2]، ويقصد بكلامه لحم الضّبّ، وحكم أكله، مع أنّ الشّيخ رآه مسلوخا ومطبوخا غير أنّ نفسه عافته، ولم يأكل منه على الرّغم مما قيل في طيب لحمه، وحلاوة كبده وشحمه، فيشعرك الحديث أنّ الشيخ يعرف الضبّ، ويوحي إليك كلامه أيضا أنّه مما خبر طعمة وذاق لحمه، لكنّه لما استشهد بهذا الحديث أبعد الشّبهة، وعلّل الفعلة، وقد ساق الشاهد بطريقة ذكيّة جدّا، تفهم من خلالها علم الشّيخ بحكم أكل لحم الضّبّ، وعلمه أنّ طائفة من أهل الجزائر لا يجدون حرجا في أكل لحمه، فخرج من الخلاف بعذر كان قد اعتذر به النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أنّ نفسه تعافه ، مع أنّ الشيخ كان ممّن يتردّدون على الصحراء ويعرف الضّبّ معرفة الخبير المجرّب، فقد قال في بداية هذا المقال وهو يتحدث عن الضّبّ : " أنّي شبيب عن طوق هذه الأحراش " [3]، فشاهد الحديث نقل المستمع من حالة كان يعتقد أنّ

[1] ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 5537، ص 1408 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 43 .
[3] ـ المصدر نفسه، ص 40 .

شيخ من آكلي لحوم الضّبّ أو الشّكّ في ذلك، إلى حالة التأكّد من أنّ الشّيخ لم يأكل لحم الضّبّ لأنّ نفسه تعافه .

وفي سياق حديثه عن التّعاون والتآزر بين المسلمين يستشهد بأقوال الرّسول ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: " وما دمت تؤمنين بمحمّد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ فتذكّري قوله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ :(مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه تداعى له سائر الجسد بالسّهر والحمّى) [1] وقوله : (من فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة) وقوله (من لا يرحم لا يرحم) [2] "[3]، وهو التّعاون الذي ينبغي أن يكون في أمّة الإسلام، مجتمع كلّه تراحم وحبّ ومودة، مجتمع الضّعيف فيه قويّ بإخوانه، مجتمع لا مكان فيه للفقر، ولا لمظاهره المؤلمة، مجتمع يعرف حقّ الله وحق خلقه عليه، مجتمع يحسّ فيه الأخ بألم أخيه، والجار بوجع جاره، مجتمع ليس فيه عداوة ولا بغضاء، وليس فيه تخاصم ولا شحناء، كلّ هذه المعاني ما كان الشّيخ ليقدّمها لولا هذه الشواهد النبويّة والأدلّة المحمّدية، هذه الشواهد التي هي كفيلة أيضا بأن تعيد هذه المعاني في نفوس المؤمنين الصّادقين، لما فيها من نفحات قدسيّة، ورحمات ربّانيّة، فينتقل المستمع بذلك من درجة إلى أخرى في السلّم الحجاجيّ، كما يمكن إنشاء سلّم حجاجي آخر نتصور فيه الحالة قبل الخطاب والحالة المتصوّرة بعد الخطاب :

قبل الخطاب : مجتمع نسي كثيرا من تعاليم الدّين، طغت عليه المادّة، وأهمل النّاس كثيرا من واجباتهم تجاه إخوانهم، مظاهر الحاجة والعوز ظاهرة متفشيّة، قلّت فيه الرّحمة بل كادت تنعدم .

بعد الخطاب : مجتمع امتثل لتعاليم دينه، وقّاف عند حدود شرع ربه، مجتمع يحسّ فيه الأخ بألم أخيه، مجتمع كان نائما فاستيقظ، وغافلا فتنبّه .

[1] ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، حديث رقم 6011، ص 1508 .
[2] ـ مسلم بن الحجاج، المسند الصحيح، حديث رقم 2318، ص 1095 .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 188 .

4 ـ 3 ـ الشّعر العربي :

من المعلوم أنّ للشعر عند العرب منزلة كريمة، ومكانة عظيمة، فهو ديوان حضارتهم وملاذ عواطفهم ومشاعرهم، ومرتع أحزانهم وآلامهم، ومكمن سعادتهم وأفراحهم، ولسان دفاعهم ومرافعاتهم، وعلامة رقيّهم وتطوّرهم، وسمة صعودهم ونزولهم، له سلطانه الذي يحكم به، وله أيضا قوانينه التي يبنى بها ونواميسه التي يسير عليها، وقد كانت القبيلة تقيم الأفراح إذا ولد لها شاعر، لأنّه لسانها الذي يرفع ذكرها، ومحاميها الذي يرافع عنها، بل كانت نشوتهم ببيت الشعر أكبر من نشوتهم بكأس الخمر، ولا زالت بعض من هذه المعاني تسيطر على مشاعر العربي حين يسمع بيتا من الشعر، فيهزّ كيانه ويحرك أحاسيسه، ويدفعه إلى التّسليم والانقياد، ولا زال الخطباء يستعملون شواهد الشّعر في خطبهم وفي دروسهم لما له من قيمة، وما يملكه من تأثير .

ـ شواهد الشعر عند البشير الإبراهيمي :

كان الشيخ يعشق الشّعر، وله فيه صولات وجولات فقد كتب القصائد الطوال، وألّف العشرات من القصار في مختلف المجالات، وكان يحبّ الشعر ويحفظ الكثير منه، لذا كانت دروسه وخطبه غنيّة بالشعر حافلة به ومن أمثلة ذلك:

قوله في أحد دروسه : " ولقد رأيت بعيني معا منذ سنين في طريق باب منارة من تونس، عالما يعدّ في الطبقة الممتازة في علماء جامع الزيتونة، يهوي بالتقبيل على يد مخرّف مبتدع جاهل متعاظم، لو حُكِّمْتُ لحَكَمت بأن يكون عبدا لذلك العالم، فرأيت يومئذ كيف تعبد الأصنام وعلمت كيف يكون العالم سبّة للعلم، وخطر ببالي قول المتنبّي :

وَقَدْ ضَلَّ قَوْمٌ بأَصْنَامِهِم وأَمَّا بزِقِّ رِيَـــــــاحٍ فَلَا [1]

وسقط ذلك العالم من حسابي، فما ذكرته بخير حيّا، ولا ترحّمت عليه ميتا ... " [2] .

---

[1] ـ المتنبي، ديوان المتنبي، ص 512 .

[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 310 .

هذا بيت من الشعر للمتنبّي ساقه الشيخ ليدلّل على كلام سابق، ومشهد رسم في ذهنه وتصرّف لا يليق بعالم قد أعزّه الله عز وجل بسلطان العلم، كيف يقبل يد مبتدع، ويتذلّل لرجل لا يصلح حتّى أن يكون خادما لهذا العالم ولكن :

مَن يَهُن يَسْهُل الهَوَانُ عَلَيْه ما لجُرْحٍ بمَيِّتٍ إيـــــلَامُ [1]

فكان بيت الشعر ملخّصا لهذه الحالة، وكأنّه نسج من أجلها، ووضع لوصفها، وهذا يدلّ على براعة الشيخ في اختيار الشاهد، فمبشارة بعد انتهاء الكلام تجد أنّ الإبراهيمي قد أدرك حاجته، وحقّق بغيته، وهو احتقار هذا العالم الذي سفّه نفسه، ورخّص قدره، ثمّ احتقار العمل الذي قام به بعد ذلك، فيتحوّل إلى سلوك دون أن يشعر المستمع بذلك، وهو غاية الحجاج وغاية ما وضع له السلّم الحجاجي .

ويقول في مقام آخر : " وجمعية العلماء تقول لهؤلاء مجتمعين :

تَجَمّعتُم من كُلِّ أَوْبٍ وبَلْدَةٍ على وَاحِدٍ لَا زِلْتُم قِرنَ واحِدِ [2]

ثمّ تقول لكل فريق على انفراد ما يلحم فاه ... " [3]

وجاء في تفسير قرن : " وهو قِرْنه بالكسر : إذا كان مثله في الشجاعة والشدة " [4]، قال الشّيخ هذه الكلمات للجموع التي احتشدت لحرب جمعية العلماء سواء من المستدمرين الفرنسيّين، أو من أذنابهم من السياسيّين الجزائريّين، أو حتّى من أعداء الجمعية من أصحاب الطرق والزوايا، فكان هذا البيت يصف هذه الحالة بدقّة، لأنّ الظّروف التي قيل فيها هي الظّروف نفسها التي يتحدّث عنها الشيخ فقائلة هذا البيت هي : سلمى بنت عدي بن الرقاع لحادثة وقعت لها وهي طفلة صغيرة، إذ جاء مجموعة من الشّعراء حتّى يجادلوا أباها وكان غائبا عن البيت، فلمّا سمعت بهم خرجت إليهم وأنشدتهم هذا البيت، فأفحمتهم .

[1] ـ المتنبي، ديوان المتنبي، ص 160 .
[2] ـ حسن محمد نور الدين، ديوان عدي بن الرقاع العاملي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، س 1990، ص 11 .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 62 .
[4] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 13، ص 336 .

ومن أجمل المواضع التي استعان بها الإبراهيمي بالشعر قوله : " والقرب من الله مدعاة عند العاقل المتأنّه إلى الاستعداد للقائه، والتزوّد للدار الآخرة بأهبها وليوم الفاقة العظمى بالأعمال الصالحة، وقد قال شاعر حكيم يصوّر هذا القرب :

وإنّ امرءًا قد سَارَ خمْسِين حِجَّةً إلى مَنْهَلٍ مِن وِرْدِهِ لقَرِيب [1]

تواضعوا على هذا وأكثروا فيه القول ... " [2]، ساق الشيخ هذا البيت في خضمّ حديثه إلى الشباب، وهو يذكّرهم بالمسؤولية الموكلة بهم وأنّهم يجب أن يكونوا خير خلف لخير سلف، وأن لا تغرّهم المواعظ الموجّهة للكبار، وكأنّ الموت لا يعنيهم ولا يخطر ببالهم، وإن كل آت قريب، ثمّ وضع الشاهد من الشعر يتخلّل كلامه وكأنّه جوهر زيّن عقده الفريد، أو جمان زاد المعنى دلالة وبيانا، وأعطاه حجّة وبرهانا، وهذا البيت من قصيدة رائعة لأبي العتاهية مطلعها :

إذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْمًا فَلَا تَقُلْ خَلَوْتُ ولَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

ولا تَحْسَبَنَّ الله يُغْفِل مَا مَضَى وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ [3]

وقد كان الشّيخ دقيقا في اختيار الشّاهد، دقيقا في وضعه، فلا يكون بحسن استعماله له إلّا وكأنّه جزء من كلامه، أو شارح له، أو متمّم له، أو مثل لبنة في بناء إن حذفت سقط ولا تشعر بعد نهاية الخطبة إلّا بالتّسليم الذي يدفعك إلى الامتثال والتطبيق، وممّا يُحسب للشّيخ أيضا نقل الشواهد من غير تكلّف ولا حشو، كما إنّه في أغلب الأحيان يعزوها إلى صاحبها وقائلها، وربّما يشفع له في ذلك ذاكرته القوية .

ومن لطيف شواهده الشعريّة : " وُلِدَ الهُدَى فالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَــانِ تَبَسُّمٌ وثَنَــاءُ [4]

قرأت هذا البيت ووقفت عنده أتأمّله وأستجلي معانيه، فمحى كل ما في نفسي من آثار تلك المبالغات، بل محا كل ما في ذاكرتي من جميع ما قرأته من القصائد المولدية، وكشف لي هذا

[1] ـ أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، ط 1، س 1986 ، ص 34 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 269 .
[3] ـ أبو العتاهية، ديوان أبو العتاهية، ص 34 .
[4] ـ أحمد شوقي، الشوقيات،دار هنداوي، مصر، بد ط، س 2012، ص 41 .

البيت الواحد عن سرّ عظمة هذه اللّيلة، وفضلها على اللّيالي " [1]، وقد ذكر الشّيخ هذا البيت أثناء حديثه عن المبالغات التي كانت تأتي في قصائد مدح النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وتلك النمطيّة التي توارثها الأجيال في المديح، فكان جل همّهم أن ينسبوا إلى النبيّ خوارق العادات، وأن يخلطوا الغثّ بالسّمين والقويّ بالضعيف، فماتت المعاني مع الكلمات، وتحوّلت الألفاظ إلى عادات مجرّدة من الروحانيّات، ولكنّها على الرغم من ذلك كانت تشعرك بعظمة هذه اللّيلة المباركة، ليلة مولد النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، إلّا أن قرأ بيت شوقي المذكور فأثار حفيظته، وأشعره بالتّجديد الذي يجب أن يسلكه الشّعراء في قصائد المديح، وهذا البيت كان مطلع قصيدة رائعة من أجمل ما كتب أحمد شوقي، ولو لم يكتب إلاّ هذه القصيدة لكفته بأن يكون على رأس الشعراء وأميرا لهم، ولقد وظّف الشّيخ هذا البيت بطريقة إبداعية وصف به تلك النقلة وذلك الشكّ الذي كان في نفسه وربّما كان أيضا في نفوس كثير من النّاس إلى ذلك اليقين بعظم ليلة المولد، وأنّها ليلة تختلفعن باقي الليالي، لما خصّها الله بها من المكرمات، وأحاطها به من الحفظ والعناية .

من هذه الأمثلة يتجلى الدور الذي يمكن للشعر أن يقوم به في الخطبة، وتتضح الصفة الدلالية والقوة الحجاجية التي يمكن أيضا أن يضيفها للخطبة .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 316 .

الفصل الرابع : الآليات البلاغية للحجاج في خطب البشير الإبراهيمي

- البيان : الاستعارة

  التمثيل

- البديع : اللفظي

  المعنوي

تنقسم علوم البلاغة إلى ثلاثة أقسام مشهورة (المعاني والبيان والبديع)، وقد تناولت في هذا الفصل : علمي البيان والبديع، وتناولت في البيان الاستعارة والتّمثيل، وفي البديع اللّفظي والمعنوي، وتعمّدت ذلك لأنّ الحجاج في هذه الصور أوضح واستعماله في الخطب أيسر، ولأنّ مختلف أبواب المعاني هي موجودة في الخطبة آليّا ولقد عرّجت على بعض مباحثه في الفصلين السابقين :

1 ـ البيان :

ـ لغة : البيان معناه الظّهور والوضوح ومنه بان الشّيئ إذا ظهر واتّضح، وقد جاء في لسان العرب : " والبَيَانُ ما بُيِّنَ به الشَّيءُ من الدَلالَةِ وغَيرِها ... وبَانَ الشَّيءُ بَيَانًا إذا اتَّضَحَ فَهُوَ بَيِّنٌ " [1] وقد أورد الفيروز آبادي معنى مقاربا حيث قال : " البَيَانُ الإفصَاحُ مع ذَكَاءٍ والبَيِّنُ الفَصِيحُ " [2] وجاء في التنزيل :﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴾ (سورة الرحمان، الآية : 1 – 4) ، أي علّمه اللّغة التي يبيّن بها عن مراده ومبتغاه فَيَفهَم ويُفهِم، قال القرطبي في تفسير هذه الآية : " وقيل الإنسان يراد به جميع النّاس فهو اسم للجنس، والبَيَانُ على هذا الكلَامُ والفَهمُ " [3] وقال وهبة الزحيلي : " البيان التّعبير عمّا في النّفس وإفهام الغير لما يدركه من تلقّي الوحي " [4] فمعاني البيان في أغلبها تدور حول الفهم والإفهام أو الظهور والوضوح وكلّها معاني متقاربة وذكر الشنقيطي تفسيرا جامعا لهذا المعني في تعليقه على هذه الآية حيث قال : " والتحقيق فيه أنّ المراد بالبيان الإفصاح عمّا في الضّمير " [5]، ومن خلال ما سبق فالبيان من النّاحية اللّغوية هو الفهم والإفهام والوضوح .

ـ اصطلاحا : لا يبتعد التّعريف الإصطلاحي للبيان عن معناه اللّغوي :" البيان هو إظهار المتكلّم المراد للسامع " [6] فإذا فهم السّامع مقصود المتكلم نقول أنّه أبان له الكلام وأوضحه له ولعلّ تعريف صاحب شرح عقود الجمان أشمل وأعمّ من حيث المعنى حيث يقول : " وهو علم

---

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، م 13، 67 .
[2] ـ فيروز آبادي، القاموس المحيط، م 4، ص 161 .
[3] ـ القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، م 9، ص 134 .
[4] ـ وهبة الزحيلي، التفسير المنير ـ في العقيدة والتشريع والمنهج ـ، دار الفكر المعاصر، دبي، ط 14، س 2018، م 14، ص 210 .
[5] ـ محمد الأمين بن مختار الشنقيطي، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 4، س 2011، م 7، ص 440 .
[6] ـ علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تح محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، بد ط، بد س، ص 43 .

يعرف به إيراد المعنى الواحد المدلول عليه بكلام مطابق لمقتضى الحال بطرق مختلفة في إيضاح الدلالة عليه " [1]، ففهم المعاني التي تحملها الجمل والمفردات يحتاج إلى ديناميّة خاصّة تخضع لثقافة المرسل من جهة، وإلى حالة المرسل إليه من جهة أخرى، كل ذلك من أجل أن يؤدي الكلام رسالته التواصليّة بأسلم طريقة، وفي أجمل حلّة، فعند قولنا مثلا : سعيد شجاع، كلام واضح بيّن، لكن نستطيع أن نعبّر عن هذا المعنى بطريقة أخرى فنقول سعيد كالأسد في الشجاعة (تشبيه)، فالمراد إقرار الشجاعة لسعيد ولكن تعدّد الطّرق لإيصال المعنى هو الذي يهتم به علم البيان الذي هو أحد علوم البلاغة الثلاثة .

ولعلّ الكثير من الدّارسين يخلطون بين علم المعاني وعلم البيان، حيث يتعلّق كلاهما بالمعنى غير أنّ وظيفة الأوّل تهتم بأداء المعنى بطريقة صحيحة، والثّاني تهتمّ بأدائه بطريقة مؤثّرة، فالمعاني ترتسم في العقل بداية ثمّ تخرج على اللّسان وفق الطريقة التي رسمت في العقل وهذه وظيفة علم المعاني، لكن ربّما تكون هناك طرق أخرى أجمل لتأدية هذا المعنى وتقديمه بصورة أكثر إيحاء وأشدّ تأثيرا وهنا تأتي وظيفة علم البيان " علم البيان ـ إذن ـ علم الصورة البديعة التي من شأنها أن تهزّ أعطاف النّاس، ونحن لا نريد أن نفاضل بين العلمين إذ لا غناء بأحدهما عن الآخر، وإن كانت قضيّة النّظم أدقّ مسلكا، وأدلّ على الإعجاز، إلاّ أنّ علم علم البيان أدعي للتأثير، وأدنى للعاطفة " [2]، وكأنّ علم المعاني مصدره العقل ويخاطب العقل، وعلم البيان مصدره العاطفة ويخاطب العاطفة، " علم البيان هو العلم الذي تستطيع بواسطته وبمعرفته أن تؤدي المعنى الواحد بطرق مختلفة من اللّفظ، بعضها أوضح من بعض وإن شئت فقل بعضها أكثر تأثيرا من بعض " [3] وهذا دون إغفال المعنى الصحيح الذي يوافق مقتضى الحال .

ومن المعلوم أنّ البلاغة العربية مرّت بمراحل طويلة حتّى وصلت إلى ما وصلت إليه فقد كانت بدايتها من العصر الجاهلي مشكّلة من مجموع ملاحظات للأدباء والشعراء مبثوثة في كتب الفقه والتفسير، واتّضحت معالمها بعد ذلك في العصر العبّاسي مع ظهور علماء

---

[1] ـ جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، بد ط، بد س، ص 77 .
[2] ـ فضل حسن عباس، علم البيان والبديع، دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان، ط 11، س 2007، ص 13 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 13 – 14 .

الكلام الذين كانوا يستندون في حجاجهم على المنطق والفلسفة، وقابلهم في الجهة الأخرى العلماء المحافظون الذين حاولوا دراسة الأدب العربي وخاصّة في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام، فوضع هذا السّجال اللّبنات الأولى لعلم البلاغة، وكان كتاب البيان والتبيين للجاحظ السابق في إيضاح بعض معاني البيان والضّابط لبعض مصطلحاته وأفانينه " وإذا انتقلنا إلى العصر العبّاسي فإنّنا نجد بالإضافة إلى نموّ الملاحظات البلاغيّة محاولات أوّلية لتدوين هذه الملاحظات وتسجيلها كما هو الشأن في كتب الجاحظ وبخاصة كتاب البيان والتّبيين "[1].

والملاحظ أنّ الجاحظ أخذ هذه الملاحظات عن شيخ المعتزلة بشر بن المعتمر " فعنه نقل الجاحظ صفحات نثر فيه بشر ملاحظات دقيقة في البلاغة، تلقّفها من جاء بعده من العلماء واستعانوا بها على بلورة بعض أصول البلاغة وقواعدها " [2]، وهناك من يرجع الفضل في تقعيد علم البيان إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى صاحب كتاب (مجاز القرآن) حيث يقول صاحب كتاب جواهر البلاغة : " وواضعه ـ يقصد علم البيان ـ أبو عبيدة الذي دوّن مسائل هذا العلم في كتابه المسمى مجاز القرآن وما زال ينمو شيئا فشيئا حتّى وصل إلى الإمام عبد القاهر فأحكم أساسه وشيّد بناءه ورتّب قواعده وتبعه الجاحظ وابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري " [3]، وضمير الهاء في كلمة (تبعه) يعود على حسب التاريخ إلى أبي عبيدة لأنّ الذين ذكرهم كلهم ماتوا قبل ميلاد عبد القاهر الجرجاني [4]، والحقيقة أنّ عبد القاهر الجرجاني أبدع في كتابه أسرار البلاغة وعرّج على معظم أقسام البيان فتحدّث عن التشبيه والاستعارة والحقيقة والمجاز ولم يتحدّث عن الكناية التي خصّص لها حظّا وافرا في كتابه دلائل الإعجاز ثمّ جاء من بعده الزمخشري في تفسيره (الكشّاف) الذي يعدّ منهجا عمليا لكتابي الجرجاني نهل منهما، وأورد أهم المسائل الذي ذكرها الجرجاني " أجل لقد تتلمذ على عبد القاهر في هذين الكتابين وعمق في فهمهما واستيعابهما " [5] .

---

[1] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 8 .
[2] ـ المرجع نفسه ، ص 10 .
[3] ـ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص 2017 .
[4] ـ أبو عبيدة (ت 209)، الجاحظ (ت 255هـ)،قدامة (ت 291هـ)، ابن معتز (ت 296 هـ)، أبو هلال العسكري (ت395 هـ)، الجرجاني (ت 471هـ)

[5] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 28 .

ويعدّ الزمخشري أفضل من شرح القواعد التي وضعها عبد القاهر، ومثّل لها بأسلوب رائع من خلال تفسيره للقرآن الكريم، كما أنّ تفسيره يعد من أجمل التفاسير وأروعها ولقد لقي القبول من مختلف الفرق والمذاهب على الرّغم من ميل صاحبه إلى المعتزلة .

ثمّ جاء من بعده السكّاكي وكتابه الرائد مفتاح العلوم، الذي وضع فيه القواعد الكلّية والمعالم الفاصلة بين مختلف أنواع البلاغة، " وشهرة السكّاكي العلميّة ترجع في الواقع إلى هذا القسم من كتابه الذي أعطى فيه للمعاني والبيان والفصاحة والبلاغة والبديع الصيغة النهائيّة التي عكف عليها العلماء من بعده يدرسونها ويشرحونها مرارا وتكرارا " [1] .

1 ـ الاستعارة :

1 ـ 1 : تعريف الاستعارة :

أ . لغة : الاستعارة لغة هي رفع الشيء وتحويله من مكان إلى آخر، جاء في لسان العرب مادّة (عور): " ... العارِيّة والعارَة : ما تداولوه بينهم؛ وقد أعاره الشيء وأعاره منه. والمُعَاورة والتَّعَاوُر : شبه المداولة والتداول في الشيء يكون بين اثنين ... تعَوَّر واسْتَعَار: طلب العاريّة . واستعاره الشيء واستعاره منه : طلب منه أن يعيره إياه... ويقال تَعَوَّرَ واسْتعَار نحو تَعَجّبَ واسْتَعْجَب " [2]، فالعارية تعني عدم الملكيّة للشيء، وانتقالها من شخص لآخر، ومنه يقال تعاور القوم الرجل : إذا تناوبوا على ضربه واحدا بعد آخر، والعارية عادة تطلق على الشّيء المستعار، والفعل (استعار) ومصدره (استعارة) فنقول : استعار عارية ومنه قول أسامة بن المنقذ :

عَارِيّةٌ كان وما كُلُّ مَا يُعَارُ يُسْتَبْقى ويُسْتَمْلَكُ [3] .

قال ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : " رأيت بني أميّة يتعاورون منبري، فقيل هي دنيا تنالهم ... " [4] يتعاورون منبري : أي يتناوبون الخطابة ويتداولون الصّعود عليه، هذا التداول

---

[1] ـ المرجع نفسه، ص 30 .
[2] ـ ابن المنظور، لسان العرب، ج 4، ص 618 .
[3] ـ أسامة بن منقذ، ديوان أسامة بن منقذ، تح : أحمد حامد بدوي، عالم الكتب، بيروت، ط 2، س 1983، ص 353 .
[4] ـ نبيل بن منصور البصارة، أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري، مؤسسة الريان، لبنان، ط 1، س 2005، حديث رقم : 1522 ص 2184 .

والتناوب يدلّ على عدم الملكيّة، وانتقال المنفعة من شخص لآخر، وجاء في حديث آخر يرويه صفوان بن أميّة ـ رضي الله عنه ـ : " أنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ استعار يوم حنين أدرعا ـ يعني منه ـ فقال : أغَصْبًا يا محمّد ؟ فقال ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: بل عارية مضمونة "[1]، فالاستعارة ممّا سبق مصدر للفعل أعار واستعار وهو تحويل منفعة الشيء من شخص إلى شخص آخر، أو التّداول على الشيء والتناوب عليه، وهذا المعنى ليس بعيدا عن معناها الاصطلاحي كما سأوضّحه لاحقا .

ب ـ اصطلاحا :

الاستعارة كما هو معروف في علم البلاغة هي عبارة عن تشبيه حذف أحد طرفيه بشروط عرّفها صاحب المصباح بقوله : " أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد الآخر مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به مع سد طريق التشبيه ونصب القرينة "[2] وهذا تعريف قريب جدّا من تعريف صاحب المفتاح : " أن تذكر أحد طرفي التشبيه وتريد به الطّرف الآخر مدّعيا دخول المشبه في جنس المشبه به "[3]، فالألفاظ في اللّغة جعلت لتدلّ على معاني معيّنة كقولنا : أسد، وهو الحيوان المفترس المعروف، فإذا أخذنا هذا اللّفظ ووضعناه في صياغ آخر : رأيت أسدا يضرب في العدوّ بسيفه، نكون بذلك قد وظّفنا لفظة الأسد في غير المعنى الذي وضعت له، والقرينة التي تدلّ على المعنى الجديد (يضرب في العدوّ بسيفه) وفي هذا يقول قدامة بن جعفر : " وأمّا الاستعارة فإنّما احتيج إليها في كلام العرب لأنّ ألفاظهم أكبر من معانيهم، وليس هذا في لسان غير لسانهم، فهم يعبّرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة "[4]، فالاستعارة بهذا الشّكل معناها استعارة اللّفظ الذي وضع لمعنى واحد ووضعه في صياغ آخر ليدلّ على معنى ثان لوجود مسوّغ مشترك جاز به ذلك، وإلى هذا يشير ابن المعتز في تعريفه للاستعارة : " إنّما هُو استعارة كلمة لشيء لم يعرف بها من شيء عرف بها مثل : أمّ الكتاب، وجناح الليل ... "[5]، وهذا يشبه إلى حدّ كبير الإعارة . نوع من المعاملات . فالمستعير لا يستعير شيئا

---

[1] ـ الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، ج 24، ص 12 - 13 .
[2] ـ بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح : حسني عبد الجليل، ملتزم الطبع والنشر، القاهرة، ط 1، س 1989، ص 128.
[3] ـ يوسف بن أبي بكر السكاكي، مفتاح العلوم، تح نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1987، ص 369 .
[4] ـ قدامة بن جعفر البغدادي، نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 1980، ص 64 .
[5] ـ عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، تح عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط 1، س 2012، ص 11 .

إلاّ ممّن يعرفه، والمستعار منه لا يعير شيئا إلاّ للّذي يعرفه، فلابد لهم من سابق معرفة، كذا استعارة اللّفظ لتأدية معنى جديد لابد لذلك من سابق معرفة وقديم علاقة بين المستعار منه والمستعار له .

وربّما بسّط عبد القاهر الجرجاني تعريف الاستعارة فقال : " اعلم أنّ الاستعارة في الجملة أن يكون للّفظ أصل في الوضع اللّغوي معروف تدل الشواهد على أنّه اختص به حين وُضع، ثمّ يستعمله الشّاعر أو غير الشّاعر في غير ذلك الأصل، وينقله إليه نقلا غير لازم، فيكون هناك كالعارية " [1]، وقد وضع الجرجاني مثالا لذلك ساقه في دلائل الإعجاز : " الاستعارة أن تريد تشبيه الشّيء بالشّيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبّه به فتعيره المشبّه وتجريه عليه، تريد أن تقول : رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوّة بطشه سواء، فتدع ذلك وتقول : رأيت أسدا " [2]، وتكاد تكون تعاريف علماء البلاغة للاستعارة متشابهة كلّها وتعني عندهم وضع اللّفظ في غير ما وضع له فإذا قلت مثلا :

وإذا المَنِيّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَها أَلْفَيْتَ كُلّ تَمِيمَةٍ لا تَنْفَعُ [3]

فالذي ينشب أظفاره عادة هو الوحشيّ من الطّير والسّباع، والمنيّة سرّ من أسرار الله عزّ وجلّ وقضاء محتّم على جميع خلقه، فأخذنا هذا اللّفظ الذي هو ـ أنشبت أظفارها ـ وأعرناه للمنيّة، والغرض من ذلك زيادة المعنى والمبالغة في التشبيه وأصل الكلام : وإذا أقبلت المنيّة كالوحش ينشب أظفاره لم يكن منها مهرب ومفرّ، وهذا وجه من أوجه الاستعارة ذكر فيه المشبّه وهو المنيّة وحذف منه المشبه به وهو الوحش وأُشير إليه بأحد لوازمه . أنشبت أظفارها. فهي من الاستعارة المكنيّة كما سيأتي لاحقا إن شاء الله، ومنه أيضا قول الشّاعر :

وإذا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيونُها لاَ تَخْشَ من بَأْسٍ فَأَنْتَ تُصَانُ

وبِكُلِّ أَرْضٍ قَدْ نَزَلْتَ قِفَارَهَا نَمْ فَالمَخَـــــاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَـانُ [4]

[1] ـ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بد ط، بد ت، ص 33 .
[2] ـ عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بد ط، بد ت، ص 67 .
[3] ـ خويلد بن خالد بن محرث الهذلي، ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تح أنطونيو بن بطرس، دار صادر، بيروت، ط 1، س 2003، ص 143 .
[4] ـ عمر اليافي، ديوان عمر اليافي، المكتبة العلمية، بيروت، بد ط، بد س، ص 156 .

ولعلّ أكثر من نقل هذا الشّاهد أضاف عجز البيت الثّاني إلى صدر الأوّل فقالوا :

وإذا العناية لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

ـ أركان الاستعارة :

بما أنّ الاستعارة تشبيه حذف أحد أركانه كانت أركانها مشابهة لأركان التّشبيه :

ـ المستعار منه (المشبّه به) .

ـ المستعار له (المشبّه) .

ـ المستعار (وجه الشبه) .

ـ القرينة التي تمنع إرادة المعنى الأصلي لفظيّة كانت أو حالية .

وجاء في كتاب علوم البلاغة ذِكْر أربعة أركان للاستعارة : " وهكذا تصبح أركانها كما يأتي : المستعار له : المشبّه، والمستعار منه : المشبّه به، والجامع : وجه الشبه، والمستعار: هو عند بعضهم لفظ المشبّه به وإن كان محذوفا، وعند السكّاكي لفظ المشبّه، لكن لابد من اعتماد رأي الجمهور " [1]، ومثال ذلك :

وإذا العِنايَة لاَحَظْتكَ عُيُونُهَا نَمْ فالمَخَاوفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

فالمستعار له : العناية، والمستعار منه : محذوف وتقديره المرأة، والجامع : لاحظتك عيونها والمستعار : وهو لفظ المرأة وإن كان محذوفا .

ومثاله أيضا : رأيت أسدا يضرب في العدو بسيفه .

المستعار له : رجلا وتقدير الكلام : رأيت رجلا شجاعا كالأسد يضرب في العدو بسيفه .

المستعار منه : أسدا .

الجامع : الشجاعة .

[1] ـ محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع، البيان، والمعاني)، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط 3، 2003، ص 194 .

المستعار : لفظ الأسد .

ـ أقسام الاستعارة :

للاستعارة عدّة تقسيمات على حسب الوجه الذي ينظر به إليها قال الخطيب القزويني : " الاستعارة تنقسم باعتبار الطرفين، وباعتبار الجامع، وباعتبار اللّفظ، وباعتبار أمر خارج عن ذلك كلّه "[1]، وعلى الرّغم من وجود هذه التقسيمات غير أنّ أغلبية الباحثين في الأدب يقتصرون على التقسيم المتعلّق بوجود المشبّه به وعدمه (باعتبار الطرفين)، ومردّ ذلك إلى صعوبة الإجراءات التطبيقيّة في باقي التقسيمات، إضافة إلى أنّ أغلبها عبارة عن إيغال في التقعيد وتشتيت للفكر وانشغال بما لا طائل من ورائه، إلاّ بالنسبة للمتخصّصين والمتعمّقين في دراسة النصوص الأدبية :

أ ـ **باعتبار طرفيها** : تنقسم الاستعارة باعتبار طرفيها إلى نوعين (تصريحيّة ومكنية) فالاستعارة كما بُيّن سابقا عبارة عن تشبيه حذف أحد طرفيه وعلى حسب هذا المحذوف يتحدّد نوع الاستعارة .

ـ **الاستعارة التصريحية** : ينظر فيها إلى المشبه به (المستعار منه) فإن كان موجودا كأحد طرفي الاستعارة كانت الاستعارة تصريحية وكأنّنا صرحنا بوجوده، عرّفها عبد العزيز عتيق بقوله : " ما صُرّح فيها بلفظ المشبّه به، أو ما استعير فيها لفظ المشبّه به للمشبه "[2]، ومثالها : قوله تعالى : ﴿ **الر كِتَابٌ اَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ** ﴾ (سورة ابراهيم، الآية 1) .

فقد شبّه سبحانه وتعالى الكفر والضّلال بالظّلمات، وشبّه الإيمان بالنّور وهذان استعارتان حذف منهما المشبّه (الكفر والإيمان)، وصرّح بالمشبّه به (الظلمات والنّور) والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام، فتكون الاستعارة بذلك تصريحيّة، ومثالها أيضا قول المتنبّي :

---

[1] ـ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 219 .
[2] ـ عبد العزيز عتيق، البيان، ص 179 .

وأَقْبَلَ يَمْشِي في البِسَاطِ فَمَا دَرَى إلى البَحْرِ يَسْعَى أَمْ إلى البَدْرِ يَرْتَقِي [1]

شبّه المتنبّي في هذا البيت ممدوحه بالبحر في الكرم والجود والعطاء، وبالبدر في العلوّ والرّفعة والشّان، وحذف المشبّه وأشار إليه بأحد لوازمه (وأقبل يمشي في البساط) إشارة إلى مبعوث الرّوم الذي دخل على سيف الدولة، وتكون الاستعارة بذلك تصريحيّة لأنّه حذف المشبّه وصرح بالمشبّه به، وتنقسم الاستعارة التصريحيّة إلى قسمين : تصريحيّة تحقيقيّة وتصريحيّة تخييليّة .

فالتحقيقيّة إلحاق المشبّه بشيء موجود حقيقة : مثل : رأيت أسدا يضرب بسيفه .

والتّخيليّة إلحاق المشبه بشيء مُتخيّل ليس له حقيقة مادّية : مثل : رأيت الموت يقطع الرؤوس وأنت تقصد بذلك رجلا شجاعا، ثمّ قسّموا التحقيقيّة والتّخييليّة كل إلى قسمين : قطعيّة واحتماليّة .

وفي الحقيقة هذا إيغال في التقسيم ولذلك يذهب أغلب الأدباء إلى التقسيم الجامع (تصريحيّة ومكنيّة) حتّى لا يشتّتوا ذهن طلّاب العلم، وليسهّلوا الإجراءات التطبيقيّة العمليّة لمن أراد كتابة مختلف النصوص الأدبيّة، وتبقى هذه التقسيمات الدقيقة نافعة لمن أراد تحليل النصوص واستخراج كمائنها .

ـ **الاستعارة المكنيّة** : هي عكس التصريحيّة فإذا تمّ التصريح بالمشبه به في الاستعارة التصريحية يتمّ حذفه في الاستعارة المكنيّة ويُشار إليه بأحد لوازمه عرّفها السكّاكي بقوله :" هي كما عرفت أن تذكر المشبه وتريد به المشبه به دالا على ذلك بنصب قرينة تنصبها " [2]، ومثالها قول الله تعالى على لسان زكريا :﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا** ﴾ (سورة مريم، الآية 4)، حيث شبّه زكريّا ـ عليه السّلام ـ شعر رأسه وظهور الشّيب عليه بالموقد عند اشتعاله أو الحطب المشتعل، وحذف المشبّه به (الموقد)

[1] ـ أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص 347 .
[2] ـ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 378 .

وأشار إليه بأحد لوازمه (اشتعل)، وأثبت المشبّه (شيب الرأس)، فتكون الاستعارة بذلك مكنية، ومثالها أيضا قول دعبل الخزاعي :

لا تَعْجَبِي يَا سَلْمُ مِن رَجُلٍ ضَحِكَ المَشِيبُ برَأْسِه فَبَكَى [1]

حيث شبّه المشيب بكائن حي (محذوف) وأشار إليه بأحد لوازمه (الضّحك) وأظهر المشبّه به (المشيب) فتكون الاستعارة بذلك مكنيّة، ومثالها أيضا قول البحتري :

أتاك الرّبيعُ الطّلْقُ يَخْتالُ ضَاحِكًا من الحُسْنِ حتّى كَاد أن يَتَكَلَّمَا [2]

شبّه الشّاعر الربيع بكائن حيّ وحذف المشبه به وأشار إليه بأحد لوازمه (يختال ضاحكا) حيث أثبت الضّحك والاختيال للربيع، فالاستعارة هنا مكنيّة .

والاستعارة المكنيّة عند الكثير من علماء اللغة أفضل من التصريحيّة، ودلالتها أعمق لما فيها من بديع القول وجمال التشبيه، جاء في كتاب علوم البلاغة : " تجدر الإشارة إلى أنّ البلاغيّين يذهبون إلى أنّ الاستعارة المكنيّة أبلغ من الاستعارة الأصليّة لأنّها أكثر قدرة على تشخيص الصور وبعث الحياة فيها " [3]، ولأنّ الاستعارة المكنية نقل الحياة إلى المشبّه وجعل ما نسب إليه خصلة من خصاله وصفة من صفاته، فعندما يقال وإذا المنيّة أنشبت أظفارها، هو إعطاء الحياة للمنيّة وجَعْلِ أظفارٍ لها كالوحوش التي تمسك بفريستها فلا تتركها حتّى تخرج روحها، يقول عبد العزيز عتيق : " ومن البلاغيّين من يسمّي هذا النّوع من الاستعارة التّشخيص، حيث تمثّل فيه المعاني والجمادات إلى أشخاص تكتسب كل صفات الكائنات الحيّة أيّا كانت وتصدر عنها أفعالها " [4]، ولذلك يعدّ هذا النوع من الاستعارة من أجمل الصور البيانيّة لما فيه من بعث الرّوح وجمال التشخيص وروعة الأسلوب وانتقال المعاني .

[1] ـ عبد الكريم الأشتر، شعر دعبل بن علي الخزاعي، مجمع اللغة العربية، دمشق ، ط 2، س 1983، ص 203 .
[2] ـ الوليد بن عبيد البحتري، ديوان البحتري، تح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، القاهرة، ط 3، س 1963، ص 2090 .
[3] ـ محمد احمد قاسم، علوم البلاغة، ص 201 .
[4] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 171

ب ـ باعتبار لفظها : تنقسم الاستعارة باعتبار لفظها إلى أصليّة وتبعيّة :

ـ فالأصليّة : إذا كان اللّفظ المستعار جامدا غير مشتقّ سمّيت الاستعارة أصلية : " هي ما كان اللّفظ المستعار أو الذي جرت فيه اسما جامدا غير مشتقّ " [1]، والجامد هو كل اسم لا يرجع إلى كلمة تسبقه في الوجود : كالشّمس والقمر والعلم والشّجر والحجر ... وغيرها، ومثال ذلك قول الشاعر :

يا كَوْكَبًا مَا كَانَ أَقْصَرَ عُمْرَهُ وكَذَا عُمْرُ كَوَاكِبِ الأَسْحَارِ [2]

هذا بيت من قصيدة رائعة لعليّ بن محمّد التّهامي يرثي فيها ابنه مطلعها :

حُكْمُ المَنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جَارِي ما هذه الدّنْيَا بدَارِ قَرَارِ

وقد شبّه ابنه في هذا البيت بالكوكب ـ ويقصد به النّجم ـ لعلوّ شأنه وصغر جرمه في العين فاللّفظ المستعار وهو المشبه به (الكوكب) لفظ جامد غير مشتقّ، ومثاله أيضا قول المتنبي :

حَمَلْتُ إلَيهِ من لِسَانِي حَدِيقَةً سَقَاهَا الحِجَا سَقْيَ الرّيَاضِ السَحَائِبِ [3]

شبّه الشّعر هنا بحديقة غنّاء تُسقى بماء الحجى والحكمة، وكلمة حديقة وهي اللّفظ المستعار جاء جامدا غير مشتقّ فتكون الاستعارة بذلك أصليّة .

ويظهر ممّا سبق أنّ الاستعارة الأصليّة لا تكون إلاّ تصريحيّة حيث صرحنا بالمشبّه به في كلا المثالين .

والتبعيّة : ما كان اللّفظ المستعار مشتقّا غير جامد، والمشتقّ هو ما أُخِذ من غيره ونُحت منه فمادّته الأصليّة هي الاسم الجامد، ومن المشتقّات اسم الفاعل واسم المفعول وأسماء التفضيل... وغيرها، والملاحظ أنّ المشتقات تقدّم معاني إضافيّة فوق المعاني الأصليّة التي

---

[1] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 181 .

[2] ـ علي بن محمد التهامي، ديوان أبو الحسن علي بن محمد التهامي، تح محمد بن عبد الرحمان الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، س 1982، ص 309 .

[3] ـ أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص 228 .

يفيدها الاسم الجامد قال عبد العزيز عتيق في تعريفه للاستعارة التبعيّة : " ما كان اللّفظ المستعار أو اللّفظ الذي جرت فيها الاستعارة اسما مشتقّا أو فعلا " [1]، وقد أضاف هذا التّعريف إلى الاسم الجامد الفعل ليوسع دائرة الاستعارة التبعيّة وقد مثّل المؤلف لهذا النوع من الاستعارة بقوله تعالى : ﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ (سورة الأعراف، الآية 154) ، حيث شبّه انتهاء الغضب بالسّكوت بجامع الهدوء في الاثنين، ثمّ استعير اللّفظ الدّال على المشبّه به وهو (السكوت) للمشبه وهو (انتهاء الغضب) واستعمل اللّفظ سكت المشتقّة من السّكوت للدّلالة على المشبّه به فكانت الاستعارة بذلك تصريحيّة تبعيّة .

كما أنّه يجوز إجراء الاستعارة بشكل آخر وجعلها استعارة مكنيّة، حيث شبّه الغضب (مشبه) بإنسان يغضب (مشبه به محذوف) وأشار إليه بأحد لوازمه سكت، فالسّكوت والكلام من خصائص الإنسان، فتنتفي عنها التبعيّة وتكون بذلك استعارة مكنيّة ولا نقول عنها استعارة مكنيّة تبعيّة، إذ لا تكون أبدا إلاّ واحدة منهما .

ج . باعتبار الملائم : تنقسم الاستعارة باعتبار الملائم إلى ثلاثة أقسام : (مرشّحة، ومجرّدة ومطلقة) والمقصود بالملائم ذكر ما يلائم أحد طرفي الاستعارة، فإن لاءم المستعار منه سمّيت مرشّحة وإن كان المذكور يلائم المستعار له سمّيت مجرّدة وإن لاءم الاثنين أو كانت خالية من الملائم سمّيت مطلقة .

ـ الاستعارة المرشّحة : يكون تركيز الكلام فيها على المستعار منه أو المشبّه به فإن كان في كلام الاستعارة ما يلائمه كانت الاستعارة مرشّحة ومثال ذلك : رأيت أسدا يزأر في المعركة

فالمشبّه في هذا المثال محذوف وتقدير الكلام رأيت رجلا كالأسد يزأر في المعركة، فهي استعارة مكنيّة، ووجه الشبه الصوت المرتفع والمرعب الشبيه بصوت الزئير، والزئير هو ممّا يلائم الأسد (المستعار منه)، فتكون الاستعارة بذلك مرشّحة، إذًا فالاستعارة المرشّحة :

[1] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 183 .

" هي ما ذكر معها ملائم المشبّه به، أي المستعار منه " [1]، ومثالها أيضا قول ذو الإصبع العدواني :

إذا مَا الدَّهْرُ جرّ على أُنَاسٍ كَلاَكِلَــهُ أَنَاخَ بآخَـــرِينَا

فَقُل للشَّامِتِيـنَ بِنَا أفِيـــقُوا سَيَلْقَى الشّامِتُون كَمَا لَقِينَا [2]

فقد شبّه الشاعر هنا الدّهر بالجمل أو بشيء له صدر، لأنّ الكَلْكَلَ هو الصّدر وصُرِف المعنى للجمل لأنّه استعمل أناخ التي عادة تطلق على الجمل، فنقول أناخ الرجل الجمل إذا أبْرَكه، فحذف المشبّه به وأشار إليه بأحد لوازمه (كلاكله أناخ بآخرينا)، فهي من الاستعارة المكنيّة والكلكل والإناخة مما يناسب الجمل (المستعار منه)، فتكون الاستعارة مرشّحة بذلك .

. **الاستعارة المجرّدة** : وهي التي ينظر فيها إلى المشبّه فإذا كان الكلام المستعار ممّا يلائمه سمّيت الاستعارة مجرّدة، ومثاله : رأيت أسدا يضرب في العدو بسيفه، هذه استعارة مكنيّة كما بيّنت سابقا، لكن هناك اختلاف في وجه الشّبه أو الشيء المستعار بين الرجل الشجاع والأسد (يضرب في العدو بسيفه) حيث إنّ هذا الكلام يلائم المستعار له ـ الرجل ـ وبذلك نقول أنّ هذه الاستعارة مجرّدة، فالاستعارة المجرّدة : " هي ما ذكر معها ملائم المشبّه أي المستعار له " [3]، ومثالها أيضا قول النّميري :

ولَيْلَةٍ مَرِضَتْ من كُلِّ نَاحِيَةٍ فَمَا يُضِيءُ بِهَا نَجْمٌ ولَا قَمَرُ [4]

هذه استعارة مكنيّة حيث شبّه اللّيلَة بكائن حي يمكنه المرض، وحذف المشبّه به وهو هذا الكائن أو الشّخص، وأشار إليه بأحد لوازمه (مرضت)، وجامع الشبه بينهما ذلك الهدوء الذي ليس فيه حركة وعبّر على ذلك بقوله : (فما يضيء بها نجم ولا قمر) وهذا ممّا يناسب المستعار له فتكون بذلك الاستعارة مجرّدة .

---

[1] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 186 .
[2] ـ ذو الاصبع العدواني، ديوان ذي الاصبع العدواني ، تح عبد الوهاب العدواني، مطبعة الجمهور، الموصل، العراق، بد ط، س 1973، ص 83 .
[3] ـ عبد العزيز عتيق، علم البيان، ص 187 .
[4] ـ أبو حية النميري، شعر أبي حية النميري، تح يحي الجبوري، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، بد ط، س 1975، ص 148

كما يمكن صياغة هذه الاستعارة بطريقة أخرى : حيث شبّه الظّلمة وهي محذوفة بالمرض (مرضت من كلّ ناحية) وذلك لجامع الهدوء والسّكون وأشار إلى ذلك بقوله (فما يضيء بها نجم ولا قمر) فتكون بذلك الاستعارة تصريحيّة مجرّدة لأنّه صرّح بالمشبّه به (المرض) وحذف المشبّه وذكر ما يلائمه .

ـ **الاستعارة المطلقة** : هي الاستعارة التى لم يذكر فيها ما يلائم طرفي الاستعارة أو ذكر فيها الذي يلائمهما معا، ومثالها : رأيت أسدا في المعركة، فهذه استعارة تصريحيّة للتصريح بالمشبه به (أسدا) وحذف المشبّه، وأصل الكلام رأيت رجلا شجاعا كالأسد في المعركة، والملاحظ في هذه الاستعارة عدم ذكر الملائم سواء للمستعار له أو للمستعار منه، فتكون الاستعارة بهذا الشكل مطلقة، ومثالها أيضا قول قريط بن أنيف :

قَومٌ إذَا الشّرُّ أبْدَى نَاجِذَيهِ لَهُم طَارُوا إلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانًا [1]

فالمشبّه به محذوف وتقديره الوحش من السّباع وأشار إليه بأحد لوازمه (أبدى ناجذيه لهم) فالاستعارة هنا مكنيّة، ولأنّها خلت ممّا يلائم أحد الطرفين كانت بذلك استعارة مطلقة، وتبقى الاستعارة على إطلاقها إذا ذكرنا ما يلائم الطرفين نحو : رأيت أسدا يزأر في المعركة ويطلق الرصاص من سلاحه .

فالزئير ممّا يلائم المستعار منه (الأسد) وإطلاق الرّصاص ممّا يلائم المستعار له فنقول : هذه استعارة مكنيّة مطلقة لحذف المشبّه به (المستعار منه) ولأنّها اقترنت بما يلائم المستعار منه والمستعار له معا، وفي نحو قول المتنبّي :

في الخَدِّ إنْ عَزَمَ الخَلِيطُ رَحِيلًا مَطَرٌ تَزِيدُ بِهِ الخُدُودُ مُحُولا [2]

شبّه الشّاعر هنا الدّمع على الخدود بالمطر فحذف المشبّه (الدّموع) وصرح بالمشبّه به (مطر) فهي استعارة تصريحيّة وذكر ما يلائم المستعار له (الخدود) وما يلائم

[1] ـ أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تح أحمد حسن، دار المكتبة العلمية، بيروت، ط 1، س 1998، ص 11 .
[2] ـ أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص 144 .

المستعار منه (مُحُولا) والمَحْل هو جفاف الأرض ويبسها بعد انقطاع المطر عليها، فتكون الاستعارة بذلك تصريحيّة مطلقة لأنّه ذكر فيها ما يلائم طرفيها .

ـ الاستعارة عند البشير الإبراهيمي :

ومن أمثلة الاستعارة عند الإبراهيمي قوله : " وأنست الرّاحة والنّوم مع شدّة الحاجة إليهما ... " [1]، وقد ساق هذا الكلام في معرض حديثه عن رحلته الطّويلة إلى مختلف الأقطار الإسلاميّة، مُعرّفا بحقيقة جمعيّة العلماء، ومُنوّها بجهودها التي تبذلها في مكافحة الاستدمار، ومُطّلعا على أحوال إخوانه في هذه الربوع، ومحاولا جمع جهود العلماء لخدمة الأمّة والدّين، وقد ساقه الحديث في هذه الفقرة إلى مُقامه في مصر وبالتّحديد في فندق (جزيرة بالاس)، حيث ألف الرّاحة والنّوم وقد كان في أمسّ الحاجة إليهما بعد رحلة طويلة قضاها صوّالا جوّالا حاملا القضيّة الجزائريّة فوق عاتقه، فعبّر عن ذلك بهذه الاستعارة الجميلة (وأنست الراحة)، فقد شبّه الرّاحة بإنسان يُؤنس إليه وحذف المشبّه به (الإنسان) وأشار إليه بأحد لوازمه وهو الأُنسُ، وأثبت المشبّه (الرّاحة) فهي من الاستعارة المكنيّة، وهذا من رائق الكلام وجميل النّظم وحسن التركيب فلو قال مثلا وقد أكثرت من النّوم وأطلت الرّاحة لكان المعنى ناقصا ولم يؤد الغرض كما أدّته هذه الاستعارة اللّطيفة التي زادت المعنى شرفا والمقصد وضوحا وجمالا، فقد بلغ به الإكثار من النّوم والرّاحة حدّ الأنس بهما من كثرة صحبتهما وطول ملازمتهما، وهذا ممّا يترك أثرا أبلغ وإيحاء أعمق من الكلام مجرّدا من الاستعارة، كما يمكن أن نستنتج عدّة فوائد من استعمال هذه الاستعارة منها :

ـ حاجة الشيخ للرّاحة والنّوم بعد رحلته الطويلة .

ـ رضا الشيخ بهذه الراحة وأنسه بها .

ـ التعب والمشقة التي كانت قبل مكوثه والتي ألجأته إلى النّوم والرّاحة .

ـ العمل المستمر والجهد الدائم للشيخ فالأنس والنّوم لا يكون إلاّ بعد طول هجر وبعد الراحة :

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 30 .

قال أبو تمام :

بَصُرْتُ بالرّاحَةِ الكُبْرى فَلَم أَرَهَا تُنَالُ إلاّ عَلى جِسْرٍ من التّعَبِ [1]

وعن الرّحلة نفسها يضيف فيقول : " ثمّ فاجأته الأقدار بالرّجوع إلى الأهل والدار ... " [2]،

وهو يشير إلى جمال هذه الرّحلة وما تركت في نفسه من أثر بالغ والتي أنسته حسناتها هموم الاستدمار، ونفّست عليه قليلا ممّا يحمله من آلام الأمّة وآمالها، حتّى إذا أنست روحة وألفت نفسه تلك الصّحبة الطيّبة في مصر فاجأته رحلة العودة إلى الدّيار والرّجوع إلى الأهل والأصحاب، واستعمل ليخبرنا بذلك تلك الاستعارة الرقيقة التي تصف حاله وتبيّن شعوره (ثمّ فاجأته الأقدار بالرجوع إلى الأهل والديار) فشبّه الأقدار برجل يمكنه أن يخبر ويفاجئ وحذف المشبه به وأشار إليه بأحد لوازمه (فاجأته) في تشخيص جميل وتعبير رقيق يصل إلى القلوب ويخاطب الإحساس ويُلخّص المشاعر ويصف الخوالج، ولو قال (ثم رجعت إلى الأهل والدار) لما ترك ذلك في النّفوس شيئا، ولما حرّك من العواطف سواكنا، لكنّه بهذه الاستعارة الظّريفة ألقى الروح إلى الكلمات، وزادها بهجة وكساها العديد من الإيحاءات، فمنها مثلا :

ـ اعتزاز الشيخ بهذه الرّحلة وافتخاره بها وأنسه إليها .

ـ المحبّة العارمة التي وجدها في قلوب إخوانه من أهل مصر، ومن غيرها في مختلف الأقطار الإسلاميّة .

ـ شعور الشّيخ بالسّعادة لحد أنّه لم يشعر بالمدّة التي أقامها في مصر حتّى فاجأته رحلة العودة

ـ اعتزاز الشّيخ ببلده ووطنه وذلك واضح في تعبيره (بالرجوع إلى الأهل والديار) .

وقال أيضا :" إنّ البشائر تدلّ على أنّنا اخترنا الثّانية، وإنّ المخايل تنبئ بأنّ شواعر الخير تنبّهت فينا ... "[3]، هذه فقرة مقتضبة من كلمة راقية تحدّث فيها الشيخ عن أسباب انحطاط الدول الإسلاميّة وأرجع السبب الرئيس لذلك بُعْد هذه الدّول عن هدي الكتاب والسنّة،

[1] ـ الخطيب التبريزي، شرح ديوان أبي تمام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 2، س 1994 م، ص 49 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 30 .
[3] ـ المصدر نفسه، ص 64 .

ثمّ عرّج إلى بشائر الخير التي تدلّ على العودة بعد الجفوة، والأوبة بعد الهجر، فكان سياق هذه الجملة، وقد استعمل في الدلالة على ذلك تلك الاستعارة الرقيقة التي تعبّر بصدق عن أمل ممزوج بالألم، وعن يأس يدافعه إيمان وعزم (وإن مخايل الخير تنبئ ..) والمخايل هي السُحب جاء في لسان العرب : " ... وفي التهذيب، المَخِيلة بفتح الميم السحابة وجمعها مخايل ..." [1] وسُمّيت بذلك لأنّ ناظرها يخال أنّها ستمطر، هذه الاستعارة التي حذف منها المشبّه به وهو المخبر أو الإنسان وجاء بأحد لوازمه (ينبئ) وذكر المشبه (مخايل) فهي من قبيل الاستعارة المكنيّة، وقد أضفت هذه الاستعارة جمالا للكلام ورونقا في النّظم، وأضافت معاني سكتت عنها اللّفظة المنطوقة، وخير الكلام ما قل مبناه وبورك في معناه فمنها مثلا :

ـ الحالة المزرية التي تعيشها الأمّة الإسلاميّة شرقا وغربا .

ـ الدّور الهام الذي يقوم به العاملون من أجل النّهوض بالأمّة .

ـ بشائر الخير التي تلوح في الأفق والتي تبشّر بغد زاهر .

ـ الأمل الذي يحرّك الهمم والألم الذي يدفع للعمل .

ـ لن يصلح آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أوّلها .

كل هذه المعاني وغيرها يضيفها الأسلوب الاستعاري إلى الكلام والذي يدفع بالمقابل إلى قوّة الاقناع ووضوح الحجّة والدليل .

وقال أيضا في موضع آخر : " مرّت عليّ وأنا في الجزائر عدّة أعياد في السنوات الأخيرة التي صرّح الشرّ فيها للعرب والمسلمين عن محضه فكنت ألقى تلك الأعياد بغير ما يلقاها به النّاس ... " [2]، هي كلمات نابعة من قلب حزين، وفؤاد مكلوم، وإن كانت المناسبة تقتضي الفرح والسعادة فالأعياد ما كانت إلا تجلية للقلوب، وتفريغا لها من الهموم والأحزان، ولكنّ الشّيخ يعبّر هنا عن ألم دفين وجرح عميق، وكأنّ العيد ما جاء إلا ليزيده ثقلا على حمله، ويضيف إليه همّا إلى همّه، يأتيه العيد ولسان حاله :

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 227 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 216 .

عِيدٌ بِأَيّ حَالٍ عُدتَ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرٍ فِيك تَجْديدُ

أمّا الأَحِبّةُ فالبيْدَاءُ دُونَهُـم فَلَيْتَ دُونَك بيدا دونَـــــهَا بِيدُ [1]

كلمات قالها قالها المتنبي يبكي أهله، ويرثي غربته، ولكنّ الإبراهيمي يبكي ما هو أجل وأعظم، يبكي الأمّة التي تفرّق شملها، وتصدّع صفّها، وانكسرت شوكتها، وأصبحت أمما وأحزابا كل حزب بما لديهم فرحون، حتّى ضاعت جلّ بلاد المسلمين، وضاعت مع ذلك فلسطين الحبيبة، وجاء الشّيخ بهذه الاستعارة اللّطيفة من أجل أن ينقل ما في قلبه من آلام ويعبّر عن حاله مع العيد (صرّح الشرّ فيها للعرب والمسلمين ...) فشبّه الشرّ بكائن ينطق ويصرّح (الإنسان) وحذف المشبه به، وذكر المشبّه (الشرّ) فهي استعارة مكنيّة والغرض منها هنا الآتي :

ـ بيان الحزن الذي كان يعتري الشّيخ أيّام العيد .

ـ قضيّة فلسطين التي كانت هوس الشيخ وتؤرّق مضجعه .

ـ توضيح المكائد التي تحاك للأمّة ولذلك قال : صرّح الشر .

ـ توضيح أنّ كل ما جاء به الاستدمار إنّما هو محض الشرّ وليس للخير فيه سبيل .

وجاء في المقالة نفسها :" ... وقد ماتت فلسطين وهي أعزّ شهيد وأحقّه بالحزن عليه فويحكم أهي أهون مفقود عليكم ؟ أم أن نخوتكم ماتت معها ... " [2]، لقد كانت قضيّة فلسطين تعني الكثير للبشير الإبراهيمي، ولا أدلّ على ذلك من كثرة كتابته عنها، وكثرة ذكرها في المؤتمرات والمحافل، فقد كانت قضيّة فلسطين همّا يؤرقه، وغصّة تجلده، وألما يكابده، كيف لا وقد شهد تسليمها لليهود، ورأى كيف بِيعَت بثمن بخس، ورأى شرذمة من اليهود يفعلون فيها الأفاعيل، فلا تمرّ مناسبة إلا وَلَهَج بذكرها، وأطنب في وصف حالها، ومن ذلك هذه المقالة التي خصّصها للحديث عن العيد، فما كانت فرحة العيد أن تكتمل في نفس الشّيخ والقدس تحت وطأة اليهود، ما كان له أن يفرح بالعيد وفلسطين الجريحة تعاني من غدر الأخ وخيانة الصّديق

[1] ـ أبو الطيب المتنبي، ديوان المتنبي، ص 506 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 217 .

وفقد المعين، وقد جاء بهذه الاستعارة التي تصف حالها وترثي وضعها، وتقدم صورة مصغرة عن الحالة المزرية التي وصلت إليها القضيّة الفلسطينيـّة (وقد ماتت فلسطين ...) وهي من الاستعارة المكنيّة التي ذكر فيها المشبّه (فلسطين) وحذف المشبّه به (كائن حي يموت ويحي كالإنسان) وأشار إليه بأحد لوازمه (ماتت) مع أنّ الشّيخ كان يكره وصف فلسطين بالشّهيدة، ويمكن أن نتصوّر العديد من المعاني التي تقدّمها هذه الاستعارة منها الآتي :

ـ أهمّية القضيّة الفلسطينية التي أفسدت على الشّيخ عيده .

ـ تخاذل الدول العربيّة والإسلاميّة تجاه القضيّة الفلسطينيّة .

ـ الظّلم والتّهميش الذي تعيشه فلسطين .

ولو استغنى الشّيخ عن هذه الاستعارة وقال مثلا : اليهود استولوا على فلسطين، ما كان لنا أن ندرك هذه المعاني، ولا أن نصل إلى هذه الدقّة في التعبير، والجمال في الوصف، والقوّة في المعنى .

وقال أيضا :" وكانت نتيجة النتائج لذلك كلّه أن أضعتم فلسطين وأضعتم معها شرفكم ودفنتم في أرضها مجد العرب وعزّ الإسلام وميراث الإسلام " [1]، مازال الشّيخ يتحدث عن فلسطين وعن تخاذل العرب والمسلمين عن نصرتها، فما أكثر التهديد والوعيد، والإزباد والإرعاد، وما أكثر المؤتمرات والجمعيّات ولكنّها غثاء كغثاء السيل لا تداوي جرحا، ولا تخفّف ألما، ولا تحرّك ساكنا، وما مثلهم إلا كالجبل الذي تمخّض فأنجب فأرا، وقد استعان الشّيخ بهذه الاستعارة حتّى يعطي صورة مُصغَّرة، وغيضا من فيض مما تعانيه فلسطين في ظلّ التخاذل العربي والإسلامي، فقال : (دفنتم في أرضها مجد العرب وعزّ الإسلام وميراث الإسلام) حيث شبّه مجد العرب وعزّ الإسلام وميراث الإسلام بالجثّة الصّالحة للدفن، وحذف المشبّه به (الجثة) وأشار إليه بأحد لوازمه (ودفنتم في أرضها) فهي من الاستعارة المكنيّة وقد لجأ الشّيخ إلى هذا النّوع من الاستعارة لما فيها من التّشخيص وإحياء المعاني فلو قال مثلا : لقد

[1] ـ المصدر السابق، ص 218 .

فقدتم مجد العرب، لما كان المعنى أجمل والدلالة أوضح والحجاج أعمق، ويمكن أن نفهم من جمال توظيف هذه الاستعارة الآتي :

ـ حاجة فلسطين إلى الدّعم العربيّ والإسلاميّ .

ـ انشغال الدول العربيّة والإسلاميّة بالمشاكل الداخليّة وإغفال القضيّة الفلسطينيّة .

ـ من أرقى أساليب الإقناع اللّعب على العاطفة ومخاطبة النّاس بما تميل إليه نفوسهم فقد خاطبهم الشيخ بالعربيّة والإسلام .

ـ اللجوء أحيانا إلى المبالغة في الوصف والتهويل من أجل التأثير والإقناع .

ـ هاجس القضيّة الفلسطينيّة يجب أن يُزْرَعَ في قلب كل مسلم وأن يتوارث الأجيال ذلك .

وفي موضع آخر يقول :" ... فهذه هي الصحائف التي رفعت الصوت بالحقّ، في زمن عمّ فيه الباطل، وبثّت النّور في أفق غمره الظّلام " [1]، يتحدّث الإبراهيمي في هذه الفقرة عن مجلة الإرشاد الكويتيّة التّى رفعت راية الإصلاح في زمن عمّ فيه الباطل وطمّ وتغيّرت فيه المبادئ والقيم، فكانت هذه الصّحيفة مثل أخواتها القلائل غرّة في جبين الزمان، وشاهد حقّ على العصر والأوان، وقد استعمل الشّيح هذه الاستعارة اللطيفة ليبيّن قيمة هذه الصّحف في ذلك الوقت فقال : " فهذه هي الصحائف التي رفعت الصوت بالحقّ " فشبّه بداية الصحائف بالكائن الحي (الإنسان) وحذف المشبه به وأشار إليه بأحد لوازمه (رفعت)، وشبّه أيضا الصوت بكائن حيّ أو بشيء يمكنه أن يرفع وحذف المشبه به (الكائن) وأشار إليه بأحد لوازمه (رفعت)، وشبّه الحقّ بشيء حسّي يمكن أن يرفع به وكل هذه الاستعارات مكنيّة حيث تمّ ذكر المشبّه وحذف المشبه به وأشير إليه بأحد لوازمه .

كما استعمل الشيخ إستعارة أخرى في الجملة نفسها : (وبثّت النّور في أفق غمره الظّلام) وهي من الاستعارة التصريحية، حيث شبّه الإصلاح الذي تقوم به المجلاّت وصرّح بالمشبه به وهو (النّور) والقرينة حالية تفهم من سياق الكلام، وهناك استعارة تصريحيّة أخرى حيث شبّه

[1] ـ المصدر السابق، ص 200 .

الأباطيل التي قذفها الاستدمار والجهالة التي تعيشها الأمّة بالظّلام، فصرّح بالمشبّه به (الظّلام) وحذف المشبّه والقرينة حالية أيضا .

فالملاحظ أنّ هذه الجملة البسيطة استعمل فيها الشّيخ خمس استعارات، وهذا يدل على قيمة الاستعارة في الكلام ومدى فاعليتها في الحجاج، ولا يمكن لكلام أدبي أو وعظ ديني أن يستغني عن الاستعارة لأنّها أداة جميلة من أدوات البيان ووسيلة راقية من وسائل الإقناع ومفتاح واسع من مفاتيح المعاني، وأداة فذّة من أدوات المباني، ولولا هذه الاستعارات التي ساقها الشّيخ لما كان هذا الجمال في العبارة، والحسن في الدلالة، والبراعة في الإشارة، والعمق في المعاني .

ومن جميل استعماله للاستعارة قوله : " أيظنّ الغافلون من الفريقين أنّ المعارك بيننا وبين الحكومة الاستعمارية في قضية المساجد والأوقاف انتهت بهذه الطريقة الهازلة الشوهاء التي تمخّض بها المجلس الجزائري ووضعها لأقصى أمد الحمل سقطا بعد آلام وأوجاع زاد في فضاعتها أنّ حمله بها كان عن سفاح " [1]، حيث يتحدّث هنا عن مطلب جمعيّة العلماء المسلمين الذّي يتمثل في فصل الدّين عن الدّولة، واستقلال المساجد، وعدم تدخلّ الحكومة في إدارتها، حتّى تترك للمسلمين حريّة التصرّف في أماكن عبادتهم، واختيار الأكفأ ممّن يرضون به من المشايخ والأئمة، وكان هذا المطلب من أهمّ ما نافحت عليه الجمعيّة، ودافعت من أجل تحقيقه وتطبيقه، فهي لم تكن ترض بمن تقدّمه الحكومة من أئمة يخدمون مصالح فرنسا ويسيرون وفق أجندتها، ولكنّ الحكومة قابلت كل هذه المطالب بالصّدود، وعارضت كل هذه الرغائب بالرّفض، فلم تهن الجمعيّة ولم تستكن، ولم تسالم ولم تهاود، وظلّت متمسّكة بأهدافها، رافعة راية الإصلاح ما اختلف الملوان، وجاء الشّيخ بهذه الاستعارة اللّطيفة حتّى يقدّم هذه الصّورة من الصّراع بين الجمعيّة والحكومة فقد شبّه المجلس الجزائري بالمرأة الحامل، التي طال حملها وكثر وجعها وزاد ألمها وبعد مخاض عسير وصبر طويل كان جنينها سقطا لا حياة له، ولا روح فيه، وحذف المشبه به وهو (المرأة الحامل)، وأشار إليه بأحد لوازمه (تمخضت)، وذكر المشبّه (المجلس) فهي من الاستعارة المكنيّة .

[1] ـ المصدر السابق، ص 257 .

ولقد قدّم الشّيخ هذا الصّراع بصورة رائعة وطريقة شائقة، وعبّر عن موقف المجلس بأسلوب ذكيّ وطرح راق من خلال هذه الاستعارة، فقد لخّصت الكثير من الكلام وأوجزت الكثير من التعابير وفتحت العديد من الفهوم وبسطت الكثير من الدّلالات، بيّن الشيخ من خلالها موقف الجمعيّة من الحكومة وإصرارها على مطالبها وجهادها الدّائم من أجل تحقيق أهدافها وسيرها المستقيم وفق مناهجها ومبادئها، وبيّن أيضا موقف المجلس المخزي من قضايا الأمّة والقطيعة الواضحة بين الجمعيّة والمجلس الجزائري .

وقال في مقام آخر: " أيّها الأبناء : إنّ أمّتكم تعوّل عليكم شرط أن تعدّوا أنفسكم إعدادا روحيّا لا بدنيّا، فإذا أشرقت أنوار الإسلام وغمرت هدايته كل المجتمع البشري، فإنّ هذا المجتمع سينعم بالخير العميم وتتحقّق له السّعادة في الدّنيا والآخرة " [1]، هي فقرة من خطبة ألقاها الشّيخ على شباب الإخوان المسلمين في العراق يتحدّث فيها عن دور الشّباب في حمل لواء الإصلاح والجهاد، وقد نشرت هذه الكلمة في مجلة الأخوة الإسلاميّة في بغداد تطرّق فيها إلى عدّة قضايا تهمّ الأمّة وعلى رأسها المنهج الرباني والدّستور الإلهي الذي وضعه خالق البشريّة ومدبّر أمورها والعالم بما يصلحها ويمنحها السّعادة، وقد استعمل الشّيخ في بيان ذلك استعارتين جميلتين تؤدّيان الغرض وتزيدان المعنى وتوضّحانه حيث شبّه في الاستعارة الأولى دين الإسلام بالشّمس التي لا تشرق على مكان إلا ملأته بالنّور والأنوار، وحذف المشبّه به (الشّمس) وأشار إليه بأحد لوازمه (أشرقت)، وشبّه في الاستعارة الثّانية هداية الإسلام بالماء الذي يغطّي كل شيء ويحيط به، وحذف المشبّه به وأشار إليه بأحد لوازمه (غمرت)، والغمر كما جاء في لسان العرب : " الغَمْرُ : الماء الكثير ابن سيده وغيره : ماء غمر كثير مُغَرِّقٌ بَيِّنُ الغمورة ... " [2]، فهما استعارتان مكنيّتان ذكر فيهما المشبّه وحذف المشبّه به، ويمكن أن نضع تحت هاتين الاستعارتين العديد من الدلالات والكثير من الفهوم منها :

- الرّسالة الروحانيّة التي ينبغي أن يتربّى عليها شباب الأمّة .

- صلاح الشريعة الإسلاميّة لكلّ زمان وكلّ مكان .

[1] - المصدر السابق، ص 210 .
[2] - ابن منظور، لسان العرب، م 5، ص 29 .

ـ سعادة الدّنيا والآخرة لا تكون إلا بإقامة الدّين .

ـ قوام الأمّة لا يكون إلاّ من خلال شبابها فهم ثروتها الحقيقيّة .

ـ الإصلاح يبدأ بالصّلاح ففاقد الشّيء لا يعطيه .

وقد كان الإبراهيمي يحسن توظيف الاستعارة فتأتي دائما مناسبة للمقام خادمة للمعنى من ذلك قوله : " والله هذه اللّغة الشريفة التي بلغ من ديموقراطيّتها أن تسعى هرولة إلى كل من يسعى إليها حبوا، والتي أفضت ظلّها وأفاضت نَهَلَهَا وعَلَّهَا حتّى على الإماء والعبيد وأكلة الكَبَاثِ والهَبِيد ثمّ تبَنَّت القرائح والألسنة من جميع الأجناس ..." [1]، ويتحدث في مقامه هذا عن اللّغة العربيّة وعن المكانة التي وضعها الله عزّ وجلّ فيها، وكيف أنّه سبحانه رفع بها أقواما وخَفَّض بها آخرين، من خدمها خدمته ومن أحسن إليها أحسنت إليه، ومن جاءها هرولة جاءت إليها تسعى، فجاء الشّيخ بهذه الاستعارات المتوالية حتّى يبيّن هذه الحقيقة ويُوضّح هذه المُسلّمة فقال : (بلغ من ديموقراطيّتها أن تسعى) فشبّه اللغة بالإنسان الذي يمارس الديمقراطية ويسعى، وحذف المشبّه به وأشار إليه بأحد لوازمه (تسعى هرولة) وشبّهها أيضا باللجّة العظيمة التي أفضت وأفاضت نهلها وعلّها : " النَّهَل أوّل الشُّرْب : ونقول أَنْهَلْتُ الإبلَ وهو أوّل سقيها، ونَهِلَتْ هِي إذا شربت في أوّل الورد ... يقال إِبِلٌ نَهْلى وعلَّى للتي تشرب النَّهَل والعَلَلَ " [2] وجاء في لسان العرب أيضا : " العَلُّ والعَلَلُ : الشربة الثّانية وقيل الشّرب بعد الشّرب تباعا، يقال عَلَلٌ بَعد نَهَل " [3]، وحذف المشبّه به وأشار إليه بأحد لوازمه (أفضت ظلّها وأفاضت نهلها وعلّها حتّى على الإماء والعبيد وأكلة الكباث والهبيد) قال صاحب اللّسان : " الكَبَاثُ : نضيج ثمر الأراك وقيل ما لم ينضج " [4]، وذكر ذلك كناية على الفقر والحاجة والخصاصة " الهَبَدُ والهَبِيدُ : الحنظل وقيل حبه، واحده هَبِيدَةٌ " [5]، ثمّ عاد مرّة أخرى وشبّه اللّغة بالإنسان

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 393 .
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 11، ص 680 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 467 .
[4] ـ المرجع نفسه، م 2، ص 178 .
[5] ـ المرجع نفسه، م 3، ص 431 .

الذي يمكنه أن يتبنّى (ثمّ تبنّت القرائح والألسنة) وحذف المشبّه به وأثبت المشبّه فكلّها من الاستعارات المكنيّة .

فالاستعارة إذا كانت في موضعها وحافضت على نظامها وشروطها أفضت إلى المعاني جمالا وأضافت إلى السحر بيانا، وربّما احتاج الشّيخ إلى صفحات حتّى يبيّن بعض ما جاء في هذه الجملة الصغيرة المبنى الواسعة الدلالة والمعنى، ومن هنا تكمن قوّة الحجاج من خلال استعمال الأسلوب الاستعاري .

2 ـ التّمثيل :

اختلف علماء الأدب ورجال البلاغة وأصحاب البيان في تحديد مفهوم التّمثيل، فمنهم من جعله من أقسام التّشبيه (التّشبيه التمثيلي) وجعلته طائفة من أنواع الكناية، وعدّته جماعة أخرى من أساليب الاستعارة (الاستعارة التّمثيلية)، ومردّ هذا الاختلاف إلى الخطوط الرفيعة التي تفصل بين هذه الأنواع فالاستعارة مثلا ما هي إلا تشبيه حذف أحد طرفيه، والكناية لا تختلف عن المجاز إلاّ من خلال حملها لصحة إراد المعنى الأصلي للكلام .

ـ التّمثيل : لغة :

جاء في لسان العرب تحت جذر (م ث ل) : " ... مِثْلُ : كلمة تسوية، يقال مِثْله ومَثَله كما يقال شِبْهُه وشَبَهُه ؛ قال ابن برّي : الفرق بين المماثلة والمساواة أنّ المساواة تكون بين المختلفين في الجنس والمتفقين، لأنّ التّساوي هو التكافؤ في المقدار لا يزيد ولا ينقص وأمّا المماثلة فلا تكون إلاّ في المتّفقين تقول : نَحْوُه كَنَحْوِه، وفِقْهُهُ كَفِقْهِه، ولَوْنُه كَلَوْنِه، وطَعْمُه كَطَعْمِه ... والمِثْل : الشِبْه، يقال مِثْل ومَثَل وشِبْه وشَبَه بمعنى واحد ... والمَثَلُ : الشّيء يُضرب لشيء مَثَلا فيُجْعَل مِثْلَه ... قال الجوهري : ومَثَلُ الشّيء أيضا صفته ... ومثّلت له كذا تمثيلا إذا صوّرت له مثاله بكتابة وغيرها " [1] .

[1] ـ ابن منظور ، لسان العرب، ج 11، ص 610 - 612 .

فالمِثْلُ والمَثَلُ هو الشّبه والصّفة والمساواة والشّكل، ومنه المماثلة والمشابهة، وقد عدّه صاحب المفردات في غريب القرآن من أهمّ الألفاظ وأعمّها التي وضعت للمشابهة : " المثلُ عبارة عن المشابهة لِغيْره في معنى من المعاني أَيَّ معنىً كان وهو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة " [1]، وذلك من حيث دلالة اللّفظ واتّساع المعني، وقد فسّر ذلك بقوله : " ذلك أنّ النّد فيما يشارك في الجوهر فقط، والشّبه فيما يشارك في الكيفيّة فقط، والمساوي فيما يشارك في الكمّيــة فقط، والشّكل فيما يشارك في القدر والمساحة فقط والمِثْل عــام في جميـع ذلك " [2]

ولقد فرّق الرّازي بين المِثْل بِكَسر الميم والمَثَل بفتحها : " بأنّ المِثْل هو الذي يكون مساويًا للشيء في تمام الماهية، والمَثَل هو الذي يكون مساويا له في بعض الصّفاة الخارجة عن الماهية "[3]، وهو الذي أيّده ابن العربي : " فالمحقّقون على أنّ المِثْل (بالكسر) عبارة عن شبه المحسوس، وبفتحها عبارة عن شبه المعاني المعقولة " [4] وقد خالفهم في ذلك الزمخشري الذي جعل المِثْل والمَثَل بمعنى واحد : " المَثَل في الأصل بمعنى المِثْل، أي النظير ؛ يقال مَثَل ومِثْل ومَثِيل كشَبَه وشِبْه وشَبِيه " [5]، ومناط هذا الخلاف إلى السياق الذي وردت فيه كلّ كلمة واختلاف دلالة كل منها في بعض كلام العرب، وقد أعطى الزركشي مثالا على ذلك بقوله " وقال غيره : لو كان المِثْل والمَثَل سيّان للزم التنافي بين قوله : ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ** ﴾ (سورة الشورى، الآية 11) ، وبين قوله : ﴿ **وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (سورة النحل، الآية 60) ، فإنّ الأولى نافية له والثّانية مثبتة له " [6]، والحقيقة أنّ السياق له سلطانه واختلاف الدلالة لاختلاف القصد له حكمه، يقول الزركشي معلّقا على مذهب الرازي : " وما قاله من أن المِثْل والمَثَل بمعنًى ينبغي أن يكون مراده باعتبار الأصل وهو الشبه " [7]، وسواء كان المِثْلُ والمَثَلُ بمعنًى واحد أو لكلٍّ منهما دلالته ومعناه فإنّهما يتّفقان في الدلالة على المشابهة والمماثلة، وليس القصد من ذلك الدلالة على التساوي بين المثيلين في كل شيء وإلاّ

---

[1] ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، بد ط، بد س، ص 462 .
[2] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة، بيروت، ط 2، س 1972، م 1، ص 491 .
[4] ـ المرجع نفسه، ص 490 .
[5] ـ المرجع نفسه ص 490 .
[6] ـ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، م 1، ص 490 .
[7] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

كان الثّاني عين الأوّل، وإنّما التشابه يكون في بعض الخصائص والصفات، فعندما نقول (مرسلي) مثل الفهد نقصد بذلك المشابهة في الخفّة والسرعة لا مطلق التشابه .

نستنتج ممّا سبق معنى التّمثيل وهو عقد مماثلة بين صورتين وتشبيه بين شيأين يتّفقان في صفة معيّنة أو وجه واضح أو خاصيّة محدّدة، جاء في لسان العرب : " مثّل الشّيء بالشّيء سوّاه وشبّهه به وجعله مثله وعلى مثاله " [1] .

ـ التمثيل اصطلاحا :

لم يتفق علماء الأدب على تحديد معنى واضح للتّمثيل واختلفوا في تحديد مفهومه وتباينوا في تحديد الجهة التي ينتمي إليها وهذه بعض آرائهم :

ـ قال ابن رشيق في العمدة : " ومن ضروب الاستعارة التّمثيل وهو المماثلة عند بعضهم وذلك أن تمثّل شيئا بشيء فيه إشارة " [2]، فقد عدّه من قبيل الاستعارة وأحد فروعها وضروبها، وأشار إلى الخلاف حول معنى التّمثيل بقوله : (وهو المماثلة عند بعضهم) وفي هذا دلالة على عدم اتفاق علماء الأدب في تصنيف التّمثيل، بل والأغرب في الأمر أنّ ابن رشيق ساق تعريفا آخر للتّمثيل في الكتاب نفسه جاء فيه : " التّمثيل والاستعارة من التّشبيه، إلا أنّهما بغير أدواته وعلى غير أسلوبه " [3]، حيث جعله ضربا مستقّلا يوازي الاستعارة، ويدخل تحت طائلة التّشبيه، ويختلف عنه فقط في الأدوات والأسلوب .

ـ وقد عدّ الرازي التّمثيل من الكناية : " وقد ذهب قوم أنّ الكناية تنقسم أقساما ثلاثة : تمثيلا وإردافا ومجاورة، فأمّا التمثيل فهو أن تراد الإشارة إلى معنى، فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك مثالا للمعنى الذي أُريدَت الإشارة إليه " [4] والظّاهر من كلام الرازي الخلط بين تعريف الكناية وتعريف التّمثيل حيث يتّضح أنّه لا يفرق بينهما ويُلمس ذلك من خلال الشّاهد الذي

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، ص 613 .
[2] ـ ابن رشيق المسيلي، العمدة، ص 168 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 170 .
[4] ـ ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة صر، بد ط، بد س، ص

ساقه كصورة عن التمثيل : " كقولهم فلان نقيّ الثوب : أي منزّه من العيوب " [1]، وهذا من أساليب الكناية كما هو معروف عند علماء الأدب وشائع عند دارسيه .

ـ أمّا عبد القاهر الجرجاني لم يقف على تعريف واضح ومحدّد للتّمثيل مع أنّه تحدّث عليه في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، فمن خلال ما ذهب إليه من مناقشته يوحي أنّه يجعل التّمثيل قسما خاصّا غير التّشبيه والاستعارة، فقد أطال الحديث عنه حين فرّق بينه وبين التّشبيه، وبينه وبين الاستعارة، ووضع له قواعد يصعب تقصيها، وضوابط تُجهِد دارسيها تخضع في الغالب إلى بعد النظر، وقوّة الفطرة، وسعة العلم، وبديهة الفهم، يقول في كتابه أسرار البلاغة : " ولئن كان الذي نتكلّف شرحه لا يزيد على مؤدّى ثلاثة أسماء، وهي : التّمثيل والتشبيه والاستعارة، فإنّ ذلك يستدعي جملا من القول يصعب استقصاؤها، وشعبا من الكلام لا يستبين لأوّل النّظر انحناؤها " [2]، وهذا اعتراف ضمني من الجرجاني . وهو من هو . على صعوبة التّفريق بين هذا الأنواع الثّلاثة، ويتّضح ذلك من خلال تفريقه بين التّشبيه والتّمثيل حيث خلص إلى قوله : " فاعلم أنّ التشبيه عام والتّمثيل أخصّ منه، فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلا " [3]، فالظّاهر من كلامه أنّ التّمثيل قسم من التّشبيه وفرع عنه .

ـ وجعل القزويني التّمثيل هو المجاز المركب : " وأمّا المركب فهو اللّفظ المستعمل فيما شبّه بمعناه الأصلي تشبيه التّمثيل للمبالغة، كما يقال للمتردّد في الأمر : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، وهذا يسمى **التّمثيل** على سبيل الاستعارة، وقد يسمى **التّمثيل** مطلقا " [4]، فهو ينفي بذلك عدّه من التشبيه التّمثيلي، ويرى نسبته إلى الاستعارة أقرب .

والحقيقة أنّ البحث في تصنيف التمثيل باب واسع، وبحر شاسع، ولا يمكن وضعه في قسم واضح لاختلاف نظرة الأدباء إلى الوجه الذي قيس عليه، غير أنّ إجراءاته قد تشكل شبه إجماع لدى الأدباء، ودلالته متقاربة تكاد توصل إلى المقصود نفسه، وأقرب تقسيم وأنفعه

---

[1] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .
[2] ـ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 261 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 95 .
[4] ـ القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ص 320 - 322 .

أن يقال : التّمثيل قسم غير التّشبيه والاستعارة وهو أقرب إلى الاستعارة منه إلى التّشبيه، ولا مشاحّة في الاصطلاح ما دام المقصود نفسه فماذا يقصد بالتّمثيل :

ـ قال قدامة بن جعفر : " التّمثيل أن يريد الشّاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاما يدل على معنى آخر، وذلك المعنى الآخر والكلام منبئان عمّا أراد أن يشير إليه " [1]، ومثال ذلك أن يقال فيمن يتردد بين أمرين، ولا يقف على رأي، ولا يصل إلى قرار : مالي أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، إذ ليس المقصود تقديم الرجل وتأخيرها، مع أنّ هذا هو المعنى الموضوع، وإنّما المقصود نقل تلك الحيرة في نفس المتردد وهو المقصود من الكلام .

أو هو كما عرّفه عبد القاهر الجرجاني : " وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أن المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو أولى بأن يسمّى تمثيلا، لبعده عن التشبيه الظاهر الصّريح، ما تجده لا يحصل لك إلاّ من جملة من الكلام، أو جملتين أو أكثر، حتّى إنّ التشبيه كلّما كان أوغل في كونه عقليا محضا كانت الحاجة إلى الجملة أكثر " [2]، وقد وضع الجرجاني من خلال هذا التعريف شرطا رئيسا للتّمثيل، وهو كونه يقع في تركيب أي جملة من الكلام، ولا يكون مفردا وإلاّ كان تشبيها، فالمماثلة هنا تكون بتركيب قد وضع في الأصل لمعنى معين ثمّ أريد به معنى آخر لقرينة دالة، ولذلك عرّفه صاحب جواهر البلاغة : " هو تركيب استعمل في غير ما وضع له، لعلاقة المشابهة، مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي، بحيث يكون كلّ من المشبّه والمشبّه به هيئة منتزعة من متعدّد " [3]، كأن تقول لمن رأيت منه مجموع خصال مذمومة (أحشفا وسوء كيلة) وصاحب هذا المثل رجل اشترى كيلة من التّمر جمعت بين سوء الكيل وسوء النّوع، فصارت مثلا يقال لكل من جمع خصلتين أو مجموع خصال مذمومة، والقرينة هنا حالية تفهم من سياق الكلام لاستحالة إرادة المعنى الأصلي، ومثاله أيضا كأن ترسل شخصا لمهمة فيرجع خائب الرجاء صفر اليدين فتقول له أو يقول لك : (رجعت بخفّي حنين)، فهو لا يقصد حنينا ولا أخفافه، وإنّما يقصد تشبيه الحالة بالحالة، فحالة من رجع من مهمّة صفر

[1] ـ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح كمال مصطفى، مكتبة المثنى، بغداد، ط 1، س 1963، ص 181 .
[2] ـ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص 108 .
[3] ـ أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع،مؤسسة هنداوي سي آي سي، المملكة المتحدة، بد ط، س 2017، ص 317 - 318.

اليدين تشبه حالة الأعرابي الذي عاد إلى قومه وقد كانوا ينتظرون قدومه ويرجون بضاعته بخفّي حنين بعد أن تعرّض إلى الخديعة .

ويفهم مما سبق أنّ التمثيل يشبه الاستعارة، ويختلف عنها في أنّ اللّفظ المستعار يكون مركّبا يستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح اللّغة، للمشابهة بين المعنى الأصلي والمعنى الذي وضع له، مع وجود قرينة تنفي إرادة المعنى الأصلي .

ـ التّمثيل عند البشير الإبراهيمي :

ومن أمثلة استعمال الإبراهيمي للتمثيل قوله :" إخواني : إنّ كل من كتم داء قتله، وما دمنا ونحن بمعزل عن الحقائق وفي صمم عن استماع النصائح فنحن بعداء عن الحقّ " [1]، لقد بدأ الشيخ كلامه بمثال ليبيّن مقاله ويعضّد رأيه (من كتم داءه قتله) والذي دفعه إلى ذلك تشابه الحال، وتماثل الأحوال، فالذي يكتم داءه ولا يصرح به إلى قريب، أو إلى شيخ أو طبيب يوشك داءه أن يهلكه، فربّما لو فعل ذلك لوجد عند الطبيب الشفاء، ولوجد عند القريب أسباب البقاء، فالإبراهيمي كان يحمل هموم الأمّة، ويقاسي من دسائس الاستدمار ويعاني من غدر أبناء الدار، فلابد أن يحدّد مواطن الألم ومواضع الدّاء، ليتقاسم مع إخوانه العلماء تبعة الأمانة، ويتعاونوا على حمل الحِمْل، ولذلك لمّا ساق المثال كان كلامه أقرب إلى الصواب وأدعى إلى التصديق والقبول للمشابهة القائمة، والمماثلة الواضحة ويمكن أن يُفهَم من مماثلته الآتي :

ـ الاعتراف بالحالة المرضية التي تعاني منها الأمّة والتي ينبغي الكشف عنها ومحاولة البحث لها عن الدّواء الناجع .

ـ عدم الاعتراف بالحقائق منقصة يلزم التخلّص منها .

ـ مشاركة هموم الأمّة يخفّف الحمل على الفرد ويسهم في البحث عن الحلول .

ـ الأمّة التي لا تبحث مكامن دائها يوشك أن يهلكها المرض وتقضي عليها الآفات .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 56 .

ـ المصالحة لا تكون إلا بعد المصارحة، والإصلاح لا يكون إلا بعد معرفة أماكن العلل ومواطن الزيغ والزّلل .

ويقول في موضع آخر : " يا قوم، أظهروا ما تجمعون به وتعالوا نتساقط على الكّيف لا على الكمّ كما تريدون ونحن تسعة كما تقولون وأنتم تسعة آلاف ... فيوشك إن فعلتم أن لا يسقط منّا اثنان حتّى تسقطوا جميعا، لأنّ نسبتكم من العمل الذي تدّعونه نسبة الزؤان من القمح، وعند الغربال الخبر اليقين، إنّها لخدعة الصبي على اللّبن كما يقول عليّ كرم الله وجهه " [1]، لقد كان هذا الكلام موجها إلى طائفة من النّاس يدّعون أنّهم أنصار السنة، وأرباب الإصلاح وكانوا يتّهمون جمعيّة العلماء بالجهل ومخالفة السنّة، وبترويج الأفكار المُفرِّقة والمبادئ المُضلِّلة، فدعاهم الشّيخ إلى تحكيم السنّة التي يدّعون نصرتها، وإلى التقاضي إلى كتاب الله الذي يدّعون حفظه وتطبيقه، ثمّ يتركوا الحكم بعد ذلك لأصحاب العقول السليمة، والفطر المستقيمة، فلا شك من أنّهم سيتساقطون أمام الحقّ، وسيفضحون أمام العدالة، وسيتلاشون كما يتلاشى الدّخان أمام الريح العاصف، فجاء الشّيخ بهذا التّمثيل العجيب، والتصوير الماتع ليثبت هذه الحقيقة، ويقرّ هذا الحكم، فالغربال كفيل من أن يميّز بين جيّد القمح ورديئه،وبين زُؤَانه وصحيحه، والزؤان كما جاء في لسان العرب : " حَبٌّ يكون في الطعام، واحِدَتُه زُؤَانَة والزُؤَان أيضا رديء الطعام وغيره، والزُؤَان الذي يخالط البُرَّ، وهي حبّة تُسكر وهي الدِنْقَة أيضا " [2] .

ولذا يقال لمن لا يفرّق بين الصالح والطالح (لا يفرق بين زؤان وقمح) والذي دعا الشّيخ إلى تمثّل هذه الحالة المشابهة، فكما يحتاج القمح إلى غربلة لأنّ فيه الفاسد والصالح كذا العلماء يحتاجون إلى غربلة لأنّ فيهم الفاسد والصالح، والغربال الذي يدعو إليه الشيخ إنّما هو غربال الحقّ والعلم، والكتاب والسنّة، وسبيله في ذلك المحاججة والمغالبة، والبرهنة والتدليل، ثمّ تَرْكُ الحكم بعد ذلك إلى عامّة النّاس لأنّ الحقّ واضح أبلج، وسيظهره الله عزّ وجلّ كما تظهر الشّمس في السماء الصّافية عند الزّوال، وكلما كان العمل خالصا لله كان أدعى

[1] ـ المصدر السابق، ص 126 .
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، م 10، ص 193 .

إلى القبول بين النّاس، ثمّ ختم قالته بـ : (إنّها لخدعة الصبيّ على اللّبن كما يقول علي كرم الله وجهه) وهذا جزء ختم به علي . رضي الله عنه . خطابا كان قد أرسله إلى معاوية . رضي الله عنه . ردّا على كتاب أرسله الأخير إليه يدعوه فيه إلى المصالحة بعد أن حمّله بعضا من دماء صحابة رسول الله . صلّى الله عليه وسلّم .، فقال علي . كرّم الله وجهه . : " وأمّا تلك التي تريد فإنّها خدعة الصبيّ عن اللبن في أوّل الفصال " [1].

وهذه عادة قديمة يلجأ إليها العرب من أجل فِطام أولادهم، حيث تضع المرضع شيئا مرّا كالقطران مثلا على حلمة ثديها، فإذا وضع الرضيع فمه على الثدي تذوق المرارة فينكر الثدي والرضاعة، وهذا مثل يضرب لمن أراد صرف أذهان النّاس عن شيء مهم بشيء تافه، وقد ساقه الشيخ هنا ليُوضّح أمرًا مهمّا وغاية عظيمة، فجلّ ما يعتمده دعاة الضّلال وجنود إبليس هو تزييف الحقائق، ونشر الأبَاطيل وإثارة الشبه، وإشاعة الأراجيف، وكل ذلك فعله من يسمّون أنفسهم أنصار السنّة، حتّى يثنوا جمعية العلماء عن الإصلاح المنشود والتربية المرجوة، ذلك أنّ أهل الدعوة في ذلك الوقت انشغلوا بالصّالح الخاص عن العام، وبالحضوة التي كانوا يتمتعون بها عن هموم الوطن والأمّة، فلمّا جاءت الجمعيّة أماطت اللثام عن الحقيقة، وكشفت القناع عن الانتهازيّين، فأدركوا خطرها، وعلموا تأثيرها، فظاهروا لها العداء، وتربّصوا بها الدوائر، فَذَكَّرهم الشيخ بهذا المثل حتّى يبيّن لهم أنّ جهودهم ذهبت هباء، وعملهم ذهب عناء، ولن يستطيعوا أبدا أن يستروا الحقيقة الواضحة، ولا أن يحجبوا المنهج المستبين، وما كان إرجافهم وتدليسهم إلاّ كالشّيء المرّ اليسير التي تضعه المرضعة على ثديها لتخفي به حلاوة الحليب، والزمن كفيل بغسله والأيّام كافية لإزالته، وما الجمعيّة إلاّ كالأمّ الحنون التي يهمّها غذاء ولدها، وسعادة ابنها ولن توقف عنه حليبها حتّى تسلمه للأكل، وقد قوي بدنه واشتدّ سوقه، واستغنى بلذيذ الطعام عن لذيذ الحليب، و بطيب الأكل عن شرب الماء، ولا شك أنّ استعمال الشّيخ للتّمثيل زاد المعنى قوّة، وأضفى عليه جلالة ومهابة، وملأه إيحاء ورهبة، وهذا مناط الحجاج وغرضه ومقصد التأثير وغايته .

[1] ـ الشريف الرضي، نهج البلاغة، تح قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات، بغداد، ط 1، س 2010، ص 608 .

ويضيف في موضع آخر : " أرأيت أيها القارئ كيف لعبت التّصاريف بأخينا المؤلّف حتّى أوقفته تحت المثل : لا مَاءَكِ أَبْقَيْتِ ولا حَرَكِ أَنْقَيْتِ " [1]، جاء هذا التعليق من الشّيخ على كاتب مغمور تابع للمدرسة الفرنسية ألّف كُتَيِّبًا سمّاه السعادة الأبديّة، جاء فيه بمجموعة من خوارق العادات التي تنسب لبعض الصالحين، وبعض النّقول التي جمعها من مختلف الكتب، حيث لا تجد للكاتب فيها تعليقا ولا تعقيبا، ولا شرحا ولا تأويلا، فعاب الشّيخ عليه ذاك ولامه على إضاعة وقته في نقل هذا الحشو من الكلام الذي لا يسير بالأمّة ولا ينهض بها، بل بالعكس يقودها إلى الخمول، ويسحبها إلى الكسل ويعوّدها على الرضا بالدّون، وقصّة هذا المثل : " أنّ رجلا كان في سفَر ومعه امرأته، وكانت عَارِكًا فَطَهُرَتْ، وكان معها ماء يسير فاغتسلت، فلم يكن يكفها لغسلها وأنْفَذَتِ الماء فبقيا عطشانين، فعندها قَال لها هذا القول " [2]، ومعنى عاركا أي حائضا، جاء في لسان العرب : " العَرَاكُ الحيض ... ونساء عوارك : أي حيّض " [3].

فالشيخ شبّه حالة الكاتب المغمور بحال هذه المرأة التي أنفذت ما عندها من الماء الذي تحتاجه من أجل الشّرب محاولة الاغتسال من درنها فلا هي أبقت الماء، ولا هي أكملت الغسل، وكذا حال الكاتب الذي أنفذ وقته في كتابة هذا المصنف فلا هو انتفع بوقته ولا هو أفاد الأمّة، وربّما لجأ الشّيخ إلى هذا المثل تهوينا للكاتب واحتقارا لما جاء به، ومبالغة في انتقاده، لأنّه أضاع له وقتا ثمينا في قراءة كتابه، وأضاع له جهدا كان يستحقّه في تنشيط ذاكرته، ولكي لا يجلب له التعاسة الدائمة لم يبخل على قرّاء البصائر بهذه النصيحة حتّى لا يضيع عليهم ما ضاع عليه، وكان سوق الشّيخ لهذا المثل أوضح في الإقناع وأبلغ في الحجاج وأدلّ على ما في نفس الشّيخ من الندم لقراءته هذا المصنّف .

ويواصل في المقال نفسه قائلا :" تنازعني هذه الخواطر قبل أن أفتح الكتاب، وكاد سوء الظنّ يغلب فأرميه وأحكم عليه بالسخافة حكما معجّلا، ولكنّني ذكرت المثل : إنَّ الجوَادَ عَيْنُهُ فُرَارُهُ، ففتحت الكتاب فبدأت الجهالات تتوالى، فاعتصمت بالصّبر وألزمت نفسي بقراءته كلّه

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 218 .
[2] ـ أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ج2، ص 217 .
[3] ـ ابن منظور، لسان العرب، م 10، ص 467 .

من شفقه الغارب، إلى فجره الكاذب " [1]، فهو يتحدث عن الكاتب نفسه، لم يشأ أن يحكم عليه من عنوان الكتاب الدّال بداية على جهل صاحبه، وعلى الغرر الكامن فيه محاولة لاستدراج القرّاء، فقد عنونه صاحبه بـ : السعادة الأبديّة لأبي مدين ...، ثمّ أعقبه بذكر اسمه، فتوهّم الشيخ للوهلة الأولى أنّ الكتاب لأبي مدين مع علمه أنّ أبى مدين لم يترك كتابا ولا مؤلّفًا، فلمّا قرأ اسم المؤلف أصبحت تتنازعه الخواطر عمّا يحتويه هذا الكتاب، وعن العلم الجديد الذي جاء به وعن المؤلّف وعلاقته بمن دار عليه مدار التأليف، فاستعمل الشّيخ هذا التّمثيل ليحدّثنا عن الدّافع الرئيس الذي جعله يكمل قراءة الكتاب (إنَّ الجوَادَ عَيْنُهُ فُرَارُهُ) : " الفِرار بالكسر: النظر إلى أسنان الدابة لتعرُّفِ قدر سِنِّها، وهو مصدر، ومنه قول الحجاج "فُرِرْتُ عَنْ ذكاء ويروى فُرَاره بالضم، وهو اسم منه " [2]، وقد استعمل الشيخ هذا التمثيل معكوسا حيث يطلق عادة لمن يدل ظاهره على باطنه فيستغني بذلك عن اختباره، فإذا كان قد عرف ما في الكتاب قبل قراءته من خلال عنوانه كما يعرف الجواد من خلال أسنانه فقط، فهذا أدعى ألاّ يقرأ الكتاب أصالة، ولكنّه عاكس المثل حيث جعل الكتاب كلّه فرارة يعرف من خلالها ما فيه من علم، وما يحمله من أفكار، وحتّى لا يظلم الكاتب، ويعطيه حقّه من النقد كاملا غير منقوص، دون تسرّع في الحكم، ولا غلوّ في الرأي، فكان هذا التّمثيل ناقلا صادقا للحالة التي كان يعاني منها الشيخ، والخيبة التي لقيها بعد قراءة الكتاب، وقد وظّفه بطريقة تشهد على بلاغته، وتدلّ على سليقته، وتوضّح تمكّنه من زمام اللغة .

ويواصل في موضع آخر استعمال التمثيل : " وقد قلنا في طالعة هذه الكلمة ولا زلنا نقول أنّ الحادثة مكيدة، ونحن قوم ندين بالقرائن كجميع العقلاء، ونؤمن بالمثل : لا دخان بلا نار " [3]، يتحدث في هذه الفقرة عن المكيدة التي حِيكت ضدّ الشّيخ الطيب العقبي، الذي ألقي في السجن بتهمة تصفية الشيخ كحّول، حيث قُتِل بيد مجرم يقال له عكاشة يدّعي أنّ الشيخ الطيب العقبي هو من أوعز له ذلك مقابل ثلاثين ألف فرنك، فتمّ اعتقال الشيخ وأغلق نادي الترقّي، وتمّ إضافة إلى ذلك تفتيش أوراق الجمعيّة ومصادرتها، وتضييق الخناق على قادتها

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 213 .
[2] ـ أبو الفضل الميداني، مجمع الأمثال، ج 1، ص 9 .
[3] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 1، ص 270 .

ومنع بعض نشاطاتها، ولكن بعد فترة وجيزة ظهرت براءة الشّيخ العقبي فعقّب شيخنا على هذه الحادثة مثبتا براءة الجمعيّة من هذه الأفعال الشنيعة، لأنّ هذا ليس سبيلها وليس من مبادئها وأخلاقها، إنّما تحاجج بالعلم وترد الرأي بالرأي .

جاء الشيخ بهذا التّمثيل حتّى يبيّن بُعد الشيخ الطيب العقبي عن هذا العمل، وأنّه بريء منه براءة الذئب من دم يوسف، وأنّ وراء هذا العمل كيد حاسد، أو غدر خائن، أو مصلحة غاصب، دلّ على ذلك القرائن المصحوبة، والدلائل المتروكة، فإذا كان الدخان لا بد له من نار هي سببه، فكذا إلصاق هذه التهمة بهذه الطريقة الغريبة يكشف المكيدة التي حيكت والمؤامرة التي دُبّرت وكأنّه دخان دلّ على نار أشعلت بيد شخص يريد من ورائها النّيل من الجمعيّة وضربها في مقتل، لأنّ الشيخ الطيب العقبي عضو ناشط من مؤسّسيها، وقائد من قادتها وعلم بارز من علماءها، ولكن قد تكون العطيّة في البليّة والمنحة في المحنة فما كادت هذه الأزمة تمرّ حتّى شاع اسم الطيب العقبي وذاع صيته، وأصبح معروفا داخل الوطن وخارجه، وممّا يشهد للشّيخ البشير حسن استعمال التّمثيل فلا يأتي به إلّا إذا كان زيادة في المعنى وقوّة في البيان، وتفرّدا في الحجاج، وسلاسة في الإقناع .

ومن ذلك قوله :" تواضع النّاس على أنّ مدح المرء لنفسه ذمّ، وتندّر العرب في ذلك بالكلمة السّاخرة : مادح نفسه يقرئك السلام، وتواضعوا أن إطراء المرء لولده ذمّ، فإنّ لم يكن ذمّا فهجنة، وإن اعتذر عن ذلك بعض النّاس الخارجين عن القياس بأنّ هذا من مقتضيات الفطرة " [1]، ويقصد بحديثه الفضيل الورتلاني أحد علماء الجمعية الذين تدرّجوا في مدارسها حتّى أصبحوا شيوخا تشدّ إليهم الرّحال وتضرب إليهم أكباد الإبل، وكان الشيخ يعتقد أنّ الفضيل جزء منه، وبقيّة صالحة من عمله، ولذلك جاء بهذا التّمثيل الرائع حتّى يشعرنا بأمرين :

ـ قرب الشيخ من الفضيل الورتلاني وحبّه له واحترامه الكبير لشخصه وتقديره لعلمه وتأثّره بشخصيّته .

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 247 .

ـ سعة العلم التي يتمتّع بها الفضيل الورتلاني والتي جعلته في مصاف العلماء وأجلسته مع قادة الجمعيّة حتّى أصبح رمزا من رموزها .

فالشيخ ساعة يتحدث عن الفضيل الورتلاني وكأنّه يتحدث عن نفسه، أو يتحدث عن ولده ولذلك جاء بهذا المثل (مادح نفسه يقرئك السلام)، فكان التمثيل في أرقى صورة، وفي أجمل عبارة، وفي أكمل تصوير، وفي أروع تدليل، فأنت تحس فعلا أن الورتلاني هو جزء من الشيخ أو بقيّة صالحة منه، بل كان الورتلاني شاهدا حيا على نجاح الجمعيّة في المسعى الأخلاقي والتربوي، وحجّة قائمة على الجهود التي تبذلها خدمةً للدّين والوطن، ولذا كان الشّيخ يعتز به، ويفتخر به في المجالس وكان يقول عنه : (المرء مفتون بولده) [1]، وعلى المنوال نفسه كان اعتزاز الفضيل الورتلاني بشيخه وافتخاره به، وكان تأثير عبد الحميد بن باديس والإبراهيمي ظاهرا في سمته، واضحا في أقواله وأفعاله .

ومن التّمثيل أيضا قوله : " فجاء جواب الأستاذ يثنيني عن تلك العزيمة بأسلوب من الرأي أخذ نفسي أخذة السّحر ومسح منها تلك العزيمة المصمّمة مسح السّوافي للرسوم وبثّ وفي النّفس همّ يعتلج فأصبحت بفعل تلك الرّسالة أو بفضلها صاحي القلب من تلك الدّواعي كلّها " [2]، يتحدّث الشّيخ في هذه الفقرة عن كتاب كان قد أرسله إليه الفضيل الورتلاني بعد أن أخبره الشّيخ بنيّته في التخلي عن الجمعيّة واستقالته من رئاستها، والانشغال بالكتابة والتأليف فأرسل إليه الفضيل هذا الكتاب ليثنيه عن عزيمته، ويقنعه بالعدول عن رأيه، فكان وقع الكتاب في نفس الشيخ كالبلسم الذي يداوي الجروح، والدواء الذي يعالج القروح، فمثّل الشيخ حالة تأثره بالكتاب وفعلته فيه كالرّسم على الرّمال الذي جاءته ريح محملة بذرّاته فلم تترك للرّسم معنى، ولم تدع له أثرا، والمتأمّل لهذا التمثيل يجد فيه لمحة من الجمال الأدبي ولمسة من التصوير الفني تغنيك عباراته عن كثير النّظم، وتكفيك ألفاظه عن وفير الكلمات، فالشّيخ قد كان في حالة متعبة أثرت فيه السّنون، وأتعبته الأيّام، وأثقلته الهموم، حتّى دفعته إلى التفكير في ترك أعمال الجمعيّة، فسخّر الله له الفضيل ليعطيه من عزيمته، ويقذف في روعه شعلة

[1] ـ المصدر السابق، الصفحة نفسها .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 337 .

من النشاط، صحى منها قلبه، وجدّد بها همّته، لأنّ النّفوس المؤمنة لا تحتاج إلاّ إلى إشارة خالصة، أو كلمة صادقة، أو لفتة طيّبة، حتّى تستعيد نضارتها وتستردّ نشاطها ومن عجيب ما حكاه الشّيخ في مثل هذا الموقف كلمة قالها له عبد الحميد بن باديس يوما وقد فكّر في الهجرة إلى الخارج وعقد العزم على ذلك قال له بعد أن أطرق ساعة : " إنّ خروجك يا فلان أو خروجي يكتبه الله فرارا من الزحف " [1]، يقول الشّيخ مُعقّبا على أثر هذه الكلمة في نفسه: " فوالذي وهب له العلم والبيان لقد كانت كلمته تلك شؤبوبا من الماء صُبّ على لهب " [2]، والشؤبوب كما جاء في لسان العرب : " الدفعة من المطر وغيره " [3]، فسبحان من ألهم العلماء هذا السرّ وأعطاهم هذا الفضل .

2 ـ البديع :

أو ما يعرف بالمحسّنات البديعيّة، وهي نوع من التلاعب بالألفاظ والأوزان والإيقاع، تُكسِب الخطاب جمالا، وتزيده حسنا وبهاء، عرّفه القزويني بقوله : " علم يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة " [4]، فدوره إثراء المعنى وتعميق الدلالة، ولفت الانتباه وزيادة الإقناع، وذلك حسب مقتضى حال المتلقّي سواء من الثقافة، أو من الميول والهوى، أو من العادة والأعراف، فهذه مجتمعة أو متفرّقة تدفع الخطيب إلى أن يختار كلماته وينتقي ألفاظه ليقدّم المعنى في أحسن صورة وأبهى طلّة، قال ابن خلدون : " وهو النظر في تزيين الكلام وتحسينه بنوع من التنميق، إمّا بسجع بفضله، أو تجنيس يشابهه بين ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه، أو تورية عن المعنى المقصود بإيهام معنى أخفى منه لاشتراك اللفظ بينهما، أو طباق بالتقابل بين الأضداد وأمثال ذلك " [5].

وقد تحدّث ابن خلدون في تعريفه هذا عن أشهر أنواع البديع الذي اختلف في تحديد أنواعه علماء اللغة بين مقصّر ومنصف ومغال، حيث أوصلها بعضهم إلى أكثر من مئة

---

[1] ـ المصدر السابق، ص 338 .
[2] ـ المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
[3] ـ ابن منظور، لسان العرب، م1، ص 479 .
[4] ـ القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ص 349 .
[5] ـ ولي الدين عبد الرحمان بن محمد بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط 1، س 2004، ج 2 ص 374 - 375 .

وأربعين نوعا ونظّموا في ذلك ما يعرف بالبديعيّات، وهي قصائد طوال يتناول كل بيت من أبياتها صورة بديعيّة : " ومن هذا أيضا صفيّ الدّين الحلي الذي نظّم بديعيّة تقع في مئة وخمسة وأربعين بيتا، وجاء بعده عزّ الدّين الموصلي فنظّم بديعيّة مساوية لبديعيّة الحلي في عدد أبياتها، وابن حجّة الحموي نظم بديعيّة في مئة واثنين وأربعين بيتا " [1].

والملاحظ في هذا التقسيم الغلوّ والشّطط والتوسّع الذي لا طائل منه والخلط بين البديع والبيان، وقد علّق ابن أبي الإصبع المصري على كتاب . البديع في نقد الشعر . لابن المنقذ الذي أحصى فيه خمسة وتسعين نوعا قائلا : " وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد العظيم، والجمع بين أشتات الخطأ وأنواعه من التوارد والتداخل وضمّ غير البديع والمحاسن إلى البديع " [2]، وربّما هذا الكلام يصلح في السابقين الأوّلين من الكتّاب والمؤلّفين الذين كانوا لا يفرّقون بين البديع وباقي أنواع البلاغة وكان البديع وقتها لم يقم بعد على ساق ولم تحدّد له حدود، فكان فضفاضا واسعا حاول كلّ أديب أن يصبّ فيه خبرته، ويفجّر فيه طاقته، ويظهر من خلال عمله تفرّده وإبداعه، وكان ابن المعتز أوّل من كتب في هذا الباب حتّى أنّ الكثير من النقّاد يعدّه واضع هذا العلم وصاحب الفضل في وضع قواعده الأولى " وأوّل من اخترعه وسمّاه بهذا الاسم عبد الله بن المعتز " [3].

وهذا ما شهد به ابن المعتز على نفسه حيث قال في مقدّمة كتابه : " ولعلّ بعض من قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدّثه نفسه وتمنّيه مشاركتنا في فضيلته فيسمّي فنّا من فنون البديع بغير ما سمّيناه به " [4] وفي كلامه دلالة إلى أنّه لا أحد سبقه إلى هذا العلم حتّى قال في موضع آخر من الكتاب نفسه : " فأمّا العلماء باللّغة والشّعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو وما جمع فنون البديع، ولا سبقني إليه أحد " [5]، علما أنّ أبواب البديع كانت مبثوثة في القرآن الكريم وفي أحاديث النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ وفي قصائد الشعراء وكلام الخطباء، وتطلق كلمة البديع في الغالب على الشيء الجديد والنّادر :" أُطلِق

---

[1] ـ محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة ـ البديع والبيان والمعاني ـ، ص 60 .
[2] ـ ابن أبي الإصبع المصري، تحفة التحبير (في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن)، تح حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة بد ط، بد س، ص 91 .
[3] ـ جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بد ط، بد س، ص 105 .
[4] ـ ابن المعتز، كتاب البديع، ص 12 .
[55] ـ المرجع نفسه، ص 72 .

مصطلح البديع في هذه الحقبة على الشّعر المحدث الذي أتى به شعراء العصر العباسي المجدّدون، ويبدوا أنّ الشعراء أنفسهم أوّل من أطلق هذا المصطلح على الشّعر الجديد المتميّز عن سابقه بجماليّة التعبير وحداثته " [1] والملاحظ في كتاب البديع أنّه جمع بين فنون البلاغة الثلاثة (المعاني والبيان والبديع) وقد تحدّث فيه صاحبة عن خمسة أقسام من علوم البلاغة، تشكّل على حدّ رأيه المعالم الكبرى لما يعرف بعلم البديع وهي : (الاستعارة والتجنيس والمطابقة وردّ العجز على الصدر والمذهب الكلامي) [2].

ويرى ابن المعتز أنّ تجاوز هذه الحدود الخمسة إنّما هو تعدّ وشطط في القول، وجهل في معرفة علوم الأدب: " قد قدّمنا أبواب البديع الخمسة وكمل عندنا " [3] أي كملت أبواب البديع عنده ولا تحتاج إلى إضافة أو تعديل ثمّ ذكر بعد ذلك ثلاثة عشر نوعا من البديع أدخلها تحت ما سماه محاسن الكلام والشعر وهي : " الالتفات، الرجوع، حسن الخروج، تأكيد المدح بما يشبه الذم، تأكيد الذم بما يشبه المدح، تجاهل العارف، الهزل يراد به الجد، حسن التضمين، التعريض والكناية، الإفراط في الصفة، حسن التشبيه، لزوم ما لا يلزم، حسن الابتداء، التورية، الاعتراض " [4]، ولا شك أنّ كتاب البديع لابن المعتز هو النواة الأولى للدراسات اللاحقة ومرتكز المجتهدين ممّن عاصره أو ممّن جاء بعده، ثم جاء من بعده قدامة بن جعفر وكتابه الموسوم بـ (نقد الشعر) الذي تحدّث فيه عن الشعر ومواطن الجمال فيه ومكامن الحسن في نظمه، ومواضع الزلل وأماكن الخلل في بعضه، فأضاف أنواعا أخر من فنون البديع وافق في بعضها ما جاء به ابن المعتز " فأمّا ابن المعتز مؤسّس علم البديع فقد اهتدى إلى ثمانية عشر نوعا من أنواع البديع وأمّا قدامة فقد اهتدى إلى تسعة أنواع فقط وبذلك يكون الاثنان قد اهتديا معا إلى سبعة وعشرين نوعا من أنواع البديع " [5].

ثم جاء بعدهما صاحب الصناعتين أبو هلال العسكري الذي عاصر ابن قدامة وعاش بعده نصف قرن تقريبا، أخذ ممّن سبقه وأجاد، وزاد عليه وأفاد، وبلغ بأنواع البديع واحدا

---

[1] ـ محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة ـ البديع والبيان والمعاني ـ، ص 54 .
[2] ـ ينظر كتاب البديع لابن المعتز ص 13 وما بعدها .
[3] ـ ابن المعتز، كتاب البديع، ص 72 .
[4] ـ ينظر كتاب البديع، ص 72 إلى 108 .
[5] ـ عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 22 .

وأربعين، ستّة يقول أنّها من اختراعه " وزدت على ما أفرده المتقدّمون ستة أنواع : التشطير والمحاورة والتطريز والمضاعف، والاستشهاد، والتلطف " [1]، وثمانيّة كانت موجودة ومبثوثة في كلام العرب معروفة عند أهل اللغة والأدب، وصلت إلى أبي هلال من غير طريق قدامة بن جعفر وابن المعتز " أورد أبو هلال ثمانية أنواع أدبية لم يرد لها ذكر عنده أو عند قدامة أو بن معتز وهذه هي : التوشيح، والعكس والتبديل، والتكميل، والاستطراد، وجمع المؤتلف والمختلف، والسلب والإيجاب، والتعطف، والاشتقاق " [2]، والدليل على ذلك أنه لم ينسبهما إلى نفسه كما فعل بالستّة الآنفة، ولم تكن موجودة في كتابَي : البديع ونقد الشعر.

ثمّ جاء بعد ذلك ابن رشيق المسيلي ـ نسبة إلى بلد المولد والنشأة ـ في القرن الخامس الهجري وكتابه (العمدة) الذي يعد تاجا لأهل زمانه، ونارا على علم لكل دارس للشعر وفنونه، حاول فيه صاحبه أن يجمع كلام الأقدمين، ويناقش أقوال المختصين، ويقارب بين آراء السابقين، ويجمع بين شتات المتخالفين، والملاحظ في كتابه أنّه كان أكثر تفصيلا ممّا سبقه مع ظهور نوع من التمايز بين البيان والبديع، وأصبح للبديع معالم ظاهرة وعلامات فارقة، تميّزه عن باقي أنواع البلاغة ولعلّ أهمّ ما قاد ابن رشيق إلى هذا العمل محاولته التمييز بين الشعر المخترع والمولّد وخصائص كل منهما، فلا بدّ لذلك من موازين إبداعيّة، وخصائص فنيّة تجعل هذا مخترعا وذاك مولدا " وممّا يلاحظ على الكتاب أنّ المؤلف أفرد أبوابا منه لمباحث البيان، وأخرى للمحسنات البديعيّة، وفي ذلك يوحي بأنّه بدأ يستقر في أذهان النقاد ورجال البلاغة أنّ البيان شيء والبديع شيء آخر " [3] .

وقد أورد ابن رشيق أنواعا جديدة من البديع لم ترد في كتب من سبقه ولعله وجدها مبثوثة في كتب الأدب والبلاغة ولم يَعزُها إلى أصحابها، أو اخترعها من عنده ولم ينسبها إلى نفسه، وحصيلة ما ذكره في كتابه تسعا وعشرين نوعا من فنون البلاغة " أمّا أنواع البديع التي أوردها ابن رشيق في كتابه العمدة فتبلغ تسعة وعشرين، منها عشرون نوعا سبقه إليها ابن المعتز وقدامة وأبو هلال العسكري ... أمّا أنواع البديع التسعة الباقية والتي لم يرد لها ذكر عند

[1] ـ أبو هلال العسكري، الصناعتين، ص 267 .
[2] ـ عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 23 .
[3] ـ المرجع نفسه، ص 26

رجال البديع السابقين فهي : التورية، والترديد، والتفريغ، والاستدعاء، والتكرار، ونفي الشيء بإيجابه، والإطراد والاشتراك، والتغاير " [1] .

ثمّ جاء بعد هؤلاء عبد القاهر الجرجاني وكتاباه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، والزمخشري وكتابه الكشاف، وأصحاب البديعيّات (صفيّ الدّين الحلي وعزّ الدّين الموصلي وابن حجّة الحموي) .

ثمّ جاء بعدهم في القرن السابع الرازي وكتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) والسكّاكي وكتابه مفتاح العلوم الذي سلك فيه منحا جديدا في تقسيم البديع حيث قسمه إلى بابين كبيرين، يتعلق الأول بما يرجع إلى معنى، والثاني ما يتعلق باللفظ والملاحظ أنّ الدراسات بعد السكّاكي سلكت اتّجاه التحديد والتخصيص، وميّزت بشكل واضح بين أقسام البلاغة (المعاني والبيان والبديع) والحقيقة أنّ السكّاكي وضع القطار على السكة، وألمح إلى ضرورة الاهتمام بعلم البديع، فتقسيمه الدقيق يوحي بهذا الأمر مع أنّه لم يصرّح بذلك فهو لم يضف إلى أقسام البديع شيئا وإنّما اكتفى باختيار بضعا وعشرين نوعا كانت على حسب علمه ـ تقديرا ـ هي أهم أنواع المحسنات والتي سبقه إليها الزمخشري والرازي وعبد القاهر الجرجاني "، وشيء آخر أن السكّاكي لم يأت في كتابه المفتاح على كل المحسّنات البديعية التي كانت معروفة إلى عصره، وإنّما اقتصر منها على ستّة وعشرين نوعا ... كما أنّه لم يزد على المحسّنات جديدا من عنده " [2] .

وبقيت الدّراسات بعد السكّاكي تحوم حول الحمى نفسه، ولم تزد إلاّ أن جعلت البديع علما قائما بذاته، وقسما مستقلا عن البيان والمعاني، وممّن ساروا على النهج نفسه محمد بن علي الجرجاني في القرن الثامن الهجري وكتابه الموسوم بـ : الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، الذي وضع فيه تعريفا جامعا مانعا لعلم البديع : " علم يعرف منه وجوه تحسين الكلام باعتبار نسبة بعض أجزائه إلى بعض بغير الإسناد والتعلق، مع رعاية أسباب البلاغة " [3].

---

[1] ـ المرجع السابق ، ص 27 - 28 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 43 .
[3] ـ محمد بن علي بن محمد الجرجاني، الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة، تح عبد القادر حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، س 1996، ص 233

واللافت في هذا التعريف تلك القيود المحكمة التي وضعها صاحبه حتّى أخرج البديع في حلّة جديدة، وعلم قائم بذاته يضاهي علمي البيان والمعاني، فأخرج بهذا التّعريف التحسينات التي تكون بغير هذه النسبة ويقصد بها التحسينات البيانية، ثمّ أخرج بعد ذلك التحسينات الناتجة عن علم المعاني، ثمّ ربط هذه التحسينات بعلم البلاغة، وقسّم هذه التحسينات تحت بابين كبيرين وقسمين متكاملين الأوّل يرجع إلى اللفظ، والثاني يرجع إلى المعنى، وقسّمها كالآتي : " المحسنات المعنوية وتتضمن : المطابقة، والمقابلة، والمناسبة، والتفويف، والمشاكلة والاستطراد، والعكس، والإرصاد والنقض، والتورية، والمزاوجة والجمع، والتقسيم، واللف والنشر، والتجريد، والمبالغة، والمحاجة، والتعليل، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والاستتباع والإدماج والتوجيه، والتجاهل، والقول بالموجب، الاطراد . والمحسنات اللفظية وتتضمن : الجناس، ورد العجز على الصدر، والأسجاع، والتصريع، ولزوم ما لا يلزم " [1]، وعلى هذا التقسيم سار القزويني وعليه استقر الدرس البلاغي إلى يومنا هذا مع عدم إنكار بعض الجهود التي حاولت النهوض بالبلاغة ولكنّها لم تكن أبدا في الأصول التي بنيت عليها وإنّما في بعض الفروع التي لم يكن من شأنها بعث البلاغة من جديد، وعلى هذا التقسيم اعتمدت في بحثي هذا واخترت من المحسّنات اللفظيّة السجع والجناس ومن المحسنات المعنوية الطباق والمقابلة وكان سبب الاقتصار على هذه الأربع لأنّها الأشهر والشائعة في جميع الخطب والصالحة لمخاطبة عوام النّاس، وكانت فقط على سبيل المثال لا على سبيل التعميم أو الحصر .

2 ـ 1 ـ المحسّنات البديعيّة المعنويّة : ويقصد بها المحسنات التي ترجع في الأصل إلى المعنى دون إنكار قيمة اللفظ بل الحكم في ذلك على الغلبة والظاهر ومنها :

أ ـ الطّباق :

لغة : جاء في لسان العرب : " طَابَقَهُ مُطَابَقَةً وتَطَابَق الشَيْئَان : تَسَاوِيَا والمُطَابَقَةُ المُوَافَقَةُ والتَّطَابُقُ الاتِّفَاقُ وطَابَقَ بين الشيئين إذا جَعَلَهُمَا على حَذْوٍ وَاحِدٍ وأَلْزَقَهُمَا ... والمُطَابَقَةُ أن يجعل الفَرَسُ رِجْلَهُ في مَوْضِعِ يَدِهِ وَهو الأَحَقُّ من الخَيْلِ " [2]، فالمطابقة معناها الموافقة

[1] ـ المرجع السابق، ص 233 - 275 .
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، م 10، ص 209 - 213

والمساواة وتطلق على الفرس إذا وضع رجليه الخلفيّتين في موضع رجليه الأولتين أثناء عدوه وهو يدلّ على السرعة والخفّة والحيويّة والنشاط، " والتّطْبِيقُ أن يَثِبَ البَعِيرُ فَتَقَعَ قَوائمُه بالأرض مَعًا ؛ ومنه قول الرّاعي يَصِفُ نَاقَةً نَجِيبَةً :

حتّى إذا ما اسْتَوى طَبَّقَتْ كَمَا طَبَّقَ المِسْحَلُ الأَغْبَرُ " [1]

والملاحظ أنّ الطّباق بالمعنى اللّغوي لا يتّفق في الظّاهر مع معناه الاصطلاحي فإذا كان معناه اللّغوي يقتضى المساواة والموافقة والمحاذاة، والجمع بين المتساووين والمتماثلين، فإنّ معناه الاصطلاحي يقتضي الجمع بين المتعاكسين والمتناقضين، كالموت والحياة، والأبيض والأسود، والصّغير والكبير، والضّار والنّافع ... وهكذا، ولقد حاول بعضهم الجمع بين المعنى اللغوي والاصطلاحي بتفسير فيه نوع من الشطط والغلو : " الطّباق : وضع طبق على طبق كوضع غطاء القدر منكفئا على فم القدر حتّى يُغطيّه بإحكام، ومنه إطباق بطن الكف على بطن الكف الآخر ... وهذا الإطباق يقتضي في الغالب التعاكس، فبطن الغطاء على بطن القدر يقتضي في الغالب التعاكس " [2] وإذا صلح هذا التفسير على القِدْرِ فكيف يصلح على وضع الكفِّ على الكفّ، إلا إذا قُصِدَ بذلك تعاكس حركة اليد ولا دليل، وربما سمّي الطباق طباقا لأنّ المعنى يساوي المعنى المعاكس في قوة الكلام فالذي يساوي معنى النهار المعاكس هو اللّيل، والذي يساوي معنى الليل المعاكس هو النّهار، وإلاّ لما كان طباقا وإنّما هو تعبير عن حال، أو إسقاط لمعنى على آخر .

اصطلاحا : ويسمّى المطابقة والتطبيق والتكافؤ والتضاد وهو : " الجمع في العبارة الواحدة بين معنيين متقابلين على سبيل الحقيقة، أو على سبيل المجاز، ولو إيهاما " [3]، ومراد صاحب التعريف أن يوسع دلالة معنى التقابل، فهو يشمل التضادّ والتضايف والتناقض، إضافة إلى أنّ هذا التقابل يكون بين المعاني وليس بين الألفاظ، فقد يكون بين اسمين أو بين فعلين أو بين اسم وفعل، والتقابل بين المعاني له وجوه منها : " تقابل التناقض : كالوجود والعدم والإيجاب والسلب، وتقابل التضاد : كالأسود والأبيض والقيام والقعود، وتقابل التضايف :

[1] ـ المرجع السابق، ص 210 .
[2] ـ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم، دمشق، ط 1، س 1996، ص 377 .
[3] ـ المرجع نفسه، الصفحة نفسها .

كالأب والابن والأكبر والأصغر والخالق والمخلوق "[1]، وعرفّ السكّاكي الطباق بقوله: " المطابقة : وهي أن تجمع بين متضادّين " [2]، وهو تعريف بسيط بعيد عن التعقيد وكثرة التقسيم، وبعيد عن الغموض وكثرة الإيغال، ومثال ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَتَحْسِبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ (سورة الكهف، الآية 18) ، وقوله تعالى : ﴿ **تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴾ (سورة آل عمران، الآية 27)، وهذا التضادّ قد يكون يكون بين اسمين كما في الآيتين الآنفتين (أيقاظا ورقود، الليل والنهار، الحي والميت) وقد يكون بين فعلين كقوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾ (سورة التغابن، الآية 03) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى** ﴾ (سورة النجم، الآية 43)، وقوله ﷺ : " رحم الله رجلا سمحا إذا باع وإذا اشترى وإذا اقتضى " [3]، وقد يكون بين اسم وفعل كقوله تعالي : ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ** ﴾ (سورة الزمر، الآية 36) ، وقوله تعالى : ﴿ **أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** ﴾ (سورة الزمر، الآية 36) ، والطباق كما بيّن علماء اللغة نوعان : " وهو ضربان : طباق الإيجاب كما مرّ، وطباق السّلب " [4]، ويقصد بطباق الإيجاب الذي لا يختلف فيه الضدّان إيجابا وسلبا كما ورد في الأمثلة السابقة، وبطباق السلب الكلمة ونفيها ومثاله قوله تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة الزمر، الآية 9) ومثاله أيضا قوله تعالى: ﴿ **أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾ (سورة النحل، الآية 16) ، وسمي سلبا لأنه لا يعتمد على الثنائيات اللغوية في بيان التضاد المعنوي .

---

[1] ـ المرجع السابق، الصفحة نفسها .
[2] ـ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 423 .
[3] ـ البخاري، صحيح البخاري، ح رقم 2076، ص 500،
[4] ـ القزويني الخطيب، التلخيص، ص 349 - 350 .

ـ الطّباق عند البشير الإبراهيمي :

كان البشير الإبراهيمي يكثر من استعمال الطباق ومن ذلك قوله : " وهذه جريدة البصائر تعود إلى الظهور بعد احتجاب طال أمده، وكما تعود الشمس إلى الإشراق بعد المغيب وتعود الشجرة إلى الإيراق بعد التسلب ... " [1]، هذه كلمة قالها تزامنا مع عودة جريدة البصائر إلى الظهور بعد انقطاع طال أمده، وغياب طالت شهوره وأيّامه، فدفعه الحنين إلى كتابة هذه السطور، ودَعَّه الشوق إلى نثر هذه الدرر ونشر هذه الجواهر، وهي مقالة غاية في الروعة، وتحفة فنية بارعة الجمال، استهلّ بها العدد الأول من الجريدة وصَدَّرها به، شملت الكثير من المحسنات اللفظيّة والعديد من الأساليب البديعيّة، منها الطباق الذي هو موضع الحديث ومناط البحث، وذلك في قوله : (الإشراق بعد المغيب) وقوله في الفقرة نفسها : (الإيراق بعد التسلب)، فقد استعمل الشيخ ما يعرف بالثنائيات الضديّة، وهي ثنائيات موجودة في الكون، مُشَكلةً من الكلمة ونقيضها كاللّيل والنّهار، والخير والشرّ، والنّور والظّلام ... إلخ، " إنّ الثنائيات الضديّة نظرة فلسفية عميقة تتجاوز الجمع المباشر والسطحي بين طرفين، فهذان الطرفان تربطهما رابطة هي رابطة التضاد " [2]، وهي ثنائيات إذا وظّفت في جملة واحدة شكلت ما يعرف بلاغيا بالطباق فلا يتضح المعنى ولا يتجلى الفهم إلاّ إذا ظهر الفرق بين الكلمة وضدها، فلا يُدرَك معنى النّهار إلاّ إذا عُرفت ماهية اللّيل، ولا تفهم حقيقة النّور إلا إذا عُقِل معنى الظلام وهكذا، ولا شك أن توظيف هذه الثنائيات في سياق الكلام له قوّته الحجاجيّة، وسلطته الإقناعيّة، فهي لم توضع لعبا، ولم تقحم عبثا، بل لها رسالة حجاجيّة تؤديها، وغاية إقناعيّة تقوم بها، وقد وظّف الشيخ كلمة (الإشراق) الدالة على حركة الفعل من بداية الشروق إلى اكتماله، من أجل أن يكون كلامه أوقع في النفوس، وأبلغ في الإقناع، ثم وظّف ضد الكلمة (المغيب) الذي هو نهاية الغروب وبداية الظلمة، وكأنّ الفترة التي كانت تشهد توقّف جريدة البصائر عن الصدور إنّما هي فترة ظلام مؤقت لأنّه ما من مغيب إلا وله شروق، وإنّما هي استراحة محارب وإغفاءة نبهان، ويؤكد هذا الكلام الجملة الثانية من الطباق : (الإيراق بعد التسلب) وهو تعبير رائق المباني جميل الدلالة والمعاني، وصورة بيانية أخّاذة الجمال، نحتها

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 41 .
[2] ـ سمر الديوب، الثنائيات الضدية ـ بحث في المصطلح ودلالته ـ، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، سوريا، ط 1، س 2017، ص 16 .

الشيخ من مخيّلة رقيقة الإحساس مرهفة الشعور، تصور للقارئ منظر شجرة يابسة مسلوبة الأوراق، عارية من الخضرة، فجاءها الورق بعد طول انتظار، وكساها الباري بعد طول مكث، فالشجرة باقية على ثباتها، راسخة في وقوفها، تفقد ورقها ولكنّها لا تموت، وتيبس بعض أغصانها ولكنّها لا تستسلم، ثمّ يأتيها ذلك الإيراق الذي لا يزيدها إلا حسنا وجمالا، ولا يكسبها إلا بهاء وسناء، ولا يذكر النّاظر إليها إلا هذه الصورة الجميلة، واللوحة الفريدة، وكذا كانت جريدة البصائر فلم تزدها فترة انقطاعها إلا حبّا في قلوب العاشقين، وقيمة عند المنصفين والعارفين، ولم تَجِد بَعْد عودتها عن المسار الذي رسمته، ولا عن الطريق الذي سلكته، وبقيت حاملة لراية الإصلاح خادمة للدين واللغة والوطن .

وقال في المقالة نفسها يقول : " ... وكل نطقة تمليها الظروف لا الضمائر تثمر سكتة عن الحقّ ما من ذلك بد "[1]، لقد وظّف الشيخ في هذه الجملة مثالا جميلا من الطباق : (نطقة وضدّها سكتة) وهذا يدلّ على أهمية الطباق في الكلام، وعلى قوّته الحجاجيّة في المخاطبة، ودلالاته العميقة في الإقناع، حيث استعمل هنا اسم المرّة في توظيف اللفظة واستعمل اسم المرة في توظيف ضدّها، وكان يستطيع أن يقول : وكل نطقة تمليها ... تثمر سكوتا (نطقة وضدها سكوتا) لكان المعنى صحيحا، ولكن تنقصه اللمسة الإبداعية، والرؤية الفنية، ولذلك ساق الشيخ هذا النموذج بهذه الطريقة ليحمّل كلامه مزيدا من الدلالات، ويزيد في قوة الإقناع لدى المتلقي فعلى الرّغم من بساطة التركيب كانت المعاني متجدّدة، وفي كل مرّة يحيلك فيها إلى مجموعة من الدلالات العميقة، التي تدل على النظرة المتّقدة، والفطرة السليمة، وكلما قرأت الفقرة فهمت حكما جديدة، ومواعظ خفيّة، كانت كامنة وراء السطور، والذي زادها وضوحا، وأعطاها وشاحا من الجمال استعماله للطباق بطريقة محترفة، وأسلوب متمكن يشهد على القدرة الإبداعية، والبلاغة الأدبية التي يتمتع بها الشيخ .

ويقول في موضع آخر : " وقد يتأتى للحكومة أن تقول إن عملية الرخصة بسيطة، وما هي إلا طلب وإيجاب، وقد امتحنا هذا القول فوجدنا الحكومة تُيسّر على من رضيت عنه، وتُعسّر على المغضوب عليهم، وتدخل معهم في بحر من الإجراءات لا ساحل له، حتّى ييأس

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 43 .

الآمل ويفتر العامل، إنّ الحكومة لا يعجزها أن توجد للحق ضرائر من الباطل ... " [1]، وقد نقلت الفقرة كاملة حتّى تشهد على جمال الطباق، خاصّة إذا كان توظيفه حسنا واستعماله منطقيّا وسلسا، فهو لم يُقحم عبثا، ولم يُوضع من أجل لا شيء، بل تجد كل لفظة لابد لها من أختها حتّى يكتمل معناها، وكل كلمة لابد لها من ضدّها حتّى يتّضح مرماها، فكان الطباق الأوّل (طلب وإيجاب) مع أنّهما كلمتان متلازمتان فالإيجاب لا يكون إلا بعد الطلب والتّضاد بينهما معنوي غير كامل لاستحالة الجمع بينهما بحيث لا يدل أحدهما على الآخر بينما الطباق في الجملة الثانية واضح المعالم مكشوف الدلالة كلّما ذكر الأوّل لزم منه وجود الثاني ولو تقديرا، فكل يُسر إلا ويقابله عسر وكل عسر إلا وراءه يسر، وكذا الحقّ والباطل وقد ذكر الشيخ هذه الأنواع من الطباق لينقل الصراع بين المفردات والكلمات إلى معانيها الموجودة في الكون إلى تطبيقاتها الموجودة في الواقع، وكأنّ الواقع بين الكلمات وما عبّرت عليه إنّما هو حرب دائمة وصراع لا ينتهي حتّى يُظهِر الله بعضه على بعض، مثله مثل الصراع بين الجمعية والحكومة فأهداف الأولى إصلاحي توعوي وسلاحها العلم والتثقيف وأهداف الثانية شخصي مصلحي وسلاحه التضليل والتجهيل، والأولى تمثل الشعب والطبقة المغلوبة، والثانية تمثل الاستدمار والطبقة الحاكمة، وشتّان أن يجتمعا على رأي أو يتفقا على موقف، فالحرب بينهما دائمة، ومحطاتها مستمرة، ودوائرها متعاقبة، والمدّ والجزر بينهما لا تنته أيّامه، ولا تنقضي جولاته، فنقل الشيخ هذا الصراع الدائم ووضعه في هذه الجملة من أجل أن يشعر المتلقي بالصراع الحقيقي القائم بين جمعية العلماء والحكومة الاستدمارية الجزائرية الفرنسية، وهذا يدلّ مرّة أخرى على ذكاء الإبراهيمي في تصوير المعاني، وحسن توظيفه للطباق وبالتالي قدّم لوحة فنية جمعت بين جميل النّظم وقوة المعني .

ومن جميل استعماله للطباق قوله أيضا: " ولها في الحياة السياسيّة والاجتماعية للأمّة الجزائريّة آراء محّصتها التجربة وأيّدها المنطق، ومواقف لم تراع فيها إلاّ المصلحة المحقّقة

[1] ـ المصدر السابق، ص 50 .

أو الراجحة، ولم تبال في مواقفها بمن طار ولا بمن وقع، فالطّائر قد تصدمه نواميس الخفّة والثقل، فينقلب مضعضعا أو مكسورا، والواقع قد تزعجه الحوادث فيتحرك مختارا أو مقهورا " [1].

هذا جزء من مقالة للشيخ يتحدّث فيها عن أعمال الجمعية ومواقفها، ذكر فيها مجموعة من أمثلة الطّباق ساقها بطريقة شائقة وأسلوب رائق :(طار ووقع، الخفة والثقل، مختارا ومقهورا) والملاحظ في هذه الأنواع من الأمثلة أنّه كلما ذكر لفظا من الطباق لزم بعده ذكر نقيضه وضدّه، وإلا أصبح المعنى مختلا، والجملة ناقصة، والكلام مبهما، والدلالة غامضة فلو قال مثلا : ولم تبال في مواقفها بمن طار، وتوقف عند هذا الحدّ لكان في الجملة الكثير من الخلل، ولم تُبِن عن كُنهها، ولم تكشف عن مرادها، ولم يتحقّق المعنى إلا بكمال جملة الطباق، وكذا الحال لو قال : فالطّائر تصدمه نواميس الخفّة واكتفى بذلك، أو قال : والواقع تزعجه الحوادث فيتحرك مختارا واكتفى بذلك، لو فعل ذلك لوقع المستمع في حيرة ولكانت مواضع اللبس أكثر من مواضع الفهم، ولأصبح كلامه ركيكا لا يؤدي غرضا، ولا يحمل رسالة، وقد كان الشيخ يكثر من استعمال الطباق الذي يحمل المستمع إلى مزيد من المعاني ويقوده إلى فضاءات من الخيال، يحسّ فيها بجمال اللغة، ودقّة ألفاظها، وعمق معانيها، فهذا التضاد ليس محسّنا لفظيّا فحسب، بل هو امتداد للمعنى، وله رسالته البلاغية التي يؤدّيها، ووظيفته اللغويّة التي يقوم بها، وهذا من أسرار اللّغة العربية التي تنثر دررها، وتنشر جواهرها، كلما سنحت لها فرصة، أو أتيحت لها مناسبة، وربّما هو الشيء نفسه الذي جعل عبد القاهر الجرجاني يسم كتابه بـ (أسرار البلاغة)، وإنّما كانت جهود العلماء تتمحور حول إخراج هذه الجواهر، وتقديمها للدارس في صورة مبسّطة، علما أنّ الكثير من أسرار اللّغة لم تكتشف، وما زالت حبيسة الجمل والكلمات، فاللّغة العربية أكاد أجزم أنّها لغة إلهيّة سماويّة تتجلّى فيها المعاني القدسية والفتوحات الربانية .

وقال أيضا :" وزاد الحمأة امتدادا ما صحب حجّ هذه السنة من فوضى في الإجراءات واختلاف بين الإدارات، فهذه تعطي وتلك تمنع، وهذه توسّع وتلك تضيّق، وهذه تنقض ما

[1] ـ المصدر السابق، ص 54 .

أبرمته تلك، والحاجّ المسكين بين هذه الإدارات المختلفة التي كأنّها إمارات مستقلة كالكرة التي تتقاذفها اللجج، وتتلقفها الصوالجة " [1].

ويقصد في هذه الفقرة الحكومة الفرنسية وكيفية إدارتها لموسم الحج، حيث كانت تختار من الحجّاج من يسير وفق خططهم، ويوافق مناهجهم، ويتبنّى أفكارهم، فكانت تسهّل لهم كل صعب، وتيسّر لهم كل عسير، وكانت بالمقابل تضع الصعاب، وتكثر العراقيل لكل حاجّ تظن أنّه ينتمي لجمعية العلماء، أو كل حاج رأت منه الكره لفرنسا والعداء لمناهجها، ناهيك عن الفوضى التي سارت بها العملية، وانعدام قوانين صارمة وإجراءات موحّدة تنظّم موسم الحج فجاء الشيخ بالطباقين المذكورين في الفقرة (تعطي وتمنع، توسع وتضيق) وكأنّه أراد أن يشير إلى هذا الخلاف والتضاد والتضارب بين الإدارات الفرنسية بالتضاد القائم بين كلمات الطباق، ولو نقل هذه الفوضى القائمة بين مختلف الإدارات دون أن يستعمل الطباق ربّما كان المعنى ناقصا يحتاج إلى كمال، ومبهما يحتاج إلى توضيح، ولكنّ الشيخ استعمل الطباق بطريقة توحي إلى هذه الفوضى، وبكلمات تشعر بمدى التضارب القائم بين الإدارات المسؤولة عن عملية الحجّ، فتترسّخ في ذهن المستمع هذه المعاني، وترتسم في خلده هذه اللوحة، وهنا تكمن القوّة الحجاجيّة، والقدرة الإقناعيّة، التي يمكن أن يقدمها الطباق، والتي تزيد المعنى وضوحا وجلاء، وحسنا وبهاء، والواقع أن الشيخ كان يكثر من استعمال المحسنات البديعية، وطول باعه في الأدب، وعلو سنامه في اللغة، حقيقة لا يختلف فيها اثنان، ولا يتناطح عليها كبشان .

ب ـ المقابلة :

لغة : جاء في لسان العرب : " قَابَلَ الشَّيْءَ بالشَّيْءِ مُقَابَلَةً وقِبَالاً : عَارَضَهُ . الليث : إذا ضَمَمْتَ شَيْئًا إلى شَيْءٍ قُلتَ قَابَلْتُه به، ومُقَابَلَةُ الكِتَابِ بالكِتَابِ وقِبَالُهُ به مُعَارضَتُه " [2] ومعنى ذلك جعل شيء قبالة شيء، ومنه الاتّجاه إلى القبلة وهو جعل الكعبة قبالة وجه المصلي قال تعالى في وصف أصحاب الجنة : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ** ﴾ (سورة الحجر، الآية : 47) ، أي جالسين يقابل بعضهم بعضا دلالة على الأنس

[1] ـ المصدر السابق، ج 3، ص 76 .
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، م 11، ص 540 .

والسعادة، وجاء في القاموس المحيط : " وقُبَالَتُه بالضم : تُجَاهُه ... وقَابَلَه : واجهه، والكتاب عارضه ... وتقابلا : تواجها " [1]، فالمقابلة تعني مواجهة الشيء للشيء وجعله قبالة له، ومنه ما يعرف بالمقابلة التلفزيونية، وهو جلوس الضيف قبالة للصحفي، أو جلوس الضيف قبالة للمشاهد وجاء في قاموس اللغة العربية : " قابل المسؤول : حادثه في الأمر ... قابل الكتاب المطبوع على المخطوط : عارض بينهما، طابقه عليه " [2]، ويتضح مما سبق أن المقابلة تعني وضع شيء قبالة شيء آخر أو مواجهة شيء لشيء آخر، وهي قريبة للمعنى الاصطلاحي والتي تعني مقابلة المعاني بعضها لبعض .

اصطلاحا : المقابلة في معناها الاصطلاحي قريبة من معناها اللغوي، ولعل أوّل من وضع لها تعريفا لائقا ومفصلا قدامة بن جعفر من خلال كتابه نقد الشعر حيث عرّفها بقوله : " وهو أن يضع الشاعر معاني يريد التوفيق بين بعضها وبعض والمخالفة فيأتي في الموافق بما يوافق وفي المخالف بما يخالف على الصحة أو يشترط شروطا ويعدّد أحوالا في أحد المعنيين فيجب أن يأتي في ما يوافقه بمثل الذي شرطه وعدّده وفي ما يخالف بضد ذلك " [3]، فكانت معالم المقابلة ظاهرة، وحدودها معروفة مشتهرة، على الرغم من أنّ قدامة بن جعفر ذكر ذلك في معرض حديثه عن صحة المقابلة في الشعر التي تعد شرطا لكماله وسببا لجودته، ومن خالف هذه الشروط سقط شعره، ووقع فيما سماه بفساد المقابلات المسببة لعيوب المعاني .

وعرّفها ابن رشيق المسيلي بقوله : " وأصلها ترتيب الكلام على ما يجب ؛ فيعطى أوّل الكلام ما يليق به أوّلا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقه، وفي المخالف بما يخالفه، وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق ضدّين كان مقابلة " [4]، ويعتبر تعريف ابن رشيق قريبا جدا من تعريف قدامة بن جعفر وزاد عليه الشرط الأخير وهو أنّ الطباق إذا جاوز الضدين ـ اللفظتين وضدهما ـ أصبح في حمى المقابلة، وأشار أيضا أنّ المقابلة تكون غالبا في الأضداد، وقد لخص الخطيب القزويني هذا التعريف بقوله : " وهو أن

[1] ـ فيروز آبادي، القاموس المحيط، 1045 ـ 1046 .
[2] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، ص 1770 .
[3] ـ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، ص 79 .
[4] ـ ابن رشيق المسيلي، العمدة، ص 215 .

يؤتى بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثمّ بما يقابل ذلك على الترتيب " [1]، فالمقابلة تشبه الطباق وتخالفه في نقطتين :

ـ الطباق يكون بين لفظتين على سبيل التضاد (اللفظة وضدّها)، بينما المقابلة تكون بين لفظتين فأكثر وما يقابلهما .

ـ الطباق يكون على جهة التضاد فقط، بينما المقابلة تكون على جهة التضاد وهو الغالب وتأتي على سبيل الموافقة أيضا، ومثال المقابلة على سبيل التوافق ما قاله ابن رشيق :

أصَحُّ وأقْوَى مَا سَمِعْنَاهُ فِي النَّـــدَى مِن الخَبَرِ المَأْثُورِ مُنذُ قَـــــدِيمِ

أحَادِيثُ تَرْوِيهَا السُيُولُ عَنِ الحَـيَا عَنِ البَحْرِ عَنِ كَفِّ الأَمِيرِ تَمِيمِ [2]

يقول صاحب الإيضاح : " فإنّه ناسب فيه بين الصحّة، والقوّة، والسّماع، والخبر المأثور والأحاديث، والرواية، ثم بين السيل، والحيا، والبحر، وكف تميم " [3]، ولقد اشترط السكّاكي أن تقتصر المقابلة على الأضداد فحسب وهو المشهور المعمول به : " ومنه المقابلة وهي أن تجمع بين شيئين متوافقين أو أكثر وبين ضديهما، ثمّ إذا شرطت هنا شرطا شرطت هناك ضده " [4] ومثل لذاك بقوله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنَ اَعْطَى وَاتَّقَى (5) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (6) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (7) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (8) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (9) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (10)** ﴾ (سورة الليل، الآية 5) ، فقابل (أعطى واتقى وصدق ولليسرى بـ بخل واستغنى وكذب للعسرى) على الترتيب فهذه معانى تقابلها معاني مخالفة، فالعطاء ضده البخل والتصديق ضده الكذب واليسرى ضدها العسرى وهكذا .

[1] ـ القزويني الخطيب، التلخيص في علوم البلاغة، ص 352 .
[2] ـ ابن رشيق المسيلي، ديوان ابن رشيق القيرواني، جم عبد الرحمان باغي، دار الثقافة، بيروت، ط 1، س 1989، ص 170 - 171 .
[3] ـ الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، ص 261 .
[4] ـ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 424 .

ـ المقابلة عند البشير الإبراهيمي :

ومن أمثلة المقابلة عند البشير الإبراهيمي : " اللهمّ يا ناصر المستضعفين انصرنا، وخذ بنواصينا إلى الحقّ، واجعل لنا في كل غاشيّة من الفتنة ردءًا من السكينة، وفي كلّ داهمة من البلاء درعا من الصبر، وفي كل داجية من الشكّ علما من اليقين، وفي كل نازلة من الفزع واقية من الثبات، وفي كل ناجمة من الضّلال نورا من الهداية، و مع كل طائف من الهوى رادعا من العقل، و في كل عارض من الشبهة لائحا من البرهان، و في كل ملمة من العجز باعثا من النشاط، وفي كل مجهلة من الباطل معالم من الحقّ اليقين، ومع كل فرعون من الطغاة المستبدّين موسى من الحماة المقاومين " [1].

ولقد نقلت هذه الفقرة كاملة لأنّها تحمل جملة من المقابلات، تشهد على روعة هذا الأسلوبي البلاغي، وتشهد أيضا على براعة الشيخ في استغلال جمال اللّغة، وتوظيف ذلك في تحميل النصّ مزيدا من التوسعات الدلالية، والقوى الحجاجيّة، والأساليب الإقناعيّة، التي قدّمت أحاسيس الشيخ في صورة بيانيّة، ولوحة فنية تحسّ من ورائها بمدى الألم الممزوج مع الشوق ومدى الحزن المختلط ببشائر الفرح، حيث وظّف في هذه الفقرة البسيطة عشر مقابلات جاءت على صيغة الدعاء، طالبا من الله عز وجل أن يغيّر الواقع المعيش إلى الحال المأمول، ولا أصدق من التعبير على ذلك إلاّ باستبدال الكلمة بضدها فكان يأتي في الجملة الواحدة بلفظتين تصفان حال الأمّة ثم يأتي بضدّيهما حتّى يكتمل المعنى وتتّضح الدلالة، (واجعل لنا في كل غاشية من الفتنة : بعض من الجملة يصف التشخيص، ردءا من السكينة : قابل الغاشية وهي الداهية بـ ردءا وهو القوة والمعين، وقابل الفتنة التي فيها الهرج والمرج بـ السكينة التي معناها الهدوء والطمأنينة) وهكذا كان يأتي في كل جملة بلفظتين يشخص بهما الداء ويأتي بأضدادهما راجيا من الله الدواء، ولقد كان الشيخ يختار ألفاظه بصورة دقيقة ويضعها في الجملة بطريقة أدق، ولا ينتقل من مقابلة إلى مقابلة حتى يضع المستمع في جوّ من التسليم وحال من الإذعان، يحسّ من خلاله بأهميّة هذا النوع البلاغي ومدى تأثيره فيه .

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 41 .

ومن جميل استعماله للمقابلة قوله : " جريدة البصائر هي أحد الألسنة الأربعة الصامتة لجمعية العلماء تلك الألسنة التي كانت تفيض بالحكمة الإلهيّة المستمدّة من كلام الله وكلام رسوله، والتّي كانت ترمي بالشرر على المبطلين والمعطّلين، وكانت كلما أغمد الظلم لسانا منها سلّ الحقّ لسانا لا ينثلم ولا ينبو، وتلك هي السنة والشريعة والصّراط والبصائر " [1].

كان الشيخ يتحدث مرة أخرى عن جريدة البصائر، وعودتها للصدور بعد أخذ ورد ومدّ وجزر، ولقد نقلت الفقرة كاملة حتى نرى موقع المقابلة منها، ومدى تأثيرها في السابق واللاحق، وكيف أضافت لمسة جمالية ومسحة بلاغية على الكلام : (أغمد الظلم لسانا منها سل الحق لسانا) وللشيخ في اختيار الألفاظ براعة فريدة ودقة عالية، فجاء بكلمة أغمد والتي لا تكون عادة إلاّ للسيف، وكأنّ هذه الجرائد التي ذكرها (السنة والشريعة والصراط) عبارة عن سيوف ضاق بها المستدمر ذرعا، وأيقظت مضجعه، وكانت غصّة في حلقه، وشوكة على قلبه، وكلّما أغمد سيفا منها أخرجت له الجمعية آخر صلتا صارما بتارا، وظلّت هكذا حالها حتّى جاءت جريدة البصائر، وهي سيف للحق لا ينثلم، وثبات في القيم لا ينصرم، ورفعت راية الإصلاح وما زالت ولا زالت ترفعها لحد الساعة، ولقد وظّف الشيخ هذه المقابلة بطريقة ذكية، استعمل فيها لفظين (أغمد والظلم) حتّى يعبر عن الحالة التي كانت تعيشها الجمعية، والتضييق الذي كان يمارسه الاستدمار الفرنسي على نشاطها، ثم جاء بنقيض هذين اللفظين (سل الحق) وكأنّه تعبير عن الحال واستقراء للمآل، فالصراع إذا كان بين الحق والظلم فإنّ هناك قوة ثالثة هي التي تحسم نتيجة الصراع، قوة الله رب العالمين، ولذا كان الشيخ يتحدث بهذه القوّة وهذه العزيمة، لأنّه موقن أنّ الصبح سوف يأتي وإن طال ليله وأنّ الظلام سوف ينجلي وإن طال أمده، والملاحظ في هذه الفقرة أنّ المتلقي لا يحس بقوّة كلام الشيخ ولا بثبات مواقفه إلاّ من خلال هذه المقابلة، التى أوردها وكأنّها شعاع من نور، أو قبس من قلب احترقت أوردته حزنا وألما على هذا الوطن، وكان لسان حاله : مهما حاول المستدمر الفرنسي إسكات صوت الحق فسيرجع خائبا يجر أذيال الهزيمة، وسينقلب على عقبيه منتكس الرأس مكسور الجناح .

[1] ـ المصدر السابق، ص 42 .

وفي مقام آخر يدل على حسن استعماله للمقابلة يقول : " أتدرون لماذا يغضب الناس من وصفهم بالمكروهات ولو كانت موجودة فيهم، ولا يغضبون لوصفهم بالمحبوبات إذا كانت مفقودة منهم ؟ " [1] . يتحدث في هذه الفقرة عن بعض الأمراض التي تصيب النفوس، التي تعشق المديح، وتحب الإطراء، وتكره النقد، وتبغض النصيحة، ويحاول كشف مواطن العلل للبحث عن الجواب الكافي والدواء الشافي، فجاء بهذه المقابلة، وصاغها عن طريق سؤال يحمل شطرين من جملة طويلة، لا يتضح مبتداها إلا بوصل خبرها، ولا يفهم أولها إلا بإكمال آخرها، حيث قابل ثلاثة ألفاظ لأضدادها : (يغضب مع لا يغضب، والمكروهات مع المحبوبات، وموجودة فيهم مع مفقودة منهم) والملاحظ أنّ هذه الأضداد جاء بها في جملة صغيرة، ولكنها وضعت جملة من معاني يطول شرحها، وكثيرا من الدلالات يصعب حصرها، تصلح أن تكون إشكالية لبحث طويل، أو مقدّمة لمشروع ضخم، وهذا من براعة الشيخ في طرح السؤال، وقد استعمل هذه المقابلة الطريفة ليلفت بها انتباه السامع، ويجلب إليه ذهن المتلقي، ويوجه به فكر الحائر فهذا التناقض الموجود بين الكلمات، وهذا التضاد الكامن بين العبارات، إنّما هو صورة للصراع الموجود في النفوس، والتناقض الواضح بين القول والعمل، وبين الظاهر والباطن فقد رسمت هذه المقابلة الحالة التي عليها النّاس، وشخّصت المرض بطريقة ذكية، وقد حملت في أكنافها شيئا من الإجابة ونوعا من الحل، فلا شك أنها أضفت قوة حجاجية للمعاني وقدرة إقناعية للمباني، إضافة إلى مسحة جمالية، ولطيفة بلاغة، يحس بجمالها المتذوق لكمال اللغة والعاشق لجمال البلاغة .

وقال في موضع آخر : " ولقد كانت الجمعية تعلم أنّ القوّة التي تستطيع الإسكات لا تستطيع الإنطاق، ولأن يسكت العاقل مختارا في وقت يحسن السكوت فيه، خير له من أن ينطق مختارا في وقت لا يحسن الكلام فيه ... " [2].

كان هذا جزءا من مقالة طويلة تحدث فيها الشيخ عن عودة جريدة البصائر لقرّائها، ورجوعها بعد انقطاعها، وعودة صدورها بعد غيابها، وقد وظّف في هذا المقطع مقابلتين

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 305 .
[2] ـ المصدرنفسه، ج 3، ص 43 .

صاغهما بطريقة محترفة، ووضعها بأسلوب رائق، المقابلة الأولى (تستطيع الإسكات قابها بـ لا تستطيع الإنطاق) فجاء بلفظة تستطيع وضدّها لا تستطيع وهو من ضد السلب، ثمّ جاء بالمصدر الإسكات وضدّه الإنطاق، وهذا من جميل ما جاء به فقد يسكت الإنسان أحيانا مختارا من أجل أن يحقّق مصلحة، أو يدفع ضررا، أو ينشد أمرا، فالأصل أنّ هذا السكوت من ورائه حكمة واضحة، أو مصلحة مرجحة، ويحتاج إلى قوّة تمنع صاحبها من الكلام فالقوّة بالنسبة له تكمن في القدرة التي تمنعه من الكلام وليس في الكلام، لأنّ الشيخ مما يعرف عنه الصراحة في القول، والقوة في الحقّ، وأنّه لا يخاف في الله لومة لائم، ثمّ جاء بالمقابلة الثانية (ولأن يسكت العاقل مختارا في وقت يحسن السكوت فيه، خير له من أن ينطق مختارا في وقت لا يحسن الكلام فيه)، حيث قابل يسكت بـ ينطق، وكلمة يحسن بضدها لا يحسن لفظة السكوت بلفظة الكلام، فقابل ثلاثة ألفاظ بأضدادها، ليؤكد بذلك المعاني التي أشار إليها في بداية كلامه، ويريد من خلال هذه المقابلة أن يؤكد المقولة : " الندم على السكوت خير من الندم على القول "[1]، فالشيخ علَم معروف وقامة علمية محسوبة على جمعية العلماء وآراؤه تحسب لها أو عليها، وبالتّالي فهو لا يمثل نفسه، وكل كلمة تصدر منه محسوبة وكل سكتة مدروسة، والقوى الاستدمارية تنتظر منه دون الغلط، وأيسر الزلل، حتّى تصادر أعمال الجمعية، وتغلق نواديها ومدارسها، وتوقف نشاطها وجرائدها، وليس كل ما يعرف يقال، ومن الشجاعة أحيانا ألاّ تموت .

وقال في موضع آخر : " أمّا الوسيلة الكبرى في نجاحه في هذه القيادة فهي أن يبدأ بنفسه في نقطة الأمر والنهي فلا يأمر بشيء ممّا أمر به الله ورسوله حتّى يكون أوّل فاعل له، ولا ينهى عن شيء ممّا نهى الله ورسوله عنه حتّى يكون أوّل تارك له " [2]، يتحدث هنا عن وظيفة علماء الدين الذين هم غرّة في جبين الأمة، بصلاحهم يكون صلاحها، وبأخلاقهم يسوسون أخلاقها، ولا أنفع في التربية ولا أجدى في التقويم من التربيّة بالقدوة، لأنّ التربية بالأقوال لا تعدو أن تكون تبليغا، لا تثمر عملا ولا تترك أثرا، وقد عبّر الشيخ عن هذا المعنى بهذه المقابلة حيث قابل ثلاثة معاني بأضدادها: (لا يأمر قابلها بضدّها لا ينهى، أمر به الله

[1] ـ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، تح عبد المجيد قطاش، دار المأمون للتراث، بيروت، ط 1، س 1980، ص 44 .
[2] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 109 .

ورسوله قابلها بضدّها نهى الله ورسوله عنه، فاعل قابلها بضدّها تارك)، ولقد قدمها بطريقة فيها إبداع، وساقها بأسلوب فيه دقّة، ونسج ألفاظها بحياكة نادرة فالشّرع كلّه يقوم على هذه الثنائية (افعل ولا تفعل) والفعل يكون عن طريق الأمر، وعدم الفعل يكون عن طريق النهي، ومنهما تتفرّع الأحكام التكليفيّة، ومردّ هذه الأحكام ومنهلها الرئيس الكتاب والسنة، وما عدا ذلك فرع عنهما وطريق متّصلة بهما، ولذلك حدّدت هذه المقابلة كلّ هذه المسائل في دقّة متناهية، تدلّ على تمكن الشيخ من الناحية الشرعيّة، وعلو كعبه من الناحية الأدبية، ولقد وظّف هذا كله في تقديمه النصيحة للعلماء وكيف يكون تأثيرهم في الأمة أبلغ، ودعوتهم أصدق وأنجع، وهو الحرص على الجانب العملي، وتقديمه عن الأقوال المجرّدة، فحياة النبي ﷺ كانت تكاملا بين القول والعمل، ولما وصفته عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : " كان خلقه القرآن " [1]، ولولا هذا التجسيد العمليّ للقرآن ما كان هذا التأثير البالغ في نفوس الصحابة، ولما كان لهم أن يضربوا أروع الأمثلة في الالتزام والانضباط والتحلي بمكارم الأخلاق، كما أنّ من أهم أسباب فشل الدعوة ذاك الانفصام القائم بين القول والعمل، وتلك القطيعة الظاهرة بين الدعوة القولية والسلوك الفردي والجمعي .

2 ـ 2 ـ المحسنات البديعية اللفظية : ويقصد بها المحسنات التي تعتمد بالدرجة الأولى على اللفظ والجرس الموسيقي أو الصوتي :

أ ـ السّجع :

لغـــة : السّجع هو صوت الحمام، أو هو ذلك الانسجام الواقع بين هديل الحمام، جاء في لسان العرب : " وسَجَعَ الحَمَامُ يَسْجَعُ سَجْعًا : هَدَلَ على جهة واحدة . وفي المثل : لا آتيك ما سَجَعَ الحَمَامُ ؛ يريدون الأبد . عن اللحياني : وحمام سُجُوعٌ ؛ سَوَاجِعٌ وحَمَامة سَجُوعٌ بغير هاء وسَاجِعَةٌ، وسَجْعُ الحمامة : موالاة صوتها على طريق واحد . تقول العرب : سَجَعَت الحَمَامَة إذا دَعَت وطرَّبَت في صوتها " [2]، فالسجع هو ذلك النغم الموسيقي والصوت الإيقاعي

[1] ـ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته ـ الفتح الكبير ـ، المكتب الإسلامي، السعودية، ط 3، س 1988، رقم ح 4811 ص 842

[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 150 .

الذي يصاحب هديل الحمام، والسجع يعني أيضا الاستواء والاستقامة : " سَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا : استوى واستقام وأشبه بعضه بعضا ؛ قال ذو الرمة :

قَطَعتُ بها أرضًا تَرَى وجْه رَكْبِهَا إذا ما عَلَوْهَا مُكْفَأً غَير سَـاجِعِ [1]

أي جائرا غير قاصد " [2]، ومنه يأتي معنى السّجع في البلاغة نظرا لما يحدثه من نظام في الأصوات وانضباط في الوزن والإيقاع : " والسَّجْعُ : الكلام المقفّى، والجمع أَسْجَاعٌ وأَسَاجيعٌ، وكَلامُ مُسَجّعٌ وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا وسَجَعَ تَسْجِيعًا : تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، وصاحبه سَجَّاعَةٌ وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأنّ كل كلمة تشبه صاحبتها ؛ قال ابن جنّي : سُمّي سَجْعا لاشتباه أواخره وتناسب فواصله وكسره على سجوع " [3]، ومن خلال ما سبق يتّضح أنّ السجع من ناحية اللغة لا يخرج عن مفهوم الترتيب والتنظيم والصوت والإيقاع والوزن والتناسب والتشابه، وهذه كلّها قد تجتمع في الكلام المسجوع لما يحدثه من جمال في الإيقاع، وحسن في تتابع الأوزان، وزيادة ترتيب بين الفواصل، جاء في القاموس المحيط : " السَجْعُ : الكلام المقفّى، أو موالاة الكلام على رويّ " [4]، ونحو هذا الكلام ورد في لسان العرب : " الكلام المقفى، والجمع أَسْجَاعٌ وأَسَاجِيعٌ، وكلام مُسَجَّعٌ وسَجَعَ يَسْجَعُ سَجْعًا وسَجَّعَ تَسْجِيعًا : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن، وصاحبه سَجَّاعَةٌ، وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه، كأنّ كل كلمة تشبه صاحبتها " [5]، ومنه سُمّي السجع سجعا لتشابه الكلمات في الرويّ، أو لتشابه الأوزان، أو للصّوت الجميل الذي يحدثه عند استعماله .

اصطلاحا :

لا يختلف المعنى الاصطلاحي للسّجع عن معناه اللغوي فقد عرّفه عبد العزيز عتيق : " توافق الفاصلتين من النثر على رويّ واحد " [6]، وأرجع هذا التعريف إلى قول السكّاكي عند حديثه عن السّجع كما جاء في المفتاح : " وهي في النّثر كما في القوافي في الشّعر، ومن جهاته الفواصل القرآنية، والكلام في ذلك ظاهر " [7]، والحقيقة أنّ تعاريف السّجع في كتب

[1] ـ غيلان بن عقبة بن مسعود (ذي الرمة)، ديوان ذي الرُمّة، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 1995، ص 166.
[2] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 150 .
[3] ـ المرجع نفسه الصفحة نفسها .
[4] ـ فيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 727 .
[5] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 8، ص 150 .
[6] ـ عبد العزيز عتيق، علم البديع، ص 215 .
[7] ـ السكاكي، مفتاح العلوم، ص 431 .

البلاغة كلّها متقاربة وتكاد تكون على قالب واحد، وهو توافق فاصلتين أو أكثر في الرويّ أو في الحرف الأخير ومثاله قوله تعالى : ﴿ **وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) كَلَّا وَالْقَمَرِ (32) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (33) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (34) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ (35) نَذِيرًا لِلْبَشَرِ (36) لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ (37)** ﴾ (سورة المدثر، الآية 31 - 37) ، حيث اتّفقت كلمات الفواصل كلّها في حرف الرّاء، ومثاله أيضا قول النبي ـ ﷺ ـ : " إنّ الله كره لكم ثلاثا : قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال " [1]، ومن شواهد أقوال العرب : (من أخّر الأكل لذّ طعامه، ومن أخّر النوم طاب منامه . من كرم أصله لان قلبه، ومن قلّ لبه زاد عجبه) [2] .

يعد السّجع من ضوابط الإيقاع، يزيد الكلام جمالا، ويضيف إليه ترنّما، خاصّة إذا كان اعتباطيّا غير متكلف، وسلسا غير معقد، وسهلا غير مبتذل، فتساند الكلمة الكلمة لتشكل المعنى، وتوضح الدلالة، وترفع اللّبس، وحتّى يكون كذلك يجب أن لا يكون مقصودا لذاته، بل يفرض وجوده، ويبسط سلطانه، لأنّ الحاجة اقتضته، والمعنى ألزمه، فلا يُلجَأ إلى غريب المعنى لأجله، ولا تُلوى أعناق النصوص لحضوره، وذلك حتّى يكون به تمام المدلول وزيادة الوضوح، لأنّ تكرار المعنى من أجل السّجع : عيب في الكلام، وحشو لا مُسَوّغ له .

وينقسم السّجع إلى أربعة أقسام (المطرّف، والموازي، والمشطّر) [3] :

ـ المطرّف : توافق الكلمات في الحرف الأخير أو ما يعرف بالرويّ، واختلافها في الوزن مثاله قوله تعالى : ﴿ **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (13) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (14)** ﴾ (سورة نوح، الآية 13 - 14)، حيث جاءت وقارا على وزن فعالا، وأطوارا على وزن أفعالا، والروي نفسه وهو (را) .

ـ الموازي : توافق الكلمات في الوزن والرويّ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ **فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (14)** ﴾ (سورة الغاشية،الآية 14) ، فجاءت (مرفوعة وموضوعة) على نفس الوزن مفعولة .

---

[1] ـ البخاري، صحيح البخاري، رقم 1477، ص 360 .
[2] ـ شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف، ص 31 .
[3] ـ ينظر كتاب المتقن لغريد شيخ، ص 149 وما بعدها .

ـ المشطّر : وهو خاصّ بالشعر، يكون لكل شطر قافيتان تتفقان في الشطر، وتختلفان فيما بين الشطرين، ومثاله قول أبي تمام :

تَدْبيرُ مُعْتَصِمٍ بالله مُنْتَقِمٍ لله مُرتَقِبٍ في الله مُرتَغِبِ [1]

ـ المرصَّع : مقابلة كل لفظة في الجملة الأولى بما يقابلها في الجملة الثّانية، بمعنى يكون التوافق في أكثر من كلمة، على نفس الوزن والرّوي :

ومثاله قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (13) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ (14)** ﴾ (سورة الانفطار،الآية 13 - 14) ، فكان توافق (الأبرار مع الفجار) على نفس الوزن ونفس الرّوي، (ونعيم وجحيم) على نفس الوزن ونفس الرّوي .

وقد يقسّمه بعضهم على حسب طول الفاصلة وقصرها إلى نوعين (قصير وطويل) فإذا كانت الفواصل متقاربة وصغيرة كان السّجع قصيرا ومثاله قوله تعالى : ﴿ **يَآ أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (7)** ﴾ (سورة المدثر، الآية 1 - 7) ، وإذا كانت الفواصل طويلة ومتباعدة المفردات بين المسجوعين كان السّجع طويلا، ومثاله قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنَ اَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ (9) وَلَئِنَ اَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ (10)** ﴾ (سورة هود، الآية 9 - 10) .

ـ السّجع عند البشير الإبراهيمي :

كان البشير يكثر جدّا من استعمال السّجع سواء في خطبه أو في مقالاته، والملاحظ عند استعماله للسّجع إتيانه به من غير تكلّف، ولا إخلال بالمعنى، ولا إقحام للألفاظ مستعينا في ذلك بشساعة اللّغة العربية، ووفرة معانيها، وتمكّنه المدهش من أسرارها، وتبحّره في علومها :

ومن ذلك ما قاله في كلمة ألقاها بمناسبة المولد النبويّ المشرّف : " لو فهمنا المولد المحمّدي بهذه المعاني لكان إظلاله لنا في كل عام تجديدا لهممنا، وإيقاظا لشواعرنا، وصقلا

[1] ـ الخطيب التبرزي، ديوان أبي تمام، تح محمد عبدو عزام، دار المعارف، لبنان، ط 5، بد س، ص 58 .

لأذهاننا، وجلاء لأرواحنا، ولكانت آثار ذلك سموّا في أرواحنا، وسدادا في آرائنا، وتحوّلا إلى الخير في أحوالنا، وجمعا لكلمتنا في الحقّ، وتوحيدا لصفوفنا في النوائب. ولكنّنا فهمناه على قياس من عقولنا وهي جامدة، وعلى نحو من هممنا وهي خامدة، وعلى نمط من عاداتنا وهي سخيفة، وقصرناه على هذه التوافه : لعب للصغار ليس فيها فائدة، وخُطب للكبار ليس فيها عائدة " [1]، يتجلّي في هذا المقطع جمال السّجع ودوره الموسيقي وحسنه الإيقاعي، ويظهر ذلك بداية في استعمال الشيخ لنون جماعة المتكلمين : (هممنا، شواعرنا، أذهاننا، أرواحنا، آرائنا، أحوالنا، كلمتنا، صفوفنا) وهو من السّجع المطرّف في مجموع فواصله، مع استعمال السجع المتوازي في بعض فواصله (أذهاننا، أرواحنا، أحوالنا)، وهذا ممّا يحسب له فقد عدّ نفسه واحدا من الجماعة، وجزءا من الكلام، وطرفا في المعادلة، وهذا أوقع في النّفوس، وأدعى للتأثير، وأقوى في الحجاج، فأصاب بذلك هدفين : تقديم المعنى الذي يريد، وحسن تقديم المعنى بطريقة لافتة وأسلوب شائق، فكان يستطيع أن يقول : لو فُهم المولد المحمدي بهذه المعاني لكان إظلاله على البشرية في كل عام تجديدا للهمم، وإيقاظا للشواعر، وصقلا لأذهان، وجلاء للأرواح، ولكانت آثار ذلك سموا في الأرواح ... ولكن استعمال نون جماعة المتكلّمين أدّى إلى هذا الانسجام وهذا الإيقاع الرّاقي، وقدّم المعاني بصورة غاية في الجمال، وبطريقة غاية في الروعة .

ثمّ انتقل الشيخ في الفقرة الموالية إلى استعمال نوع آخر من السّجع وهو السّجع المرصّع وذلك في قوله : (لعب للصغار ليس فيه فائدة، وخُطب للكبار ليس فيه عائدة) حيث اتّفق الوزن في أكثر من فاصلة (صغار، كبار)، (ليس فيه عائدة، ليس فيه فائدة) مع استعمال السجع المتوازي في قوله : (على قياس من عقولنا وهي جامدة، وعلى نحو من هممنا وهي خامدة) بين (جامدة وخامدة) كلاهما على وزن فاعلة .

ومن جميل سجعه أيضا : " قَرَن الإسلام كلّ واحد من العيدين بشعيرة من شعائره العامّة لها جلالها الخطير في الروحانيّات، ولها خطرها الجليل في الاجتماعيّات، ولها ريحها الهابّة بالخير والبر والإحسان والرحمة، ولها أثرها العميق في التربية الفردية والجماعيّة التي لا

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 4، ص 143 .

تكون الأمّة صالحة للوجود نافعة في الوجود إلا بها، هاتان الشعيرتان هما شهر رمضان الذي جاء الفطر مسك ختامه، وكلمة الشّكر على تمامه والحجّ الذي عيد الأضحى بعض أيّامه، والظّرف الموعي لمعظم أحكامه، وناهيك بالشعيرتين منزلة بين شعائر الإسلام " [1]، حيث يتظهر في هذه المقطع حسن استعمال السّجع مع البراعة في توظيف الألفاظ التي تخدم المعنى المطلوب على الوجه المرغوب (الروحانيّات والاجتماعيّات) فجاء السّجع خادما للمعنى وجزءا من التركيب دون ابتذال ومن غير تكلّف، وقد استعمل جمع المؤنث السّالم ليحقّق هذا الغرض فيكون التوافق في ثلاث حروف (يات) بدل حرف واحد (ي)، ثمّ انتقل في الفقرة الثّانية استعمال السّجع بين أربع كلمات (ختامه، تمامه، أيّامه، أحكامه) وهو ما أدّى إلى إيقاع سلس، وتقارب في الأصوات لتقارب أوزان الأفعال، مع التوافق في ثلاث حروف (امه) اثنان منهما أصل في الكلمة (ام)، إضافة إلى الضمير المتصل (ه) الدّال على المفرد الغائب، وهي حركة لطيفة، ولفتة ظريفة، تزيد من جمال الإيقاع، فالتّوافق في ثلاث حروف يكون أجمل من التوافق في حرفين، وهذا لا يصلح إلا إذا كان هناك توافق في حركة الميم كما في المثال السابق، حيث جاءت الميم مجرورة في الكلمات الأربع، ولو تغيّرت حركتها في أحد الكلمات لكان هناك نشاز في الإيقاع، واختلال في الوزن، ولأذهب ذلك الصبغة الجماليّة الواقعة في هذه الفقرة .

وقال أيضا يتحدث عن يوم العيد :" يا عيد لو عدت على قومي بالخفض والدّعة، أو جدت عليهم باليسر والسّعة، لوجدت منّي اللسان الخافق بذكرك، والقلم الدّافق بشُكرك؛ ولكنّك عدت عليهم بنهار كاسف الشّمس، ويوم شرّ من الأمس ؛ فاذهب كما جئت فلست منك ظاعنا ولا مقيما، وعد كما شئت فلست منّي حميدا ولا ذميما "[2]، يظهر من خلال هذه الفقرة الجمال الإيقاعي، والقدرة الإقناعية الكامنة في السّجع، فالعرب من عادتهم التّأثر بالكلمة الجميلة، واللّفظة الرقيقة، وقد وظّف الشيخ الأسجاع هنا بطريقة ذكيّة، وأسلوب لافت، احتوى على بساطة الألفاظ، وشهرة الكلمات، وخلوٍّ من التعقيد، وبعدٍ عن التّشتيت، وكأنّ كلماته جمعتها الحاجة، واقتضتها الضرورة، حيث استعمل السّجع في الجملة الأولى بين (الدّعة،

[1] ـ المصدر السابق، ص 292 .
[2] ـ المصدر السابق، ج 3، ص 480 .

والسّعة) وهو من السّجع المتوازي اتّفقت فيه الفاصلتان في الوزن (العلة)، وفي الروي (عة) ثمّ انتقل في الجملة الثّانية إلى السّجع المرصّع بين (الخافق بذكرك والدّافق بشكرك) فكان التوافق في الوزن بين (الخافق، والدافق) كلاهما على وزن (فاعل)، وأيضا بين (ذكرك وشكرك)، واتفقا في الروي (ك) والحرفين الذين وقعا قبله (كرك)، وجاء في الجملة الثّالثة بنوع آخر من السّجع بين (مقيما) على وزن فُعيلا، وبين (ذميما) على وزن فَعيلا، وهو من السجع المطرّف اختلفا في الوزن واتفقا في الروي (ما) ، والملاحظ في هذه الفقرة هذا التنويع بين استعمال السجع واستعمال الفواصل الصغيرة، وهو من أجمل أنواع السّجع، وقعها الموسيقي ظاهر، وجمالها التركيبي بيّن وتأثيرها البلاغي واضح، وقوّتها الحجاجية جليَّة، تحسّ من ورائها الحالة النّفسية التي كان عليها الشّيخ، والتي نقلها إلى المستمع والقارئ بطريقة أدبيّة راقية، فأعطاه شيئا من أحزانه وقاسمه جزءا من آلامه، ويبقى هذا سرّا من أسرار اللّغة العربيّة، ولغزا من ألغاز الذوق العربي، ولذا كان الكهّان يستعملون السّجع للتأثير على النّاس، وكان الشّعراء يتنافسون في استعمال أجمل الأوزان لتزيين أشعارهم، وللتّأثير في القارئ والمستمع، ولا يتجلّى جمال السّجع إلا من خلال حسن استعماله، ومن خلال اختيار الألفاظ المناسبة التي تكون وعاء له .

وقال في موضع آخر :" عباد الله لو كانت كلمة الحقّ توازن بالذّهب، أو تقدّر بالمال والنّشب، لكانت كلمة عليّ ـ رضي الله عنه ـ هي تلك الكلمة، وفوقها قدرا وقيمة تلك الحكمة التي ثقّفتها الفكرة العالية ومحّضتها الخبرة الراقية، وهي قوله ـ رضي الله عنه ـ : (قيمة كل إنسان ما يحسنه)، يبيّن لنا رضي الله عنه وهو مصدر البيان، وينبوع التّبيان، أنّ الأعمار هي الأعمال، وبالإحسان فيها تتفاوت قيمة الرّجال، وأن ذلك لا يرجع إلى وزن بميزان، ولا كيل بقفزان، وإنّما هو عقل مفكر، ولسان متذكّر، ومن لا عمل له فلا عمر له، ومن لا أثر له في الدّين يمتثل به أمر ربه، ولا أثر له في الدنيا تزدان به صحيفة كسبه، فوجوده عدم، وعقباه ندم، وحياته مسلوبة الاعتبار، وإن شارك الأحياء في الصفة والمميّزات " [1].

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 65 .

هذا جزء من أول خطبة ألقيت في جامع رأس الوادي عند افتتاحه، يظهر من خلالها توسّع الشّيخ في استعمال السّجع من غير تكلّف ولا تعسّف، ومن غير اجترار ولا تكرار، فألفاظه واضحة بيّنة، ومعانيه ظاهرة جليّة، وقد اعتمد فيه على قصر الفواصل وتنوع الأسجاع وهذا يدلّ على أنّ جمال السّجع يخضع لقواعد تضبطه، ونواميس تسيّره، فهو ليس مقصودا لذاته، وإنّما حضوره كالملح للطعام، من تجاهله خلا طعامه ممّا يزيده حسنا ويعطيه حلاوة، ومن أكثر منه لغير حاجة كان طعامه مالحا، ومذاقه فاسدا، لأنّه يُلجئ صاحبة إلى استعمال غريب اللّفظ، ومبهم المعنى، وهو الذي حذّر منه النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قضى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في الجنين بغرّة عبد أو أمة، فقال الذي قضى عليه، أيُعطى من لا شرب ولا أكل، ولا صاح فاستهل، فمثل ذلك يطل، فقال النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: إنّه ليقول بقول شاعر بل فيه غرّة عبد أو أمة " [1]، قال ذلك كراهة للسّجع الذي جاء به، وفي رواية عكرمة عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ : قال ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ : أسجع كسجع الجاهليّة " [2]، وإنّما كره النبيّ السّجع الذي فيه غلوّ وإسراف وليّ لأعناق النّصوص، وتكلّف في توظيف المفردات، وإيغال في استعمال الألفاظ، وغرابة في الدّلالة والمعاني، وتشبّه بالنسّاك والكهّان، وإلاّ فالسّجع ظاهر في القرآن الكريم، وبَيّن في أحاديث النبيّ ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ، قال ابن تيمية : " إن كان القصد بالسّجع الرياء والسّمعة والتّصنع بالفصاحة، فهو حرام، وإن كان القصد به وزن الكلام لتميل النّفوس إلى قبوله والعمل بموجبه فلا بأس به في الخطب وغيرها " [3] .

وقد كان الإبراهيمي يعدّ السّجع من الجمالات التي تزيّن الكلام، وتحسّنه لدى القارئ والسّامع، وله أثره في النّفوس ووقعه على القلوب، وهو ممّا لا شك فيه يزيد من هيمنة الحجاج وقوّة الإقناع، وللشّيخ أيضا مقالات خاصّة استعمل فيها السّجع بشكل لافت، قد يصفه البعض بالمبالغة والغرابة، سمّاها بسجع الكهان، وقد بيّن العلة في ذلك بقوله : " ... فلعلّها تهزّ من أبناء العروبة جامدا، أو تؤزّ منهم خامدا، فنجني شيئا من ثمرة النيّة، ونغيّر أواخر هذه

[1] ـ محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الكبير، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، س 1996، م 3، ص 79 .
[2] ـ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 12، ص 248 .
[3] ـ العز بن عبد السلام، كتاب الفتاوى للإمام العز بن عبد السلام، تح عبد الرحمان عبد الفتاح، دار المعرفة، بيروت، ط 1، س 1986، ص 77.

الأسماء المبنيّة، وفي هذه الفصول من لبوس الألفاظ ما يعدّه المتخلّفون من كتّابنا غريبا، وما غرابته في أذواقهم إلاّ كغربة الأعلاق النّفيسة في أسواقهم، ولو حفظوه ووعوا معانيه وأقرّوه في مواضع من كلامهم وأحسنوا إجراءه في ألسنتهم وأقلامهم لأحيوه فحيوا به، ولأصبح مأنوسا لا غريبا، وأصبحوا به من لغتهم قريبا ولكن أعياهم الإحسان، فعفّروا في وجوه الحسان، وعجزوا في جني الثمرة من الهصر، فرضوا من اللّغة بما يباع في سوق العصر " [1].

والحقيقة أنّ هذا نوع من الفنّ يخالف سجع الكهان في الغرض والأهداف، ونسبته إلى المقامات أقرب، وشبهه بها أدعى وأنسب، لأنّ الغاية من سجع الكهان تضليل النّاس والتأثير فيهم من أجل سلب أموالهم ونهب كرائمهم، أمّا الغاية من المقامات الحفاظ على ألفاظ اللّغة العربيّة وتسهيل حفظها على الطلاّب والدارسين، وقد قال الشيخ مبيّنا رأيه في سجع الكهّان : " كلام الكاهن ليس بالواهي ولا الواهن، كأنّما وخزه الماء، أو لمسته السّماء، ففيه من الماء إيراق، وفيه من السماء إشراق، شارف مكامن الغيوب ولمّا، وورد معين العربية فورد جمّا، عمّر صحائف من ديوان العرب، وكان من شعرهم كالكرب من القرب بل كان هو الشعر في أوّل أدواره، وكان قارع باب البيان وفارع أسواره، اصطنع الكهّان السّجع ليروقوا السّامع ويروعوه، وليسهل على النّاس فيحفظوه ويعوه، ولهم في حوك الكلام مقامات حسان، أخذ منها ابن دريد والهمذاني تلك المقامات الحسان سبقوا في السّجع فما سبقتهم إلا الحمائم، وأخذوه طبعا فما لحقهم فيه صنعا إلا بعض أصحاب العمائم، وما عدا هذا من الأسجاع، فهي غصص تتبعها أوجاع " [2]، وهذا من لطيف نظمه وجميل كتاباته ورسمه، فسجع الكهّان وإن كان غرضه مكروها يبقى موردا أدبيا ضخما ومنهلا علميا كبيرا، وضع الأسس الأولى للأوزان والإيقاع، ووضع القواعد الأولى للخطب والأشعار، وكان بعد ذلك النّواة لما يعرف بالمقامات، وحافظ بشكل كبير على جمال اللّغة العربية وحسن نظمها، وقد أبدى الشيخ من خلال هذه المقامات قدرته الأدبيّة الكبيرة، وتمكّنه المدهش من الغوص في أسرارها، والخوض في بحارها فكان آية زمانه في اللّغة، وفريد عصره في الفصاحة، وكان يستعمل السّجع بطريقة سلسة ليس فيها تعقيد وليس فيها مكابرة وافتخار، فحرصه على اللّغة العربية ومحاولته الحفاظ على

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 3، ص 518 .
[2] ـ المصدر السابق، ص 519 .

موروثها الثّقافي ألجأه إلى استعمال هذا النّوع الأدبي، وقد نقلت جملا مطولة منها حتّى تبقى شاهدة على ذلك .

ب ـ التكرار :

لغة : مصدر على وزن (تَفْعال) ومعناه الرجوع والتردّد والإعادة مرّة بعد أخرى، جاء في لسان العرب : " الكَرُّ : الرُجُوعُ . يقال : كَرَّه وكَرَّ بنفسه، يتعدّى ولا يتعدّى . والكَرُّ : مصدر كَرَّ عليه يَكُرُّ كَرًّا وكُرُورًا وتَكْرَارًا : عطف . وكَرَّ عنه : رَجَع، وكَرَّ على العدو يَكُرُّ ورجل كَرَّارٌ ومِكَرٌّ، وكذلك الفرس . وكَرَّرَ الشيء وكَرْكَرَه : أعاده مرة بعد أخرى . والكَرَّةُ : المَرَّة، والجمع الكَرَّات . ويقال : كَرَّرْتُ عليه الحديث، وكَرْكَرْتُه إذا رَدّدْتُه عليه " [1]، وقد فرّق ابن منظور بين التَّكرار بفتح التاء والتِّكرار بخفضها، فجعل الأولى اسما والثّانية مصدرا : " قال أبو سعيد الضّرير قلت لأبي عمرو : ما بين تِفْعَال وتَفْعَال ؟ فقال : تِفْعَالٌ اسم، وتَفْعَالٌ بالفتح مصدر "[2]، والواضح أنّ التَّكرار بالفتح هو الأصحّ والمشهور، وهو الأقرب إلى القياس فكل المصادر على وزن (تَفعال) تكون مفتوحة التّاء كـ : تَذكار وتَرداد وتَجوال وتَرياق... وغيرها : " ذكر أهل العربية أن جميع المصادر التي جاءت على وزن ـ تَفْعال ـ هي بفتح التّاء، إلا مصدرين وهما تِبيان وتِلقاء وقال بعضهم وتِنضال أيضا " [3]، وعَدَّ ابن العربي في كتابه أحكام القرآن بضعة عشر اسما على وزن تِفعال منها : تِمثال وتِمساح وتِضراب وتِقصار... إلخ جمعها أحد الشعراء في نظم طريف على بحر الرجز .

ـ اصطلاحا :

التّكرار ظاهرة موسيقيّة ومعنويّة تقتضي الإتيان بلفظ متعلّق بمعنى، ثمّ إعادة اللّفظ مع معنى آخر في نفس الكلام أو هو : " إعادة اللّفظ الواحد بالعدد أو بالنّوع أو المعنى الواحد بالعدد أو بالنّوع في القول مرّتين فصاعدا " [4]، أو كما جاء في قاموس اللّغة العربيّة المعاصرة " الإتيان بعناصر متماثلة في مواضع مختلفة من العمل الفنّي وهو أساس الإيقاع بجميع صوره

[1] ـ ابن منظور، لسان العرب، ج 5، ص 135 .
[2] ـ المرجع نفسه، ص 135 ـ 136 .
[3] ـ أبو محمد القاسم بن علي الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، مكتبة المثنى، بغداد، بد ط، بد س، ص 143 .
[4] ـ أبو القاسم السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط 1، س 1980، ص 476 .

فنجده في الموسيقى كما نجده أساسا لنظرية القافية في الشّعر " [1]، ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُومِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا** ﴾ (النساء، الآية 103) ، فكلمة الصلاة تكرّرت في هذه الآية ثلاث مرّات، وهو أسلوب معروف عند العرب ومن الخصائص الفنّية للشعر وللنثر، وقصيدة الحارث بن عباد قصيدة مشهورة تشهد على ذلك :

قرّبا مَرْبِطَ النّعَامَةِ مِنّي لَقِحَتْ حَرْبُ وَائلٍ عن حِيَالِ

قرّبا مَرْبِطَ النّعَامَةِ مِنّي جَدَّ والله جَدُّ بَأْسٍ عُضَـــالِ [2]

فقد كرّر هذا الشطر(قرّبا مَرْبِطَ النّعَامَةِ مِنّي) ثلاثا وأربعين مرّة، دلالة على مدى الرغبة في الثأر لابنه بُجَير الذي قتله المهلهل، وهذا الذي جعل المهلهل يردّ عليه بقصيدة مماثلة جاء فيها :

قرّبا مَرْبِطَ المُشَهّرِ مِنّي لِكُلَيبٍ الذي أَشَابَ قَذَالِي

قرّبا مَرْبِطَ المُشَهّرِ مِنّي واسْأَلَانِي ولَا تُطِيلَا سُؤَالِي [3]

حيث كرّر شطر (قرّبا مَرْبِطَ المُشَهّرِ مِنّي) في أربعة عشر بيتا، دلالة أيضا على استعداد قومه لمواجهة الحارث بن عباد مع قومه، ولولا تأثّره بقصيدة الحارث وشيوعها عند العرب لما أجابه بالمثل، وهذا يدلّ أيضا على شيوع أسلوب التّكرار واستحسانه لدى الشعراء .

والتّكرار ظاهرة صحّية إذا كانت مقصودة لغرض معيّن، ولقد كان صلّى الله عليه وسلّم في كثير من الأحاديث يستعمل هذا النّوع الأدبي، من أجل تحقيق غرض ما، إمّا للتأكيد، أو للتذكير أو لزيادة الترغيب، أو للتّخويف والتّرهيب، أو لترك أثر إيقاعي في نفوس صحابته ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ، أو لغير ذلك من الأغراض، ومن أمثلة ذلك :

ـ قوله صلّى الله عليه وسلّم : " ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متّكئا فجلس؛ فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور فما زال

[1] ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، م 4، ص 1919 .
[2] ـ الحارث بن عباد، ديوان الحارث بن عباد، تح أنس عبد الهادي، أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط 1، س 2008، ص 199 .
[3] ـ مهلهل بن ربيعة (الزير سالم)، ديوان مهلهل بن ربيعة، تح طلال حرب، الدار العالمية للنشر، القاهرة، بد ط، بد س، ص 71 .

يكرّرها حتّى قلنا ليته سكت " [1]، فهذا التّكرار يعطي للمعنى أبعادا إضافية، ودلالات ثانوية، فتكرير القسم من باب التوكيد، وبيان عظم المقسم عليه، ومن باب تنبيه الغافل، وتذكير السّاهي أيضا، وتكرار قوله صلّى الله عليه وسلّم " ألا وقول الزور، وشهادة الزور "، لبيان خطر هذه الجريمة فشهادة الزّور أعظم من الكذب، لأنّ الكذب هو ستر الحقّ، بينما شهادة الزور هي هدم الحقّ وإقامة الباطل مكانه، فكان هذا التّكرار زيادة لإيضاح هذه المعاني، وتأكيد تأثيرها في النّفوس .

ـ ومن أمثلة ذلك أيضا قوله عليه الصّلاة والسّلام : " ألا أدلّكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا بلى يا رسول الله، قال : إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط " [2]، فقد كرّر فذلكم الرباط مرتين، وكان إيقاع الثانية أشدّ من الأولى، لأنّه تأكيد للمعنى، وقوّة في الحجّة وزيادة في الدلالة .

ـ التكرار عند البشير الإبراهيمي :

لقد كان الشيخ البشير الإبراهيمي يكثر من تكرار الكلمات وأحيانا الجمل على حسب الغرض الذي يريده، والغاية التي يرجوها، والهدف الذي يرسمه، فتارة من من باب التأكيد، وأخرى من أجل التنبيه، أو الاستعطاف، أو التأثير النّفسي، أو لربط المعاني، أو توجيه المستمع وغيرها من الأغراض ومن أمثلة ذلك :

الكلمة التي عرّفها الحسن القادري الذي نقلها عنه بالعزيمة، وهو ما يلقى على المريض من الكلام الذي يرجى من ورائه الشّفاء وخروج الجانّ من جسده، ومع أنّ الكلمة قالها الشّيخ من باب الدعابة والطرفة إلا أنّها حوت علما جمّا، وتراثا لغويا زاخرا بأسماء الأماكن والأشخاص، تشهد على الثقافة الواسعة التي كان يتمتّع بها الشّيخ :

" يا عفريت إن كنت من الجنّ فأسألك بما مضى من عالم الحنّ ...

يا عفريت أسألك بذمّتك الخربة، ورمّتك الجربة ...

[1] ـ ابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ت محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية ـ القاهرة، س 1953، 2 / 293 .
[2] ـ مسلم، صحيح مسلم، رقم 251، ص 219 .

يا عفريت إن كنت متألّها فأسألك بالمذاهب السّاسانيّة، والنّحل الخراسانيّة ...

يا عفريت إن كنت عربيّا فصيحا قلنا لك : لا يعتدي على حرمة البريد، إلاّ كلّ شيطان مريد ...

يا عفريت لا أسألك بالرجل المذّاء ولا بخالد الحذّاء ..." [1] .

فقد كرّر كلمة (يا عفريت) خمس مرات، واستعمل في ذلك حرف النداء والتنبيه (يا) التي تستعمل عادة في لفت انتباه السّامع إلى ما بعدها من الخطاب، والخطيب يحتاج إلى استعمال هذه الأساليب ليعيد أسماع المخاطبين إلى خطبته، وينبّه الغافلين إلى كلامه، ويوجّه الحائرين إلى مراده، وليربط أيضا أجزاء الخطبة ويلحق آخرها بأوّلها، فلو دخل شخص في وسط الخطبة لما عرف المقصود من الكلام، ولضاع بين المفردات لولا هذا النّوع من التّكرار، الذي يبقي على الوحدة الموضوعيّة، ويحافظ على النّسق العامّ للخطبة .

وقال في الخطبة نفسها : " يا عفريت أسألك بذمّتك الخربة، ورمّتك الجربة ... وأسألك شرقي ساباك، وغربي الأغواط، وجنوبي الرباط، وشمالي الفسطاط ... وأسألك بشيخ مزغنة، وأحلاف بوكردنه، وكل من فيها من كنه ... " [2]، فقد كرّر كلمة (أسألك) ثلاث مرّات، التي تعني الالتماس والطّلب وقد كرّرها من باب الدّعابة لا غير، والمقالة كلّها عبارة عن طرفة أراد من خلالها الشّيخ التّنفيس على القرّاء والتّنكيت بطريقة أدبيّة راقيّة، وأسلوب إبداعي رائق .

وفي موضع آخر يتحدث فيه عن يوم العيد : " يا عيد لو عدت على قومي بالخفـــض والدّعة ... يا عيد لست بالنّحس ولا بالسّعيد، وإنّما النّاس لأعمالهم ... يا عيد كنـّـا نلتقي فيك على ملك اتّطدت أركانه ... يا عيد إنّ لقياك اليوم بالاكتئاب، فتلك نتيجة لاكتساب ... " [3]،

حيث استعمل حرف النّداء (يا) للتنبيه، وشخّص العيد ووجّه له خطابا يشكو من خلاله حال الأمّة، والفارق بين زمنين، والمفارقة بين عصرين، وقد كرّر كلمة (يا عيد) أربع مرّات، والنّداء عادة لا يكرّر إلاّ لاحتمالين، الأوّل : أنّ المنادى لا يسمع، والثّاني : أنّ المنادى لا يريد

[1] ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 2، ص 104 - 107 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 105 .
[3] ـ المصدر نفسه ، ج 3، ص 482 .

أن يسمع، فيكون التّكرار في الأوّل محاولة إسماعه، وفي الثّاني محاولة استعطافه، والحقيقة أنّ النداء لم يكن موجّها للعيد، وإنّما للأمّة التي تحتفل بالعيد، وما كانت هذه النّداءات إلّا محاولة من الشيخ مخاطبة الضّمائر النائية، وإسماع النفوس الغائبة، وإيقاظ المشاعر النّائمة .

وفي رثائه لمحمّد أبي شنب يقول :

" مات محمّد فعرفت الطّائفة هذه من مات ...

مات محمّد فأسف العارفون لفضله على فضله ...

مات محمّد فأيقن زملاؤه وشركاؤه في الصنعة أنّهم فقدوا بفقده ركنا من أركان العلم ...

مات محمّد فلم يخسر تلامذته تعليمه وإرشاده ونصحه واجتهاده ... " [1] .

كرّر (مات محمد) أربع مرّات، وفي كل مرّة يسوقك إلى معاني جديدة ودلالات أخرى، بل تحسّ مع كل كلمة بمعاني الألم وعظم الفاجعة، وقيمة هذا الرّجل الذي شيّعه أصحابه وبكاه عارفوه وأحبابه، فقد مات محمّد ومات بموته خلق كثير، وفقدته السّاحة العلميّة والنّوادي الأدبيّة، وكلما كرّر كلمة (مات محمّد) تأتيك الفاجعة بثوب جديد، وتنزل عليك بوقع مغاير، فيها أنواع الشجن وألوان الحزن ما يحرك القلوب ويهيج النفوس، وهذا هو التأثير الذي يؤدّي إلى استمالة المستمعين، والذي يدفعهم إلى الإقناع الممكن الذي يتحوّل فيما بعد إلى أخلاق وسلوك، كما أنّه استعمل التّكرار للرّبط بين عناصر الخطبة، وللانتقال من فقرة إلى فقرة من أجل تعديد مناقب الرّجل، والإكثار من ذكر فضله حتّى يحس المستمع بعظم الفاجعة وكبر المصيبة .

ـ وقد استعمل الشيخ الأسلوب نفسه عند مخاطبة قبر حبيبه ورفيق دربه ابن باديس :

" يا قبر عزّ على دفينك الصّبر، وتعاصى كسر القلوب الحزينة ...

يا قبر ما أقدر الله أن يطوي علما ملأ الدنيا في شبر.

[1] ـ المصدر السابق، ج 1، ص 45 - 46 .

يا قبر ما عهدنا قبلك رمسا وارى شمسا ...

يا قبر قد فصل بيننا وبينك خط التواء، لا خط استواء ...

يا قبر أتدري من حويت ؟ وعلى أي الجواهر احتويت ؟ ...

يا قبر أيدري من خطّك، وقارب شطّك ...

يا قبر لا نستسقي لك كل وطفاء سكوب ... " [1] .

فقد كرّر (يا قبر) سبع مرات، مع كل مرّة يضيف معنى جديدا، ويزيد دلالة إضافيّة ويستهل جملة أخرى، فكان التّكرار همزة وصل بين تلك المعاني المتجدّدة، وأداة ربط بين تلك الدلالات المختلفة، إضافة إلى الشجون والحزن الذي أضافه، وإلى الألم والمعاناة التي نقلها فرسم التّكرار لوحة فنّية أظهرت عبقرية الفاقد وقيمة المفقود، فالفاقد ملك زمام اللّغة وطاوعته ألفاظها ومفرداتها، وقال فأفصح، وأبان فصدق، والمفقود لا ينكر فضله، ولا يجحد قدره وفقده كان ثلمة لا تسدّ في تاريخ الأمّة الإسلاميّة، والشّيخ لم يكن يخاطب القبر وإنّما يخاطب الأمّة ويذكّرهم بقيمة عالم قل ما يجود الزمان بمثله، وفضله على الجزائر وعلى جمعيّة العلماء يشهد له العدوّ قبل الصديق .

وينتقل في المقال نفسه ليخاطب صاحب القبر فقال : " يا ساكن الضّريح، نجوى نضو طليح، صادرة عن جفن قريح ... يا ساكن الضّريح، أأكني ؟ أم أنت كعهدي بك تؤثر التصريح ... يا ساكن الضريح، متّ فمات اللّسان القوّال، والعزم الصوّال، والفكر الجوّال ... " [2]، فقد كرّر (يا ساكن الضريح) ثلاث مرّات مع كل مرّة تحسّ بأنفاس تخرج، وحسرات تتتابع وألم يتدافع، وفي كل مرّة يعدّ مناقب للفقيد تتجدّد معانيها، وتتعدّد أهدافها ومراميها، حرّك بها القلوب ليثبت بها شيئا للعقول، لأنّ الكلام كلّما كان نابعا من القلب وجد له آذانا صاغيّة وقلوبا واعية، واستعمل حرف النّداء (يا) للتنبيه، ولا يقصد بذلك تنبيه صاحب القبر وإنّما تنبيه الواقف على القبر ولذلك، وسم الشيخ هذه المقالة بـ (مناجاة مبتورة)،

[1] ـ المصدر السابق، ج 2، ص 57 .
[2] ـ المصدر نفسه، ص 57 ـ 58 .

فالمُخَاطب انقطعت به الأسباب، وأصبح دفينا تحت التّراب، وإنّما أراد الشّيخ بهذا التّكرار تحريك المشاعر، وبيان أهمّية الفقيد وعظم المصيبة في فقده .

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله : " ... فلو نطقت الأرض لأخبرت أنّها لم تشهد . منذ دحدحها الله . أمّة أقوم على الحقّ وأهدى به من أوّل هذه الأمّة، ولم تشهد . منذ دحدحها الله . مجموعة من بني آدم اتّحدت سرائرها وظواهرها على الخير مثل أوّل هذه الأمّة، و لم تشهد . منذ دحدحها الله . قوما بدأوا في إقامة قانون العدل بأنفسهم، وفي إقامة شرعة الإحسان بغيرهم مثل أوّل هذه الأمة، ولم تشهد منذ أنزل الله إليها آدم وعمّرها بذريّته مثالا صحيحا للإنسانيّة الكاملة حتّى شهدته في أوّل هذه الأمّة ولم تشهد أمّة وحّدت الله فاتّحدت قواها على الخير قبل هذه الطبقة الأولى من هذه الأمّة " [1]، كانت هذه الفقرة مثالا راقيا عن التّكرار، وشاهدا قويّا على جمال هذا الأسلوب البلاغي، فقد تعدّدت فيها الكلمات المكرّرة، حيث كرّر جملة (لم تشهد منذ دحدحها الله) ثلاث مرّات وكرر لفظة (لم تشهد) خمس مرّات، وكرّر جملة (أوّل هذه الأمّة) أربع مرات، وكرّر لفظة (أمة) سبع مرات .

فعندما استعمل جملة (لم تشهد منذ دحدحها الله) أطلق حكما عامّا، فلمّا كرّر هذه الجملة أصبح ما يأتي بعدها إثباتا لهذا الحكم، ودليلا ملموسا على صحّته، وكلّما كرّر الجملة ترسّخ الحكم في العقل وزاد تأكّده في الذهن، كما إنّ الجملة الإيقاعية تزيد في جمال النّص وتكسبه لمسة جمالية تتماشى مع الذوق العربي، وتساير الشعرية الكامنة في اللّغة العربية، شريطة أن يكون هناك تجانس بين الألفاظ وتناغم بين الكلمات، فعلى الرّغم من قصر هذه الفقرة مع العدد الكبير المكرّر من الكلمات إلاّ أنّها أعطت صورة راقية من النّظم الجميل، ولوحة فنّية بارعة الحسن من الانسجام، وهذا ممّا لا شك فيه يزيد في القدرة الإقناعية والقوّة الحجاجيّة للخطاب، فتكرار كلمة (أوّل هذه الأمّة) مثلا، يعطيك انطباعا لا شائبة فيه وحكما لا غبار عليه إنّه لا يصلح آخر هذه الأمّة إلا بما صلح به أوّلها، وأنّ الوحدة لا تُبنى إلا على القيم التي رسمها ديننا الحنيف، وطبّقها الرعيل الأوّل من هذه الأمّة الذين تحوّلوا من رعاية الغنم إلى قادة للأمم .

[1] ـ المصدر السابق، ج 4، ص 95 ـ 96 .

خـــــاتمة :

للخطابة دورها الفعّال وأهميّتها الخطيرة في توجيه المجتمعات وبناء سلوكهم، خاصّة في العالم الإسلامي، حيث يجتمع الملايين من النّاس مذعنين لكلام الخطباء، ومستمعين لهم بقلوبهم وأرواحهم مرّة في كل جمعة، ولا كلمة ساعتها تعلو فوق صوت الخطيب، له سلطان الشّرع وله سلطان القانون، ومن هنا كان لزاما على أصحاب الحلّ والعقد أن يعطوا للخطابة مكانتها وأن ينتبهوا لقيمتها ودورها، وأن يهتموا بكيفيّة النهوض بها، والسير بها قدما في ظلّ تطوّر العلوم وتكاتفها، ولقد جاءت هذه الدراسة من أجل أن تميط اللثام عن بعض الوسائل التي يمكن للخطيب أن يستعين بها من أجل تطوير أسلوبه، وتحقيق الأهداف التي جُعلت من أجلها، وقد خلصت من خلالها إلى النتائج الآتية :

ـ الخطابة من أقدم الفنون الأدبية التي عرفها العرب مثلما عرفوا الشعر، واحتلّت مكانتها المقدسة بعد بعثة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم .

ـ للخطابة أهميّتها البالغة بين أوساط المسلمين، وهي وسيلة خطيرة، وعامل مهم، لترشيد الأمّة وتنويرها، وتسهم بشكل كبير في الحفاظ على المرجعية الدينيّة والوطنيّة .

ـ تحتاج الخطابة إلى الاستعانة بالتطوّر العلمي في جميع المجالات، والأخذ منه بما يخدمها ويخرج بها من خندق النمطية والتقليد .

ـ فشل بعض الخطباء سببه الجهل بالأساليب الإبداعية، وعدم الجدّية في الطرح، إضافة إلى التقليد الأعمى الذي أدى إلى سجن القدرات العقليّة .

ـ الإقناع والاستمالة هدفان رئيسان للخطابة، ودراسة الآليات الحجاجية يخدم هذا القصد ويساعد على تطوير الخطابة وتجديدها .

ـ أهمّية الآليات الحجاجيّة في تدعيم القوة الإقناعيّة لمختلف الأساليب الخطابية خاصّة الخطابة المسجديّة .

ـ دراسة الأدوات المنطقية ضرورة مُلحّة من أجل الوصول إلى الخطاب النموذجي .

ـ يعتبر الحجاج الداعم الأوّل الذي يعطي النصّ الخطابي القدرة الممكنة لتدعيم رسالة التواصل وفتح جسر بين المرسل والمرسل إليه .

ـ الصحوة في مجال الدعوة يتطلب مواكبة الأساليب الحضاريّة، وابتكار أساليب جديدة تتماشى مع التّنمية البشرية التي فرضت نفسها في مختلف المجالات .

ـ فنّ الخطابة يستدعي ملك الآليات التي من خلالها يمكن الوصول إلى الإبداع والابتعاد عن الابتذال والتكلف .

ـ خطورة الخطابة المسجدية في ترشيد مسار الأمّة يقتضي العناية بها، ومحاولة إعطائها نفس جديد وفق منهجية علمية مدروسة .

ويمكن أيضا من خلال الدراسة الخروج بعدة توصيات منها :

ـ ضرورة إنشاء مخابر علمية تهتمّ بدراسة مختلف الأساليب الخطابية من أجل الوصول إلى قواعد علمية تنهض بالخطابة المسجديّة .

ـ التكثيف من الدورات العلمية والأيّام الدراسية التي تعنى بشكل مباشر بتحسين الخطابة المسجديّة .

ـ ضرورة رفع المستوى التكويني وترقية البرامج الموجّهة لطلبة المعاهد الإسلامية .

ـ برمجة الحجاج وآليّاته في مختلف أماكن المعاهد وكذا في برامج التكوين المتواصل الصادرة من وزارة الشؤون الدينية والأوقاف .

ـ دراسة خطب مختلف الأئمة الناجحين جماهيريًّا من أجل الوصول إلى خطاب يليق بالرّسالة .

ـ تكثيف الدراسات الجامعيّة التي تهتمّ بالخطابة مع ضرورة تسهيل الحصول عليها خاصّة بالنّسبة للخطباء والدّعاة .

الدراسات المقترحة في هذا المجال :

حاولت من خلال هذا البحث طرق أهمّ الوسائل الحجاجيّة، التي يمكن من خلالها الوصول إلى خطاب ناجح، أو على الأقل خطاب مقبول يليق بالرسالة التي يحملها، كما أنّه يمكن إفراد كل عنصر منه بدراسة مستقلّة، وربّما فتح هذا البحث بابا إلى عديدٍ من البحوث تكون له سندا وعونا والتي أقترح منها الآتي :

ـ لغة الجسد ودورها الإقناعي في الخطابة المسجدية : ويمكن أن تهتم هذه الدراسة بقراءة مختلف الحركات، التي تؤدي رسالة واضحة وبليغة، ربّما يكون أثرها أبلغ من المنطوق كعلامات الوجه، وحركة اليدين، والهندام، والعصا .... وغيرها .

ـ التواصل الغير لفظي في الخطابة المسجدية : وهذا عنوان أشمل من الأوّل، حيث يهتم إضافة لما سبق بدراسة الإشارات اللّغوية ودورها البالغ في لفت الانتباه، وتحقيق المناط كرفع الصوت في أماكن وخفضه في أخر، والنبر، وكيفية استعمال مكبر الصوت (متى يبتعد من الميكروفون ومتى يقترب)، وكيف يستفيد الخطيب حتّى من الفونيم .

ـ الآليات التّداولية ودورها في العملية الحجاجية : ويمكن أن يتناول هذا البحث أفعال الكلام المنبثقة عن الخبر كالتوكيد والقسم والوعد والوعيد ... وغيرها، وأفعال الكلام المنبثقة عن الإنشاء كالأفعال الإخبارية والتوجيهية والتعبيرية والإعلانية ... وغيرها .

وفي الأخير أتمنّى أنّي وفّقت في تيسير بعض المفاهيم المتعلقة بالحجاج وبيان كيفيّة إجراءاتها على الخطابة المسجدية ولو بشكل يسير فالله أسأل أن ينفع بهذا العمل وأن يكون فاتحة خير إلى أعمال جديدة تزدان بها خزانة المكتبة الأدبية كما لا يفوتني أن أجدّد الشّكر إلى الأستاذ الدكتور لخضر العربي الذي أعطاني من سمته قبل علمه سائلا المولى تبارك وتعالى أن يجعله كالغيث حيث ما حل نفع .

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية ورش

ـ المصادر :

01 ـ أحمد طالب الإبراهيمي، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، تونس ، ط 4، س 2015 .

ـ المراجع :

01 ـ أبو البقاء الكفوي ، الكليات، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط 2، س 1998 .

02 ـ أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار السلام، مصر، ط 1، س 2003 .

03 ـ أبو داود سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط خ، س 2009 .

04 ـ أحمد بن إبراهيم الهاشمي، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب، دار الكتب العلمية، ط 2، س 2003 .

05 ـ أحمد بن الحسين بن الحسن المتنبي، ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر لبنان، بد ط، س 1983 .

06 ـ أحمد بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، مكتبة دار الريان ، الجزائر، ط 2 س 2002 .

07 ـ أحمد بن محمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عباس، دار صادر، بيروت، س 1968 .

08 ـ أحمد رضا، معجم متن اللغة، دار مكتبة الحياة، لبنان، بدون ط، س 1958 .

09 . أحمد عبد الحليم بن تيمية، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، دار المكتبة العلمية، لبنان، بد ط، بد س .

10 ـ أحمد محمد الحوفي، فنّ الخطابة، نهضة مصر، مصر، بد ط، بد س .

11 ـ أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصر، عالم الكتب القاهرة، ط 1، س 2008

12 ـ أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، بد ط، بد س .

13 ـ أرسطو طاليس، الخطابة الترجمة العربية القديمة، ت عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت،بد ط، س 1979 .

14 ـ أسامة بن منقذ، ديوان أسامة بن منقذ، تح : أحمد حامد بدوي، عالم الكتب، بيروت، ط 2، س 1983 .

15 ـ إسماعيل الشافعي العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، تح يوسف بن محمود الحاج أحمد، مكتبة العلم الحديث، مصر، بد ط بد س .

16 ـ إسماعيل بن القاسم أبو العتاهية، ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، ط 1، س 1986 .

17 ـ إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح حكمت بشير، دار بن الجوزي، السعودية، ط 1، س 1431 هـ .

ـ تفسير القرآن الكريم، دار الفكر، بيروت ط 1، س 2000 .

19 ـ إسماعيل علي محمد، فن الخطابة ومهارات الخطيب(بحوث في إعداد الخطيب والداعية) دار الكلمة، مصر، ط 5، س 2016 .

20 ـ امرؤ القيس بن أبان، ديوان امرؤ القيس، تح محمد الاسكندراني، نهاد رزوق، دار الكتاب العربي، لبنان، س 2002 .

21 ـ أيمن أمين عبد الغني، الصرف الكافي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، بد ط، س 2010 .

22 ـ بدر الدين الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعرفة بيروت، ط 2، س 1972 .

23 ـ بدر الدين بن مالك، المصباح في المعاني والبيان والبديع، تح : حسني عبد الجليل، ملتزم الطبع والنشر، القاهرة، ط 1، س 1989 .

24 ـ جلال الدين السيوطي، شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، بد ط، بد س .

25 ـ جواد ختام، التداولية أصولها واتجاهاتها، دار كنوز المعرفة، ط 1، س 2016 .

26 ـ الحارث بن عباد، ديوان الحارث بن عباد، تح أنس عبد الهادي، أبو ظبي للثقافة والتراث، أبو ظبي، ط 1، س 2008 .

27 ـ حافظ إسماعيل علوي، الحجاج مفهومه ومجالاته دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، عالم الكتب الحديث، الأردن، ط 1، س 2010 .

28 ـ حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، ديوان الحماسة، تح أحمد حسن، دار المكتبة العلمية بيروت، ط 1، س 1998 .

29 ـ حرثان بن محرث بن الحارث ذو الإصبع العدواني، ديوان ذي الاصبع العدواني ، تح عبد الوهاب العدواني، مطبعة الجمهور، الموصل، العراق، بد ط، س 1973 .

30 ـ حسان بن ثابت، ديوان حسان بن ثابت،، دار الكتب العلمية، لبنان، ط 2، س 1994 .

31 ـ الحسن بن رشيق المسيلي، ديوان ابن رشيق القيرواني، جم عبد الرحمان باغي، دار الثقافة، بيروت، ط 1، س 1989 .

32 ـ الحسن بن قاسم المرادي، الجنى الداني في حروف المعانى، دار الكتب العلمية، لبنان ط 1، س 1992 .

33 ـ حسن محمد نور الدين، ديوان عدي بن الرقاع العاملي، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، س 1990 .

34 ـ الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط 1، س 2014 .

35 ـ حمزة عبد الله، الحديث المعلول، دار بن حزم، لبنان، ط 1، س 1996 .

36 ـ الخطيب التبريزي، مشكاة المصابيح، تح ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي دمشق، ط 1، 1961 .

37 ـ خويلد بن خالد بن محرث الهذلي، ديوان أبي ذؤيب الهذلي، تح أنطونيو بن بطرس دار صادر، بيروت، ط 1، س 2003 .

38 ـ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تح محمد سيد كيلاني، دار المعرفة لبنان، بد ط، بد س .

39 ـ رفيق العجم، الأصول الإسلامية، دار القلم، لبنان، ط 1، س 1983 .

40 ـ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، الأردن ط 2، س 2011 .

41 ـ سليمان بن الأشعث أبو داود، سنن أبي داود، تح شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، بيروت، ط خ، س 2009 .

42 ـ سمر الديوب، الثنائيات الضدية . بحث في المصطلح ودلالته .، المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية، سوريا، ط 1، س 2017 .

43 ـ الشريف الرضي، نهج البلاغة، تح قيس بهجت العطار، مؤسسة الرافد للمطبوعات بغداد، ط 1، س 2010 .

44 ـ شمس الدين الذهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار المعرفة للطباعة والنشر لبنان، ط 1، س 1963 .

45 ـ شهاب الدين الأبشيهي، المستطرف من كل فن مستظرف، تح محمد مهنا، مكتبة الإيمان مصر، ط 2، س 2006 .

46 ـ صابر لحباشة، التداولية والحجاج مداخل ونصوص، صفحات للدراسة والنشر، دمشق ط 1، س 2008 .

47 ـ ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، دار نهضة صر، بد ط، بد س .

48 ـ طارق السويدان، فن الإلقاء الرائع، شركة الإبداع الفكري، الكويت، بد ط، بد س .

49 ـ الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير،دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، س 1997

50 ـ طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، بيروت الدار البيضاء، ط 1، 1998 .

51 ـ عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف المصرية، مصر، ط 3، بد س .

52 ـ عبد الجليل عبده شلبي، الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، القاهرة، ط3، س 1987

53 ـ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، دار القلم دمشق، ط 1، س 1996 .

54 ـ عبد الرحمان بن محمد ولي الدين بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، تحقيق عبد الله محمد الدرويش، دار البلخي، دمشق، ط 1، س 2004 .

55 ـ عبد العزيز الميمني، ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، دار الكتب المصرية، مصر س 1950 .

56 ـ عبد العظيم بن الواحد بن أبي الإصبع تحفة التحبير (في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن)، تح حفني محمد شرف، الجمهورية العربية المتحدة بد ط، بد س .

57 ـ عبد القادر بن محمد الحنبلي، الدرر الفرائد المنظمة من أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تح محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 2002 .

58 ـ عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بد ط، بد ت .

ـ دلائل الإعجاز، تح محمود شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، بد ط، بد ت .

60 ـ عبد الكريم الأشتر، شعر دعبل بن علي الخزاعي، مجمع اللغة العربية، دمشق ، ط 2، س 1983 .

61 ـ عبد اللطيف عادل، بلاغة الاقناع في المناظرة، منشورات ضفاف، لبنان، ط 1، س 2013 .

62 ـ عبد الله بن المعتز، كتاب البديع، تح عرفان مطرجي، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ط 1، س 2012 .

63 ـ عبد الله بن عبد الرحمان بن عقيل، شرح إبن عقيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1 س 1971 .

64 ـ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 2، 2007 .

65 ـ عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تح مصطفى السقا، دار المعرفة، بيروت،

66 ـ عز الدين كيحل، النصيحة لكتاب الله، الجزائر، ط 1، س 2002 .

67 ـ العز بن عبد السلام، كتاب الفتاوى للإمام العز بن عبد السلام، تح عبد الرحمان عبد الفتاح، دار المعرفة، بيروت، ط 1 .

68 ـ علي أبو المكارم، أصول التفكير النحوي، دار غريب للطباعة والنشر، مصر، ط1 س 2006 .

69 ـ علي بن محمد الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، مؤسسة النور، بيروت، لبنان، ط 2، س 1402 هـ .

70 ـ علي بن محمد الجرجاني، معجم التعريفات، تحقيق محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة القاهرة، بد ط، بد س .

71 ـ علي بن محمد التهامي، ديوان أبو الحسن علي بن محمد التهامي، تح محمد بن عبد الرحمان الربيع، مكتبة المعارف، الرياض، ط 1، س 1982 .

72 ـ علي محفوظ، فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام، القاهرة، بد ط، بد س .

73 ـ علي محمد الصلابي، السيرة التبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار التوزيع والنشر الاسلامية، مصر، ط 1، سنة 2001 .

74 ـ عمر اليافي، ديوان عمر اليافي، المكتبة العلمية، بيروت، بد ط، بد س .

75 ـ غيلان بن عقبة بن مسعود (ذي الرمة)، ديوان ذي الرُمّة، شرح أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 1995 .

76 ـ أبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأمثال، تح عبد المجيد قطاش، دار المأمون للتراث بيروت، ط 1، س 1980 .

77 ـ القاسم بن علي أبو محمد الحريري، درة الغواص في أوهام الخواص، مكتبة المثنى، بغداد بد ط، بد س .

78 ـ قدامة بن جعفر، نقد الشعر، تح كمال مصطفى، مكتبة المثنى، بغداد، ط 1، س 1963 .

79 ـ كعب بن زهير، ديوان كعب بن زهير، تح علي فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت ط 1، س 1997 .

80 ـ لويس شيخو اليسوعي، علم الأدب، مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت، ط 3، س 1936

81 ـ مالك بن أنس، الموطأ (رواية الزهري)، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، دار طليطلة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، س 2015 .

82 ـ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، تر: بسام بركة . أحمد شعبو، ط 2، س 2002 .

83 ـ مجد الدين الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط 8، س 2005 .

84 ـ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشرق الدولية، القاهرة، س 2004 .

85 ـ محمد أبو بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بد ط، س 1986

86 ـ محمد أبو زهرة، الحديث والمحدثون، دار الكتاب العربي، لبنان، س 1984 .

ـ الخطابة (أصولها تاريخها في أزهر عصورها عند العرب)، دار الفكر العربي، مصر ط 2، س 1980 .

88 ـ محمد أحمد قاسم، محي الدين ديب، علوم البلاغة (البديع، البيان، والمعاني) المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط 3، 2003 .

89 ـ محمد اشبال، البلاغة والخطاب، دار الأمان، الرباط، ط 1، 2014 .

90 ـ محمد العمري، في بلاغة الخطاب الإقناعي(مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية)، دار الثقافة، المغرب، ط 1، 1986 .

91 ـ محمد بن أبي القاسم بن محمد السجلماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علال الغازي، مكنبة المعارف، الرباط، ط 1، س 1980 .

92 ـ محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ت سالم مصطفى البدري،دار الكتب العلمية بيروت، ط 1 ، س 2000 .

93 ـ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، دار صبح، بيروت س 2007 .

94 ـ محمد بن صالح العثيمين، الجامع في شروح الآجرومية، دار التقوى، مصر، س 2016

95 ـ محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم، المستدرك على الصحيحين، دار التأصيل، مصر ط 1، س 2014 .

96 ـ محمد بن علي بن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام، ت محمد حامد الفقي، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، س 1953 .

97 ـ محمد بن عيسى الترمذي، الجامع الصحيح، ت أحمد محمد شاكر، دار الملتزم ، ط 2 ، بد س .

ـ الجامع الكبير، تح بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، س 1996 .

99 ـ محمد جبار المعيبد، ديوان عدي بن زيد العبادي، دار الجمهورية للنشر والطبع، العراق، س 1965 .

100 ـ محمد خان، أصول النحو العربي، مخبر اللسانيات واللغة العربية، الجزائر، س 2012

101 ـ محمد خير الحلواني، أصول النحو العربي، الناشر الأطلسي، الرباط، المغرب، ط 2 س 1983 .

102 ـ محمد علي الصابوني، مختصر تفسير بن كثير، دار القرآن الكريم، بيروت، ط 7، س 1981 .

103 ـ محمد فاضل السامرائي، الصرف العربي أحكام ومعان، دار الفكر، لبنان، ط 1، س 2013 .

104 ـ محمد محدة، مختصر أصول الفقه الإسلامي، دار الشهاب، بد ط، بد س .

105 ـ محمد مرتضى الحسني الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح محمود محمد الطناحي، س 1993 .

106 ـ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الترغيب والترهيب، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، ط 1، س 2000 .

ـ إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1، س 1979 .

ـ صحيح الجامع الصغير وزيادته . الفتح الكبير .، المكتب الإسلامي، السعودية، ط 3 س 1988 .

109 ـ محمود سامي البارودي، ديوان البارودي، دار العودة، لبنان، بد ط، س 1998 .

110 ـ محي الدين عميمور، أيام مع الرئيس هواري بومدين وذكريات أخرى، دار اقرأ، بيروت، ط 1، س 1991 .

111 ـ مسلم بن الحجاج، مختصر صحيح مسلم، تح ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 6، س 1987 .

ـ صحيح مسلم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، س 1991 .

113 ـ مصطفى غلاييني، جامع الدروس العربية، المكتبة العصرية، لبنان، ط 1، س 1993

114 ـ مهلهل بن ربيعة (الزير سالم)، ديوان مهلهل بن ربيعة، تح طلال حرب، الدار العالمية للنشر، القاهرة، بد ط، بد س .

115 ـ موسى الأحمدي نويوات، المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي، دار البصائر الجزائر، ط خ، س 2009 .

116 ـ ناصح علوان، تربية الأولاد، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط 21 س 1992 .

117 ـ نبيل بن منصور البصارة، أنيس الساري في تخريج أحاديث فتح الباري، مؤسسة الريان، لبنان، ط 1، س 2005 .

118 ـ نذير حمادو، تيسير مصطلح الحديث، بدون ط، بد س .

119 ـ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتاب العربي بيروت، بد ط، بد س .

120 ـ الهيثم بن الربيع أبو حية النميري، شعر أبي حية النميري، تح يحي الجبوري منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، بد ط، س 1975.

121 ـ الوليد بن عبيد البحتري، ديوان البحتري، تح حسن كامل الصيرفي، دار المعارف القاهرة، ط 3، س 1963 .

122 ـ يونس الجنابي، أسلوب التعليل وطرائقه في القرآن العظيم، دار المدار الاسلامي لبنان، ط 1، س 2004 .

فهرست المواضيع :

مقدمة : ..... أ

الفصل الأوّل : ضبط المفاهيم

1 ـ الخطابة : 01

1 ـ 1 ـ التعريف والنشأة :..... 01

1 ـ 1 ـ أ : تعريف الخطابة لغـــة :..... 01

1 ـ 1 ـ ب : اصطـــلاحا :..... 02

1 ـ 2 ـ نشأة الخطابة :..... 03

2 ـ أقسام الخطبة وعوامل نجاحها:..... 06

2 ـ 1 ـ أقسام الخطبة : 06

2 ـ 2 : عوامل نجاح الخطبة : 08

3 ـ أنواع الخطابة :..... 10

3 ـ 1 ـ الخطب السياسية :..... 12

3 ـ 2 ـ الخطب العسكرية : 18

3 ـ 3 ـ الخطب القضائية : 21

3 ـ 4 ـ الخطب الدينية :..... 25

3 ـ 5 ـ الخطب المحفلية : 35

4 ـ الحجاج :.....42

4 ـ 1 ـ تعريف الحجاج :.....42

4 ـ 2 ـ الحجاج عند بيرلمان :.....45

4 ـ 3 ـ الحجاج عند محمد العمري :.....48

4 ـ 4 ـ الحجاج في اللغة :.....50

4 ـ 5 ـ السلم الحجاجي :.....52

الفصل الثّاني : الآليات المنطقية

1 ـ أسلوب التعليل : 59

1 . 1 ـ العلة : 59

1 . 2 ـ التعليل باللام : 65

1 ـ 3 ـ المفعول لأجله : 72

1 ـ 4 ـ التعليل بألفاظ أخر كـ (الغاية، السبب، لأجل، لأن ....) : 78

2 ـ الوصف : 83

2 ـ 1 : اسم الفاعل : 84

2 ـ 2 : اسم المفعول :.....90

2 ـ 3 ـ الصفة المشبهة : 97

3 ـ تحصيل الحاصل : 104

الفصل الثالث : الآليات الشبه منطقية

1 . الروابط الحجاجية :.....114

1 ـ 1 ـ الرابط بل : 114

1 . 2 . الرابط لكن : 118

1 . 3 . الرابط حتى :.....121

2 ـ أضرب الخبر : 124

3 ـ الصيغ الصرفية :.....132

3 ـ 1 : اسم التفضيل :.....132

3 . 2 : صيغ المبالغة :.....136

4 ـ فحوى الخطاب :.....148

5 . حجة الدليل : 156

الفصل الرابع : الآليات البلاغية :

1 ـ البيان : 168

1 ـ 1 : الاستعارة :.....117

1 ـ 2 ـ التمثيل : 191

2 ـ البديع : 203

2 . 1 : المحسّنات البديعيّة المعنويّة :.....208

2 ـ 2 : المحسّنات اللّفظية : 222

ـ خاتمة : 238

ـ قائمة المصادر والمراجع : 241

ـ فهرست المواضيع : 255

ملخص الدراسة :

سعيت من خلال هذه الأطروحة الموسومة بـ: "الحجاج في فنّ الخطابة البشير الإبراهيمي ـ أنموذجا– " إلى التعرّض لأساليب الحجاج في الخطابة الحديثة، من خلال دراسة تطبيقيّة لأعمال البشير الإبراهيمي والمتمثّلة في آثار الإمام التي جمعها نجله أحمد البشير، وقد تناولت في هذه الدراسة مختلف الآليات (اللّغوية، شبه المنطقية، البلاغية) والتي من شأنها إحداث نقلة نوعية في الخطابة الحديثة ، والخروج من أشكال النمطيّة والتّقليد إلى أفق الإبداع والتألق .

–الكلمات المفتاحية : الحجاج ،الخطابة،البلاغة العربية ، البشير الإبراهيمي

Résumé :

A travers cette thèse taguée avec: "Al-Hajjaj dans l'art de la rhétorique Al-Bashir Al-Ibrahimi - comme modèle-" j'ai cherché à exposer les méthodes d'Al-Hajjaj dans la rhétorique moderne, à travers une étude appliquée d'Al-Bashir Al -Les œuvres d'Ibrahimi représentées dans les effets de l'Imam recueillis par son fils Ahmed Al-Bashir.Dans cette étude, j'ai traité de divers mécanismes (linguistiques, semi-logiques, rhétoriques) qui entraîneront un changement qualitatif dans la rhétorique moderne, et obtiendront des formes de stéréotypes et d'imitation à l'horizon de la créativité et du génie

Les mots clés : Al-Hajjaj, prise de parole en public, rhétorique arabe, Al-Bashir Al-Ibrahimi.

Abstract

In this thesis under the title: “Argumentation in rhetoricof, Al-Bashir Al-Ibrahimi - as a case study”, I sought to expose the methods of argumentation in modern rhetoric, through an applied study of al-Bashir al-Ibrahimi’s works –the corpus of the Imam’s collected by his son Ahmed al-Bashir. In this study, I dealt with various mechanisms (Linguistic, semi-logical, rhetorical) which would bring about a qualitative shift in modern rhetoric, and get out of the forms of stereotyping and imitation to the horizon of creativity and brilliance.

- **Keywords**: Argumentation, public speaking, Arabic rhetoric, al-Bashir al-Ibrahimi